بسم الله الرحمن الرحيم

ميقات الحج

مجلة نصف سنويّة تعنى بالشؤون الثقافية
والتّاريخية والسياسية والاجتماعية للحج

العدد ٣٥

محرم ـ جمادى الثانية
١٤٣٢هـ ـ السنة : ١٨

المدير المسؤول: السيّد علي قاضي عسكر

مدير التحرير: محمّد علي المقدادي

العنوان: ايران، طهران - شارع آزادي - منظّمة الحجّ

والزيارة - الطابق ٥

صندوق البريد: ٥٨٥٦ / ١٤١٥٥

www.hadj.ir

E-mail: Beseh @ hadj.ir

الفهرس

وصف حجّ رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث الإمام الباقر عليه السلام
حضور الصادقين عليهما السلام قلّل الاختلاف في المناسك ٥
آية الله الشيخ جعفر السبحاني
مكة المكرمة والحج . . خصائص وبركات ٢١
السيّد علي قاضي عسكر
ميقات ذي الحليفة مسجد الشجرة أو البيداء ؟ ٤١
آية الله الشيخ محمد القايني
الإحصار في الحج والعمرة«٢» ٦٣
حسن محمد
شخصيات من الحرمين الشريفين(٢٩) زيد بن حارثة ١١١
محمد سليمان
حكم صلاة الطواف خلف المقام حيث ما كان ١٥٧
علي عندليب
قراءة في كتاب «حقيقة الحج» ٢٠١
محسن الأسدي
جولة حول الصحافة في السعودية ٢٤٥

ملاحظات

يرجى من العلماء والمحققين الأفاضـــل الذين يرغبون في التعاون مع المجلة أن يراعوا عند إرسال مقالاتهم النقاط التالية:

١ ـ أن تقترن المقالات بذكر المصادر والهوامش بدقّة وتفصيلٍ.

٢ ـ أن لا تتجاوز المقالة ٤٠ صفحة وأن تكون مضروبة على الآلة الكاتبة إن أمكن أوأن تكتب بخط اليد على وجه واحد من كلّ ورقة.

٣ ـ أن تكون المادّة المرسلة للنشر في المجلة غير منشورة سابقاً وغير مرسلة للنشر إلى مجلة أخرى.

٤ ـ تقوم هيئة التحرير بدراسة وتقييم البحوث والدراسات المقدمة إلى المجلـــة، ولهاالحقّ في صياغتها وتعديلها بما تراه مناســـباً مع مراعاة المضمون والمعنى.

٥ ـ يعتمد ترتيب البحوث والمقالات في المجلة على أســـس فنيّة وليس لأسباب أخرى.

٦ ـ تعتذر هيئة التحرير عن إعادة المقالات إلى أصحابها سواء أنشرت أم لم تنشر.

٧ ـ المقالات والبحوث التي تنشـــر على صفحـــات المجلة تمثل وجهات نظر وآراءكتّابها.

٨ ـ ترسل جميع البحوث والمقالات على عنوان المجلة في طهران.

٩ ـ ترحّـــب هيئة التحرير في مجلة ميقات الحج بملاحظات القرّاء الكرام ومقترحاتهم.

وصف حجّ رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث الإمام الباقر عليه السلام حضور الصادقين عليهما السلام قلّل الاختلاف في المناسك

آية الله الشيخ جعفر السبحاني

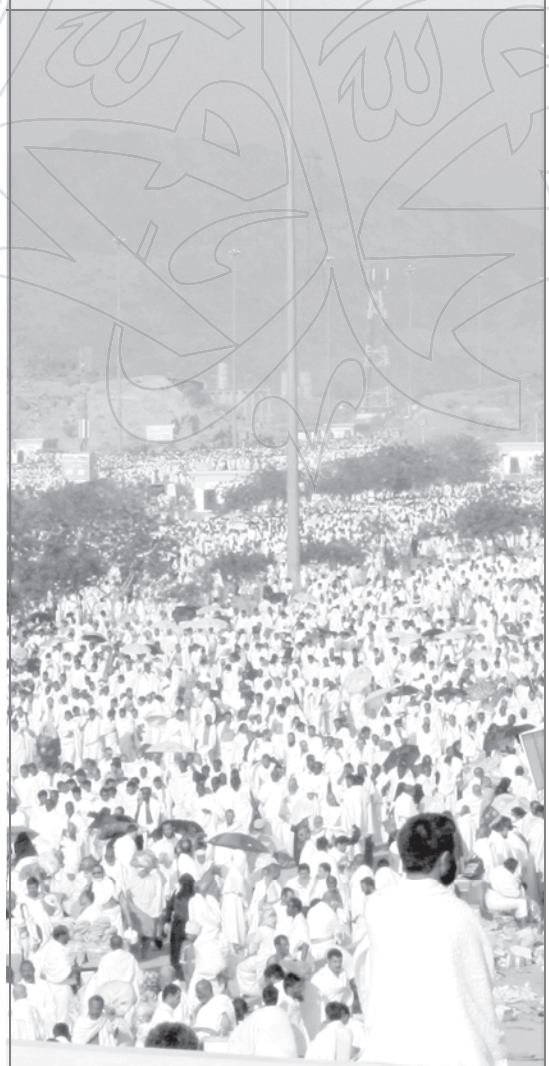

الحمد لله الــذي جعل الكعبة للناس قيامــاً، والبيت الحرام مثابة لهم وأمناً، وجعل زيارة بيته فريضة على المســلمين رجالاً ونســاءً، شيباً وشبّاناً، وعلى كل لون وجنس ممن آمن بالله ورســوله وكتابه وسنته، حتــى يــؤدّوا تلــك الفريضة العبادية السياسية على صعيد واحد، وفي أجواء روحية تسمو فيها مشاعر الوحدة والتقارب بين المسلمين، دون أن يكون بينهم تنازع وتناوش.

والحــجّ، مع كونه من أفضل العبادات الفردية، فإنّ له أبعاداً سياســية واجتماعية عميقة، فهو بمثابــة مؤتمر ســنويّ موسّع، يجتمع فيه المسلمون من مختلف البلدان، فيوفّر لهم فرصة ثمينة للبحث والتشاور وتبــادل الــرأي فــي قضايا الإسلام، وشــؤون الأمّة، في حاضرها ومستقبلها، ودراسة سُــبل توحيد قواهــم، ورصّ صفوفهــم، وحلّ مشــاكلهم، حتى يعــودوا جبالاً راســية أمام المعتدين والمستكبرين، الذيــن يتربّصون بهم الشــرّ، ويطمعــون في نهــب أموالهم وثرواتهم وســحق كرامتهم، وقتــل رجالهم ونســائهم بلا هوادة.

إنّ فريضــة هــذه طبيعتها وطابعهــا تقتضــي أن يكون الخــلاف فــي أداء طقوســها وواجباتها نادراً حتّى لايشتغل المســلمون بالخلافات الفقهية في أداء المناسك، ولاتصدّهم عــن الأهــداف السياســية والاجتماعية المُبتغاة في ذلك المؤتمر السنوي.

ومن حســن الحــظّ أنّا نجد

أنّ الخلاف بين الفقهاء السنّة والشيعة في مناسك الحج، قليل إلى درجة لايؤثر معها في وحدة الكلمة ورصّ الصفوف، ولذلك أسباب وعلل أهمّها أمران:

١. إنّ رسول الإسلام صلى الله عليه وآله مكث سنين في المدينة ولم يحج، ثم أذّن في الناس للحج في السنة العاشره، فلبّى كثير من المسلمين نداءه، ورافقوه في مراحل الحج ابتداءً من الإحرام في ذي الحليفة حتّى الخروج عن إحرام الحجّ.

فهذا الجمع الحاشد قد مارس هذه العبادة مع رسول الله صلى الله عليه وآله الأمر الذي أدّى إلى تعلّم الصحابة وغيرهم فرائض الحج وسننه منه مباشرةً.

فكم هو الفرق بين معلم يخطب ويتكلم ويأمر الناس بأعمال وتروك، وبين من يمارس العمل بنفسه والناس يتبعونه في أفعاله وتروكه، لا شكّ في أنّ ما يقوم به الثاني يكون أرسخ في القلوب، وأوفر حظّاً في إيصاله إلى الأجيال اللاحقة.

٢. العامل الآخر لتقليل الخلاف حضور الإمامين العظيمين، محمد الباقر عليه السلام وجعفر الصادق عليه السلام في مواسم الحجّ عاماً بعد عام، ورجوع الناس إليهم في بعض الفترات التي خفّ فيها ـ نوعاً مّا ـ الضغطُ على أئمة أهل البيت عليهم السلام لاسيّما في الفترة الممتدّة بين أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي.

وقد انصبّ اهتمام الإمامين عليهما السلام على تعليم فريضة الحجّ ونشرها بين

الناس طوال سنين، فهذا هو زرارة بن أعين يقول: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلني الله فداك أسألك في الحجّ منذ أربعين عاماً فتفتيني؟! فقال: «يا زرارة! بيت يحج إليه قبل آدم بألفي عام تريد أن تفنى مسائله في أربعين عاماً»؟![1]

والحديث يعرب عن أنّه كان للإمام الصادق عليه السلام دور عظيم في تبيين مناسك الحجّ وتعليم مناسكه، حيث كان يفتي فيها أربعين سنة، وقد أخذ بزمام الإمامة عام ١١٤هـ. وتوفي سنة ١٤٨هـ. وعلى هذا فإنّه كان يفتي أيضاً في حياة أبيه.

الإمام الباقر عليه السلام يصف حج رسول الله صلى الله عليه وآله

واجهت الدولة الأموية انتفاضات شعبية واسعة في أكثر البلاد الإسلامية شغلتها ـ إلى درجة مّا ـ عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام فقام الإمام الباقر عليه السلام ببيان أحكام الحجّ فرائضه وسننه بوجه دقيق، وقد روى مسلم في صحيحه، عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: دخلنا على جابر بن عبدالله، فسأل عن القوم حتّى انتهى إليّ، فقلت: أنا محمّد بن علي بن الحسين، فأهوى بيده إلى رأسي، فنزع زرّي الأعلى، ثمّ نزع زرّي الأسفل، ثمّ وضع كفّه بين ثديَيّ وأنا يومئذٍ غلام شابٌّ، فقال: مرحباً بك يا ابن أخي سل عمّا شئت، فسألته وهو أعمى، وحضر وقت الصلاة، فقام في نساجة ملتحفاً بها كلّما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها، ورداؤه إلى جنبه على المشجب، فصلّى

بنا، فقلت: أخبرني عن حجّة رسول‌الله ﷺ فقال بيده فعقد تسعاً فقال:

إنّ رسول‌الله ﷺ مكث تسع سنين لم‌يحجّ، ثمّ‌أذّن في النّاس في العاشرة: أنّ رسول‌الله ﷺ حاجٌّ، فقدم المدينة بشر كثير كلّهم يلتمس أن يأتمّ برسول‌الله ﷺ ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس محمّد بن أبي‌بكر، فأرسلت إلى رسول‌الله ﷺ كيف أصنع؟ قال: اغتسلي واستثفري بثوب وأحرمي، فصلّى رسول‌الله ﷺ في المسجد، ثمّ ركب القصواء حتّى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرتُ إلى مدّ بصري بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول‌الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله وما عمل به من شيء عملنا به، فأهلّ بالتوحيد، لبيّك اللّهمّ لبّيك لاشريك لك لبّيك إنّ الحمد و النّعمة لك والملك لا شريك لك، وأهلّ النّاس بهذا الّذي يُهلّون به، فلم يردّ رسول‌الله ﷺ عليهم شيئاً منه، ولزم رسول‌الله ﷺ تلبيته، قال جابر رضي الله عنه: لسنا ننوي إلاّ الحجّ لسنا نعرف العمرة.

حتّى إذا أتينا البيت معه استلم الرّكن، فرمل ثلاثاً،[٢] ومشى أربعاً، ثمّ نفذ إلى مقام ابراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.[٣] فجعل المقام بينه وبين البيت، فكان أبي يقول: ولا أعلمه ذكره

إلاّ عــن النبيﷺ كان يقرأ في الرّكعتين قل هو الله أحد، وقل يا أيّها الكافرون، ثمّ رجع إلى الرّكن فاســتلمه، ثمّ خرج من الباب إلــى الصّفا، فلمّا دنا من الصّفا قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللّٰهِ﴾.[٤] أبدأ بما بدأ الله به، فبــدأ بالصّفــا فَرَقِيَ عليه حتّى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحّد الله و كبّره وقال: «لا إله إلاّ الله وحده لا شــريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير، لا إله إلاّ الله وحده، أنجز وعــده، ونصــر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

ثــمّ دعا بين ذلــك، قال مثل هذا ثلاث مــرّات، ثمّ نزل إلى المروة حتّى إذا انصبّت قدماه في بطن الوادي، ســعى حتّى إذا صعدتــا مشــى حتّى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتّى إذا كان آخر طوافه على المروة، فقال: «لــو أنّي اســتقبلت من أمري ما اســتدبرت لم أسُق الهدي، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحلّ وليجعلها عمرة».

فقام ســراقة بــن مالك بن جُعشــم فقال: يا رســول الله ألعامنــا هذا أم لأبد؟ فشــبّك رســول اللهﷺ أصابعه واحدة في الأخــرى وقــال: «دخلت العمــرة فــي الحــجّ مرّتين لا بل لأبــدٍ أبدٍ، وقــدم عليٌّ عليه السلام من اليمن ببُــدن النبيﷺ ... (فقال له: رســول اللهﷺ) ماذا قلــت حين فرضت الحج؟ قال: قلت: أللهمّ إنّي اُهِلُّ بما أهَلَّ به رسولُك؛ قال: فإنّ معي الهدي فلاتحلّ».

قال: فكان جماعة الهدي الّذي

قدم به عليٌّ من اليمن والّذي أتى به النّبيّ ﷺ مائة؛ قال: فحلّ الناس كلّهم وقصّروا، إلاّ النبيّ ﷺ ومن كان معه هدي.

فلمّا كان يوم التروية توجَّهوا إلى منى، فأهلّوا بالحجّ وركب رسول الله ﷺ فصلّى بها الظُّهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثمّ مكث قليلاً حتّى طلعت الشمس، وأمر بقُبّة من شعر تُضرب له بنمرة، فسار رسول الله ﷺ ولاتشكّ قريش إلاّ أنّه واقف عند المشعرالحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله ﷺ حتّى أتى عرفة، فوجد القبّة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتّى إذا زاغت الشَّمس أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى بطن الوادي فخطب الناس.

وقال: «إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوع، ودِماء الجاهلية موضوعة، وإنّ أوّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ـ كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل ـ وربا الجاهلية موضوع، وأوّل رِباً أضع ربانا ربا عبّاس بن عبدالمطّلب، فإنّه موضوع كلّه، فاتّقوا الله في النِّساء فإنّكم أخذتموهنّ بأمان الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، ولكم عليهنّ أن لايوطِئْنَ فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضرباً غير مبرّح، ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف؛ وقد تركتُ فيكم ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به:

كتاب الله،[٥] وأنتم تسألون عنّي فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت وأدّيت ونصحت، فقال بإصبعه السّبّابة يرفعها إلى السّماء وينكتها إلى النّاس: اللهمّ اشهد، اللهمّ اشهد، ثلاث مرّات».

ثمّ أذّن، ثمّ أقام فصلّى الظُّهر، ثمّ أقام فصلّى العصر، ولم يُصلّ بينهما شيئاً ثمّ ركب رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصَّخرات، وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتّى غربت الشَّمس وذهبت الصُّفرة قليلاً حتّى غاب القُرص وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله صلى الله عليه وآله وقد شنق للقصواء الزِّمام حتّى أنّ رأسها ليُصيب مورك رَحله ويقول بيده اليمنى: «أيّها النّاس السَّكينة السَّكينة» كلّما أتى حبلاً من الحبال أرخى لها قليلاً حتّى تصعد، حتّى أتى المزدلفة فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبّح بينهما شيئاً، ثمّ اضطجعَ رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى طلع الفجر، وصلّى الفجر حين تبيّن له الصّبح بأذان وإقامة، ثمّ ركب القصواء حتّى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبّره وهلّله ووحّده، فلم يزل واقفاً حتّى أسفر جِدّاً فدفع قبل أن تطلع الشَّمس.

وأردف الفضل بن عبّاس، وكان رجلاً حسن الشَّعر أبيض وسيماً، فلمّا دفع رسول الله صلى الله عليه وآله مرّت به ظُعُنٌ يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهنّ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده على وجه الفضل فحوّل الفضل وجهه إلى الشِّق الآخر ينظر، فحوّل رسول الله صلى الله عليه وآله يده من الشِّقّ الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه من الشِّقّ الآخر ينظر، حتّى أتى بطن محسّر فحرّك قليلاً، ثمّ سلك الطّريق الوسطى الّتي تخرج على الجمرة الكبرى حتّى أتى الجمرة التي عند الشجرة، فرماها بسبع حصيات يكبِّر مع كلّ حصاة منها مثل حصى الحذف رمى من بطن الوادي، ثمّ انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستّين بيده، ثمّ أعطى عليّاً عليه السلام فنحر ما غبر وأشركه في هديه، ثمّ أمر من كلِّ بدنة ببضعة فجعلت في قدر، فطبخت فأكلا من لحمها و شربا من مرقها، ثمّ ركب رسول الله صلى الله عليه وآله فأفاض إلى البيت، فصلّى بمكّة الظُّهر فأتى بني عبدالمطلب يسقون على زمزم، فقال: «أنزعوا بني عبدالمطّلب، فلولا أن يغلبكم النّاس على سقايتكم لنزعتُ معكم» فناولوه دلواً

فشرب منه.[٦]

إنّ نقل الإمام الباقر عليه السلام هذه المناسك عن جابر بن عبدالله، إنّما هو لأجل إقناع عامّة المسلمين بما يرويه، وإلاّ فهو صلوات الله وسلامه عليه أعرف بها من هذا الصحابيّ الجليل، لكن الظروف ألجأته إلى روايتها عنه، لتقع موقع القبول من عامّة المسلمين.

السيّد البروجردي يُهدي هذا الحديث إلى الملك سعود

وممّا يحسن ذكره أنّ الملك سعود بن عبدالعزيز زار إيران عام ١٣٧٤ هـ وأهدى إلى السيد المحقق البروجردي مصاحف مطبوعة بمكة وقطعاً من كسوة الكعبة وهدايا أخرى، فكتب السيد البروجردي إلى سفير المملكة في طهران رسالة جاء فيها:

«... ولمّا كان أمر الحج في هذه السنين بيد جلالة الملك، أرسلت حديثاً طويلاً في صفة حجّ رسول الله صلى الله عليه وآله رواه مسلم في صحيحه، وأبوداود في سننه، ويستفاد منه أكثر أحكام الحجّ إن لم يكن كلّها... وأسأل الله عزّ شأنه أن يؤلف بين قلوب المسلمين، ويجعلهم يداً واحدة على من سواهم، ويوجههم إلى أن يعملوا بقول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.[٧] ويجتنبوا التدابر والتباغض واتباع الشهوات الموجبة لافتراق الكلمة، ويلتزموا بقول الله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِيَن آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَتَبَيَّنُوا وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ

والسلام عليكم ورحمة الله ـ حسين الطباطبائي

فإذا كان هذا دور الإمام الباقر عليه السلام في نشر حج رسول الله صلى الله عليه وآله وقطع دابر الاختلاف، فقد واصل الإمام الصادق عليه السلام نفس الدور بعد وفاة أبيه، فكان يحضر في المواسم عاماً بعد عام، والناس يصدرون عن فتاواه، وإليك بعض ما روي عنه:

١. روى الشيخ الطوسي في التهذيب عن عبدالصمد بن البشير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: جاء رجل يلبّي حتى دخل المسجد وهو يلبّي وعليه قميص فوثب إليه أناس من أصحاب أبي حنيفة، فقالوا: شق قميصك وأخرجه من رجليك، فإنّ عليك بدنة، وعليك الحج من قابل وحجّك فاسد، فطلع أبوعبدالله عليه السلام فقام على باب المسجد فكبّر واستقبل الكعبة، فدنا الرجل من أبي عبدالله عليه السلام وهو ينتف شعره ويضرب وجهه، فقال أبوعبدالله عليه السلام: اسكن يا عبدالله، فلمّا كلمه وكان الرجل أعجميّاً، فقال أبوعبدالله عليه السلام :ماتقول؟

قال: كنت رجلاً أعمل بيدي، فاجتمعت لي نفقة، فجئت أحجّ لم أسأل أحداً عن شيء، فأفتوني هؤلاء أن أشق قميصي، وأنزعه من قبل رجلي، وإن حجّي فاسد، وإن عليّ بدنة.

فقال له: متى لبست قميصك أبعد ما لبّيت أم قبل؟ قال: قبل أن ألبّي؛ فقال: «أخرجه من رأسك، فإنّه ليس عليك بدنة، وليس عليك الحجّ من قابل،

أي رجل ركب أمراً بجهالة فلاشيء عليه، طف بالبيت سبعاً وصلّ ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام واسعَ بين الصفا والمروة وقصّر من شعرك، فإذا كان يوم التروية فاغتسل وأهل بالحجّ واصنع كما يصنع النّاس».[9]

ونحن وإن كنا نسمع من المسؤولين في الحجّ شعار تيسير الحج وتسهيله، ولكن التسهيل يجب أن يكون مبنيّاً على أسس صحيحة متخذة من القرآن والسنة، وترى أنّ الإمام الصادق عليه السلام سهل الأمر، وأفتى بصحّة حجّه، لكن مستدلاً بأصل فقهي متفق عليه من أنّ أي رجل ركب أمراً بجهالة فليس عليه شيء، خصوصاً إذا كان جهله عن قصور لا عن تقصير، كما هو واضح.

ونرى أيضاً موقف الإمام الصادق عليه السلام في موسم الحج، ووثوب النّاس إليه في تعليم مناسكه في الرواية التالية:

٢. روى الشيخ الطوسي في التهذيب عن معاوية بن عمّار: إنّ امرأة هلكت، فأوصت بثلثها يتصدق به عنها ويحجّ عنها ويعتق عنها، فلم‌يسع المال ذلك؛ فسألت أباحنيفة وسفيان الثوري، فقال كلّ واحد منهما: انظر إلى رجل قد حجّ فقُطع به فيقوّى، ورجل قد سعى في فكاك رقبته فيبقى عليه شيء فيعتق، ويتصدّق بالبقية، فأعجبني هذا القول وقلت للقوم ـ يعني أهل المرأة ـ إنّى قد سألت لكم فتريدون أن أسأل لكم من هو أوثق من هؤلاء؟ قالوا: نعم؛ فسألت

أباعبدالله عليه السلام عن ذلك فقال: «ابدأ بالحج فإنّ الحجّ فريضة، فما بقي فضعه في النوافل». قال: فأتيت أباحنيفة فقلت: إنّي قد سألت فلاناً فقال لي كذا و كذا؛ قال: فقال هذا والله الحق، وأخذ به وألقى هذه المسألة على أصحابه، وقعدت لحاجة لي بعد انصرافه فسمعتهم يتطارحونها، فقال بعضهم بقول أبي حنيفة الأوّل، فخطأه من سمع هذا وقال: سمعت هذا من أبي حنيفة منذ عشرين سنة.[١٠]

إنّ ما أفتى به الإمام الصادق عليه السلام لم يكن اجتهاداً في حكم الله من الكتاب والسّنة، وإنّما هو علم تعلّمه من آبائه؛ وقد قال مراراً: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّى حديث علي

بن أبي طالب أميرالمؤمنين وحديث علي أميرالمؤمنين حديث رسول‌الله و حديث رسول‌الله، قول الله عزّوجلّ».

وقد عرفت الأمّة الإسلامية علماؤها ومحدثوها أنّ الإمام الصادق عليه السلام هو الباب المأتي منه، وفيما يلي نذكر بعض كلماتهم:

١. هذا هو أبوحنيفة، يفتخر ويقول بأفصح لسان: «لولا السنتان لهلك نعمان» يعني السنتين اللتين جلس فيهما لأخذ العلم عن الإمام الصادق عليه السلام.[١١]

٢. قال الحسن بن زياد اللؤلؤي سمعت أباحنيفة ـ و قد سئل من أفقه من رأيت؟ـ قال: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق عليه السلام لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال: يا أباحنيفة إنّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيىء له من المسائل الشداد، فهيّأت له أربعين مسألة؛ ثم بعث إليّ أبوجعفر وهو بالحيرة، فأتيته فدخلت عليه، وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلمّا بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم‌يدخلني لأبي جعفر، فسلّمت عليه. وأومأ إليّ فجلست، ثم التفت إليه فقال: يا أباعبدالله هذا هو أبوحنيفة، فقال: نعم.

ثمّ أتبعها: قد أتانا، كأنّه كره مايقول فيه قوم: أنّه إذا رأى الرجل عرفه، ثم التفت إليّ فقال: يا أباحنيفة: ألقِ على أبي عبدالله مسائلك، فجعلت ألقي، فيجيبني فيقول: أنتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا، فربّما تابعنا،

وربّما تابعهم، وربّما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة، ما أخلّ منها بمسألة، ثم قال أبوحنيفة: ألسنا روينا أنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس...».[١٢]

وهذا، وبعد رحيل الإمام الصادق عليه السلام واستيلاء بني العباس على العباد والبلاد، وتضييق الأمر على أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وعلى رأسهم الإمام موسي بن جعفر عليه السلام ومع ذلك نرى أنّ الإمام يرشد المفتين إلى وصف حجّ النبي صلى الله عليه وآله.

٣. روى محمد بن فضيل قال: كنا في دهليز يحيى بن خالد بمكّة، وكان هناك أبوالحسن موسى عليه السلام وأبويوسف، فقام إليه أبويوسف وتربّع بين يديه، فقال: يا أباالحسن جعلت فداك، المحرم يظلّل؟ قال: لا. قال: فيستظلّ بالجدار والمحمل ويدخل البيت والخباء؟ قال: نعم. قال: فضحك أبويوسف شبه المستهزئ، فقال له أبوالحسن عليه السلام: يا أبايوسف إنّ الدين ليس بقياس كقياسك وقياس أصحابك، إنّ الله عزّوجلّ أمر في كتابه بالطلاق، وأكّد فيه شاهدين ولم يرض بهما إلاّ عدلين، وأمر في كتابه بالتزويج وأهمله بلامشهود، فأتيتم بشاهدين فيما أبطل الله وأبطلتم شاهدين فيما أكد الله عزّوجلّ، وأجزتم طلاق المجنون والسكران؛ حجّ رسول الله صلى الله عليه وآله فأحرم ولم يظلّل، ودخل البيت والخباء، واستظلّ بالمحمل والجدار، فقلنا (فعلنا) كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله فسكت.[١٣]

الهوامش

١. الوسائل: ٨، الباب ١ من أبواب وجوب الحجّ وشرائطه، الحديث ١٢.

٢. رَمَلَ في مشيه: هَرْوَلَ، ولعله كان في عمرة القضاء، لأجل أن يُري المشركين أنّ هواء يثرب لم يضعف المسلمين، كما كان يقول المشركون؛ ولم يثبت الرمل في طواف حجة الوداع.

٣. البقرة : ١٢٥.

٤. البقرة : ١٥٨.

٥. المعروف أنّ الرسول صلى الله عليه وآله دعا إلى التمسك بالثقلين: الكتاب، والعترة، ورويت عنه صلى الله عليه وآله في ذلك روايات عديدة، منها ما رواه الترمذي بإسناده عن محمد الباقر، عن جابر بن عبدالله، قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في حجّته يوم عرفة و هو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: «يا أيّها الناس، إنّي تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي». قال الترمذي: وفي الباب عن أبي ذرّ و أبي سعيد و زيد بن أرقم وحذيفة بن أسيد. سنن الترمذي:١٠٧٨، برقم ٣٨١١، تحقيق جميل صدقي العطار، وانظر: مسند أحمد٣: ١٧، ومصابيح السنّة: ٤: ١٧٥، برقم ٤٧٧٣. وروى الحاكم (وصحّحه على شرط الشيخين) بإسناده عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وأهل بيتي، وإنّهما لن يتفرّقا حتّى يردا عليّ الحوض». المستدرك على الصحيحين: ٣: ١٤٨.

٦. صحيح مسلم ٤ : ٣٩ـ٤١ باب حجة النبي ؛ سنن أبي داود٢ : ١٨٢، الحديث ١٩٠٥ ؛ شرح مسلم، للنووي٧ ـ ٨ : ٢٩٤١ باب حجة النبي.

٧. آل عمران : ١٠٣.

٨ . النساء : ٩٤.

٩ . تهذيب الأحكام ٥ : ٧٢ ـ ٧٣ ، باب إذا لبس الإنسان قميصاً...

١٠. تهذيب الأحكام ٥ : ٤٠٧، الحديث ٦٣.

١١. الدهلوي، التحفة الاثناعشرية، ونقل عنه الآلوسي.

١٢. المناقب، للموافق المكي ١ : ١٧٣ ؛ جامع مسانيد أبي حنيفة ١ : ٢٢٢ ؛ تذكرة الحفاظ للذهبي ١ : ١٥٧ ؛ سير أعلام النبلاء ٦ : ٢٥٦ ؛ الإمام الصادق والمذاهب الاربعة ١ : ٥٦، الطبعة ١، و ١ :٣٣٤، الطبعة المحققة، ١٤٢٨هـ

١٣. الوسائل ٩ : الباب ٦٦ من أبواب تروك الإحرام، الحديث ٢.

مكة المكرمة والحج.. خصائص وبركات

السيّد علي قاضي عسكر

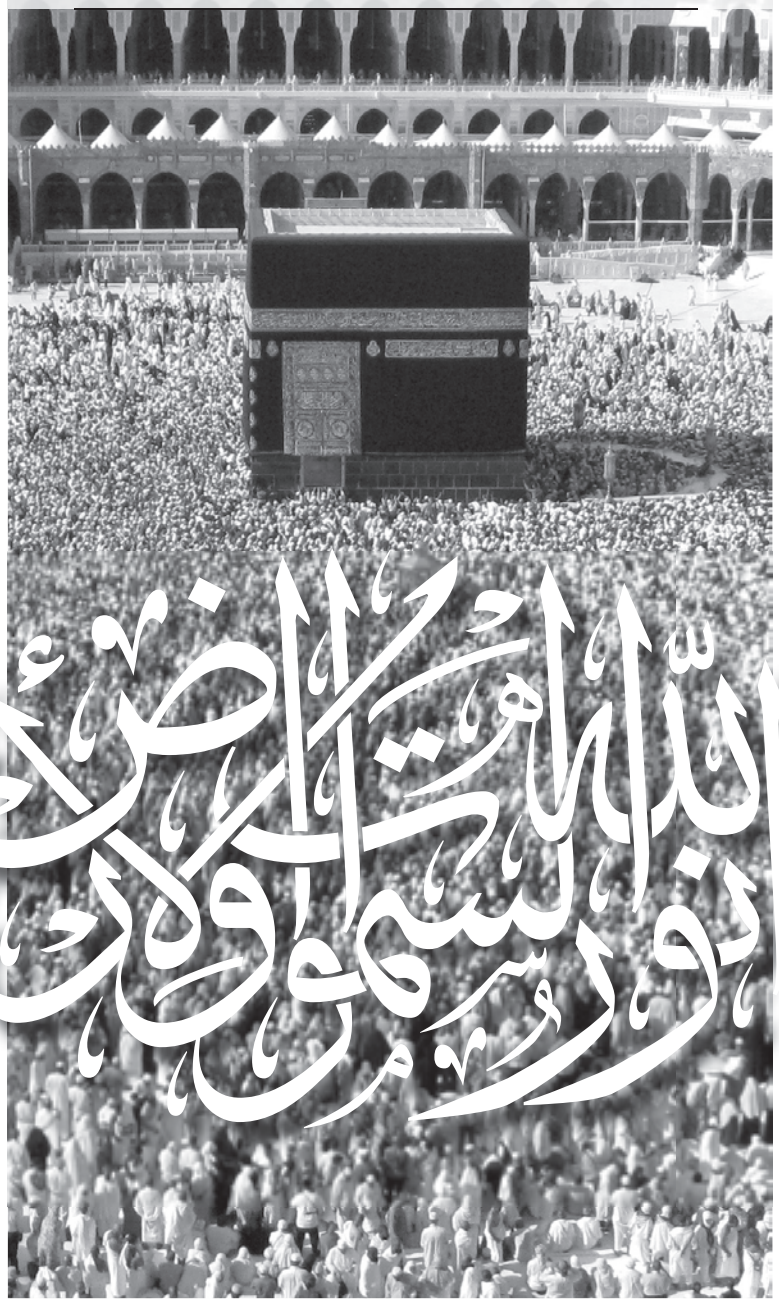

تمتاز مكّة عن سائر المدن والبلدان بخصائص فذّة وميزات فريدة؛ وذلك لما حباها الله تعالى به من موقع متميّز، ودور فعّال في تاريخ البشريّة وتاريخ المسلمين على وجه الخصوص.

من هنا أودّ الإشارة إلى بعض تلك الخصائص التي ذكرها الله سبحانه في كتابه الكريم، وهي كما يلي:

١ـ مكة أُمّ القرى:

﴿... وَ لِتُنْذِرَ أمَّ الْقُرَى ... ﴾؛ ﴿... لِتُنْذِرَ أمَّ الْقُرَى ...﴾.[١]

فقد ورد عن المؤرخين أنّه عندما كان الماء مشتملاً الكرة الأرضيّة برمّتها، ظهرت فيها بقعة من اليابسة، ثمّ توسعت شيئاً فشيئاً، وقد سمّي يوم ظهور اليابسة (دَحْو الأرض) وهو يعادل في السنة القمرية الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة.

وقد أشارت المصادر الدينيّة إلى هذه المسألة، واعتبرت البقعة الظاهرة من اليابسة هي محل الكعبة المشرفة، وأنّ الأرض توسّعت من ذلك المكان.[٢]

وجاء في بعض الأدعية ما يدلّ على ذلك ومنه: «أللّهمّ داحي الكعبة».[٣]

كما يؤيد ذلك نظريات علم الأرض الحديثة (الجيولوجيا) التي تقول: إنّ قارّات العالم انفصلت من نقطة تقع في حدود أفريقيا وشبه الجزيرة العربية.[٤]

وممّا يجدر ذكره أنّ مكان الكعبة الحالي يقع في مقابل (الضراح) أو البيت المعمور

الذي عند العرش، وهذا الأمر ـ وما سبقه ـ يدلاّن على أنّ للكعبة محوريّةً في عالم الخلق والوجود وفي الأرض.[٥] وقد جاء في الرواية:

«... وَوُضِعَ الْبَيْتُ فِي وَسَطِ الْاَرْضِ لأَنَّهُ الْمَوْضِعُ الَّذِي مِنْ تَحْتِهِ دُحِيَتِ الْاَرْضُ، وَلِيَكُونَ الْفَرْضُ لِاَهْلِ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ فِي ذَلِكَ سَوَاءً ...».[٦]

٢ ـ مكة تحظى بدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام:

أسهمت مكة خلال تاريخها العتيق في عطاء حضاري كبير، وذلك في أعقاب دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام فقد أصبحت مدينةً أو بلداً يؤسّس لحضارة دينيّة في بقعة جبليّة، وواد غير ذي زرع، وهو الذي أراده إبراهيم عليه السلام في دعائه حيث قال: ﴿...رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ...﴾.[٧]

٣ ـ البلد الأمين:

تمتاز هذه المدينة المقدّسة وحدود الحرم في أطرافها بالأمن، فليس لأحد الحقّ أن يدنّس المكان بالظلم والجور، وكلّ من التجأ إليه فسيكون في كامل الأمن والأمان، ويشمل ذلك الحيوان والنبات، فلايجوز لأحد أن يتعرّض لها بالإساءة والأذى، فلا يقتل حيواناً أو يؤذيه، ولا يقطع نباتاً فيسلب منه الحياة، قال تعالى: ﴿... رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ...﴾،[٨] وقال أيضاً في آية أُخرى: ﴿وَ هذَا الْبَلَدِ الأَمِين﴾.[٩]

ويؤكّد في آية ثالثة أنّ من انتهك حرمة الحرم؛ سيواجه بانتقام إلهي أليم، قال تعالى:

﴿وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾.[١٠]

٤ ـ سلامة الاقتصاد والموارد:

ومن الخصائص الأُخرى التي تتميّز بها هذه المدينة المقدّسة، أنّ سكانها يتمتّعون باقتصاد سالم وموارد طيّبة، أعطاهم الله تعالى هذه النعمة المباركة، قال تعالى: ﴿... وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ...﴾،[١١] وقال تعالى في آية أُخرى: ﴿...يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا...﴾.[١٢]

٥ ـ إشتياق القلوب إليها:

ومن خصائصها أنّ قلوب ملايين المسلمين تهفو إليها، وفي كلّ عام يحظى بعضهم بالتوفيق لحضور المشاعر المقدّسة فيها، قال تعالى: ﴿..فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ...﴾.[١٣]

٦ ـ تساوي الناس فيها:

فالذين يَرِدون مكة المشرفة لأداء المشاعر من غير أهلها، لا فرق بينهم وبين المقيمين فيها، قال تعالى: ﴿...سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ...﴾،[١٤] وقد جاء في الرواية: «فالعاكفُ المقيمُ به، والبادي الذي يحجّ إليه من غيرِ أهلهِ».[١٥]

٧ ـ أولياؤها من المتّقين:

وجاء في الكتاب الكريم أنّ المتولّين لهذه المدينة يجب أن يكونوا من المتّقين الصالحين، قال تعالى: ﴿...وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ...﴾،[١٦] وسرّ هذه المسألة هو أن مكّة والمسجد الحرام والكعبة ليست

مجـرّد مدينة أو أثـر تاريخي يتوجب علـى المتصدّين له أن يبذلوا الجهـد لحفظه وصيانته وحسـب، بل هي قاعدة الهداية والتربية، ومركز إشـعاع للعلم والثقافة، ومنه ينتقلان عن طريق الحجيج إلى أنحاء العالم كافّة.

٨ ـ فيها أوّل بيت وضع للناس:

فمـن خصائص هذه المدينة المقدّسـة وقـوع الكعبة فيها، وهي أوّل بيـت وضع للناس، ونتيجة ذلك هو أنّ كلّ مسـلم له تعلّق خاصّ ببيته الذي هو بيت الله سـبحانه، فلا يشـعر بالغربة فيه، قـال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً...﴾.[١٧]

٩ ـ هدىً للعالمين:

فالكعبة منار هـدىً ومركز إشـعاع للهدايـة الدينيّة إلى أرجاء العالم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ... وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ﴾.

والرّسول صلى الله عليه وآله رسالته عالمية هي: ﴿تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلَـى عَبْـدِهِ لِيَكُـونَ لِلْعَالَمِيـنَ نَذِيراً﴾.[١٨] ﴿وَما أرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً﴾.[١٩]

والقرآن الكريم أنزله الله تعالى لهداية عموم البشر: ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ...﴾،[٢٠] ﴿...إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْعالَمِينَ﴾.[٢١] وبناءاً على ما تقدّم فإنّ الإسلام دين عالمي، والرسول صلى الله عليه وآله إنّما بعث لهداية الناس كافّة، ومثل هذا الدين يحتاج إلى مركز ثابت وغير قابل للتحوّل والتغيير، كي يستطيع محبّو هذا الدين ومـؤيّـدوه أن يجتمعوا في هذا المركز، ويتحدّثوا في

المسائل العلميّة والسياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة، ويتبادلوا الخبرات ووجهات النظر المختلفة التي تسهم في حلّ مشكلاتهم، والصعوبات التي تعتري حياتهم، قال تعالى: ﴿وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللّهِ فِي أَيّامٍ مَعْلُوماتٍ﴾.[٢٢]

من هنا جعل الله سبحانه رابطة تشدّ المسلمين إلى هذا المركز، فهم يتوجّهون إليه كلّ يوم خمس مرّات عند إقامة الصلاة، ويجعلون وجوه موتاهم إليه عند الدفن.

١٠ ـ الكعبة طاهرة مطهرة:

فالكعبة والمسجد الحرام مطهّران بأمر الله تعالى من كلّ دنس ورجس، ومن يدخل البيت الحرام فإنّه يطهّر من الذنوب، ويردّ إلى أهله وهو «مغفورٌ له كلّ ذنب».[٢٣] كما ورد في الحديث.

والأمر في هذه الطهارة هو من عند الله تعالى: ﴿وَ عَهِدْنا إِلَى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.[٢٤]

ولو أردنا أن نستلهم من الكتاب الكريم، لندرك دور المسجد في تطهير المؤمن، فإنّنا سنجد أنّه يقول حول بناء مسجد قبا: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ ثم يقول: ﴿... فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا...﴾ وفي النتيجة: ﴿وَ اللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.[٢٥]

ومنه نستنتج أنّ هذا البيت

بُني حتى يدخله المسلمون، ويطهّروا أنفسهم من أدران الشرك والذنوب، لينالوا محبّة خالقهم.

١١ ـ الكعبة قيام للنّاس:

فقد جعل القرآن الكريم بقاء المجتمع الإسلامي رهناً ببقاءِ الكعبة، قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللّه الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ...﴾.[٢٦]

هذه الآية تبيّن أنّ الناس إذا اهتمّوا بالحجّ والكعبة واستفادوا من هذا التجمّع الديني الكبير على طريق تحقّق أهداف الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله فإنّ حياتهم الماديّة والاجتماعيّة والسياسيّة ستصان من التفرّق والاختلاف، وتحفظ من التشتّت والانفصال، وقد عبّر الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن هذه الحقيقة القرآنيّة بقوله: «لايزال الدين قائماً ما قامت الكعبة».[٢٧] ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لأولاده وأصحابه: «الله الله في بيت ربّكم لاتخلوه ما بقيتم فإنّه إن ترك لم تُناظروا...»،[٢٨] وجاء أيضاً في حديث آخر: «أما إنّ الناس لو تركوا حجّ هذا البيت لنزل بهم العذاب وما نوظروا».[٢٩]

نستخلص مما تقدّم أنّ عدم الاعتناء بالكعبة وأنّ إهمال الحجّ نقض للعهد مع الله سبحانه، وإهمال لأحد أركان ديننا المهمّة، ولاريب أنّ لإهماله دوراً تخريبيّاً كبيراً في إضعاف قواعد الإسلام وتبديد قواه، لذلك اتّخذت وسائل في هذا المجال؛ منها: أنّه على الدول الإسلاميّة في حال عدم

الاعتناء بالحـــج، وترك زيارة بيـــت الله الحرام أن يرســـلوا المســـلمين إلى الحج، ويُنفقوا عليهـــم مـــن بيت المـــال، كي لا يبقى بيت الله مهجوراً.[٣٠]

١٢ ـ الكعبة بيت عتيق:

فهي بيت حُـــرّ، وهي محور الحريّـــة، قـــال تعالـــى: ﴿...وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.[٣١]

ويقول الإمام الباقر عليه السلام حول ســـبب تســـمية الكعبة بالبيت العتيق: «هو بيت حُرّ عتيق من النّاس لم يملكه أحد».[٣٢]

وبمـــا أنّ الكعبـــة محـــور التوحيد، والتوحيد ينطوي على التخلّص من كلّ أنواع العبوديّة إلاّ لله تعالى، لـــذا يمكن القول: إنّ الكعبة محور الحريّة، يقول الإمام علي عليه السلام : «وَلاَ تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً».[٣٣]

١٣ ـ الكعبة مثابة للناس:

إذ هي مرجع ومأمن للناس كافّة، قال تعالـــى: ﴿وَ اِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً...﴾،[٣٤] فالذي يتوجه إلى البيت ويزوره فكأنّما عاد إلى وطنه الأصلي وبالنتيجة عاد إلى أصله.

عـــن رســـول الله صلى الله عليه وآله مخاطباً لمكة: «**إنّي لأعلـــم أنّك حرم الله وأمنـــه وأحـــبّ البلـــدان إلى الله تعالى**».[٣٥]

وعـــنـــه صلى الله عليه وآله وكـــان واقـــفـــاً بالحزورة،[٣٦] في سوق مكّة: «**والله إنّـــك لخير أرض الله، وأحبّ الأرض إلى الله عزّوجلّ ، ولـــولا أنّـــي اُخرجتُ منك ما خرجت**».[٣٧]

ويقول الإمـــام الصادق عليه السلام : «**أحـــبّ الأرض إلـــى الله تعالـــى**

مكّـة، ومـا تربـة أحـبّ إلى الله عزّوجـلّ من تربتهـا، ولا حجر أحـبّ إلـى الله عزّوجـلّ مـن حجرها، ولا شجر أحبّ إلى الله عزّوجلّ من شـجرها، ولا جبال أحبّ إلى الله عزّوجلّ من جبالها، ولا ماء أحبّ إلى الله عزّوجلّ من مائها...».[٣٨]

مكّة موضـع لإقامة الحـج ومحور لنشر الثقافة الدينيّة:

تمتلـك مكّـة المقدّسـة خصائص الشـرف ومقومات العظمة من جهـة، كما حظيت من جهة أُخـرى بأهمية أكثر لإقامـة مراسـم الحـج فيها، فالحج هو الذي جعل من هذه المدينة محـوراً وعمّق أثرها الثقافي والأخلاقـي في العالم الإسـلامي، وأهّلهـا لأداء هذا الدور على أحسن وجه.

لقد أوجب الله تعالى الحجّ على المستطيع من الناس في قوله: ﴿وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْـتَطاعَ إِلَيْهِ سَـبِيلاً...﴾،[٣٩] لكي يجتمع المسـلمون في موسم الحجّ كلّ عام وفي أيام خاصّة مـن كلّ أرجاء العالم عند هذه البقعة المقدّسة، فيؤدّوا مناسك فريضة الحجّ، وتلك الفريضة واجبة على كلّ مسلم مستطيع مرّة واحدة فـي حياته، ولهذا قيل لها: «عبادة العمر».

إنّ الروايات والأخبار الواردة عن الرسـول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام والمتعلّقـة بثمرات وبـركات الحـجّ، تبيّـن أنّ الحجّ قاعدة أساسـيّة للتحوّل الروحي والأخلاقي للمسلمين؛ ففـي كلّ عام يجـب على من تتوفّر فيهم شروط الاستطاعة أن يؤدّوا المناسـك المقدّسة،

ويطهّروا أنفسهم من الذنوب، ويبتعدوا عن الخطايا التي اقترفوها، ويختاروا النهج الصحيح في الحياة، ثم يعودوا فينقلوا هذا التحوّل إلى عوائلهم وأصدقائهم ومعاريفهم في أماكن مختلفة من العالم، وبذلك يسهم الحجّ في بسط التهذيب الخلقي والروحي للمسلمين.

ولأجل توضيح الموضوع لابدّ من الإشارة إلى بعض الثمرات والنتائج المترتّبة على الحجّ، والواردة في الأحاديث والروايات المنقولة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام.

بركات الحج

إذا أنجز الحاج حجّه إلى بيت الله بشكل صحيح تُراعى فيه الآداب الخاصّة بالحجّ والمشاعر، وبعبارة أُخرى إذا أدّى مشاعر الحجّ بشرطها وشروطها، فسوف تترتّب عدّة آثار وثمرات مهمّة يستفيد منها الحاج في دنياه وآخرته، وفيما يلي نذكر بعضها:

١ ـ غفران الذنوب:

إنّ الحاج حينما يؤدّي المناسك ويعيشها، يشطب على ماضيه غير الصحيح بخطّ البطلان، ويمهد الطريق لحياة صحيحة يراعى فيها الدين ومبادؤه الحقّة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أيُّ رَجُل خَرَجَ مِنْ مَنزِلِهِ حاجّاً أو مُعْتَمِراً، فَكُلَّما رَفَعَ قَدَماً وَوَضَعَ**

قَدَماً تناثَرتِ الذُّنوبُ مِنْ بَدَنِه جَدَّدَ اللهُ لَهُ».[٤٠]

كَما يَتَناثَرُ الوَرَقُ مِنَ الشَّجَرِ، وقال الإمام جعفر بن محمد

فَإذا وَرَدَ المَدينَةَ وَصافَحَني الصادق عليه السلام: «من حجّ يريد الله

بالسَّلامِ صافَحَتْهُ المَلائِكَةُ عزّوجلّ و لا يريد به رياءً ولا

بالسَّلامِ، فإذا وَرَدَ ذا الحُلَيْفَةِ، سمعةً غفر الله له البتّة».[٤١]

واغْتَسَلَ طَهَّرَهُ مِنَ الذُّنوب، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من حجّ

وإذا لَبِسَ ثَوبَينِ جَدِيدَينِ البيت فلم يرفث ولم يفسق،

رجع كما ولدته أُمّه».[٤٢]

ويقـول أيضـاً فـي حديث آخر: «**معاشِـرَ النّاس، ما وَقَفَ بِالمَوْقِـفِ مُؤمِنٌ إلاّ غَفَـرَ لَهُ ما سَـلَفَ مِنْ ذَنْبِهِ إلـى وَقْتِه ذلِكَ فإذا انقَضَـتْ حَجَّتُهُ اسـتُؤنِفَ عَمَلُهُ**».[٤٣]

وممّا تقدّم نسـتنتج أنّ أداء الحـجّ بشـكله الصحيح الذي يقبلـه الله تعالى، يكـون ثوابه غفران الذنـوب والدخول في حياة جديدة ومنهج جديد.

٢ ـ دخول الجنّة :

جعـل تعالـى ثـواب الحجّ المبـرور والمقبـول دخـولَ الجنّة، ولعلّ السـبب في ذلك هو أنّ صاحـب البيت حينما يحلّ عليه أحدٌ ضيفاً، يسـعى إلـى أن يُقريـه بأحسـن ما لديه من الغـذاء، وأن يوفّر له أحسن الامكانات المتاحة لديه، والحاج هـو ضيف الله القاصد بيته، وهو تعالى العفوّ الكريم الذي لا يخيب مـن دعاه، ولا يردّ من رجاه، ونحن نخاطبه تعالـى في الدعـاء فنقول: «يا أكرم الأكرمين».

والجنّة التي وعد الله تعالى بها عباده المؤمنين والمحسـنين، هي خير مـا يحبو به ضيوف بيته، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الحجّ المبـرور ليـس لـه جـزاء إلاّ الجنّة**».[٤٤]

٣ ـ النورانيّة:

إنّ الأفـراد الذين يوفقهم الله لأداء فريضة الحجّ، يستطيعون أنّ يطهّروا نفوسهم ويغسلوا أرواحهم ببحر الحجّ الصافي الـزلال، ويعـودوا ثانية إلى الحياة، وقد استعادوا فطرتهم

الأوليّة، واكتسبوا نورانيّة قلوبهم، تلك النورانيّة هي أجرهم من الله تعالى، ويمكنهم المحافظة عليها بالعمل وفق مبادىء الإسلام ومنهجه القويم، ومن الواضح أنّ اقتراف الذنوب يقلّل من تلك النورانيّة، والاستمرار فيها يزيلها إلى الأبد، يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**الحاج لايزال عليه نور الحجّ ما لم يلمّ بذنب**».[٤٥]

٤ ـ الحصول على خير الدارين:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من أراد الدنيا والآخرة فليؤم هذا البيت، فما أتاه عبد يسأل الله دنيا إلاّ أعطاه الله منها، ولا يسأله آخرة إلاّ ادّخر له منها**».[٤٦]

وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وآله لعثمان بن أبي العاص: «**واعلم أنّ العمرة هي الحجّ الأصغر، وأن عمرة خير من الدنيا وما فيها، وحجّة خير من عمرة**».[٤٧]

٥ ـ طمأنينة القلب:

من فلسفة تشريع فريضة الحجّ إقامة ذكر الله تعالى، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث: «**إنّما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله**».[٤٨]

وجاء في القرآن الكريم أنّ ذكر الله تعالى باعث على طمأنينة القلب ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾،[٤٩] ومع النظر إلى هذه المقدّمة وإلى ما قاله الإمام الباقر عليه السلام: «الحجّ تسكين القلوب»،[٥٠] يتبيّن أن إحدى ثمرات الحجّ طمأنينة القلب، التي تعدّ من أهمّ ما يحتاجه

أبناء البشريّة في هذا اليوم.

٦ ـ مجالسة النبيين والصالحين:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**لما حجّ موسى عليه السلام نزل عليه جبرئيل فقال له موسى: يا جبرئيل! ما لمن حجّ هذا البيت بنيّة صادقة ونفقة طيبة؟**

قال: فرجع إلى الله تعالى، فأوحى الله إليه: قل له: أجعله في الرفيق الأعلى مع النَّبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً».[٥١]

٧ ـ الأمن من العذاب:

روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**من دخل هذا البيت عارفاً بجميع ما أوجبه الله عليه، كان آمناً في الآخرة من العذاب الدائم**».[٥٢]

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً﴾ قال: «**من دخل الحرم من الناس مستجيراً به فهو آمن من سخط الله...**».[٥٣]

ويقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**... وعليكم بحجّ هذا البيت فأدمنوه، فإنّ في إدمانكم الحجّ دفع مكاره الدنيا عنكم، وأهوال يوم القيامة**».[٥٤]

٨ ـ علوّ الدرجات في الجنّة:

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الحاج في ضمان الله مقبلاً ومدبراً، فإن أصابه في سفره تعب أو نصب غفر الله له بذلك سيئاته، وكان له بكلّ قدم يرفعه ألف ألف درجة في الجنّة، وبكلّ قطرة تصيبه من مطر أجر شهيد**».[٥٥]

٩ ـ استجابة الدعاء:

ومن ثمرات الحجّ استجابة الدعاء، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ثَلاثُ دَعَواتٍ مُسْتَجابَةٌ: دُعاءُ الحاجِّ في تَخَلُّفِ أهلِه، ودُعاءُ المَريضِ فلا تؤذوهُ ولا تُضجِروهُ، ودُعاءُ المَظْلومِ**».[٥٦]

وقال في حديث آخر: «**الحُجّاجُ والعُمّارُ وَفْدُ الله، دَعاهُمْ فَأجابوهُ، وسَألُوهُ فَأعطاهُم**».[٥٧]

١٠ ـ نفي الفقر:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**حُجّوا لَن تَفتَقِروا**».

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**إنَّ أفضَلَ ما تَوَسَّلَ بِهِ المُتَوَسِّلونَ إلى اللهِ سُبحانَهُ وتَعالى، الإيمانُ بِهِ وبرَسولِهِ،... وَحَجُّ البَيْتِ واعتِمارُهُ، فإنَّهُما يَنفِيانِ الفَقْرَ ويَرْحَضانِ الذَّنْب**».[٥٨]

١١ ـ سلامة الأبدان:

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: قال علي بن الحسين عليهما السلام: «**حجّوا واعتمروا، تصحّ أبدانكم، وتتسع أرزاقكم، وتكفون مؤونات عيالكم...**».[٥٩]

١٢ ـ الوقاية من الهلاك والعذاب:

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «**كان في وصيّة علي** عليه السلام : **لا تدعوا حجّ بيت ربّكم فتهلكوا**».[٦٠]

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أيضاً أنّه قال: «**لوترك الناس الحجّ لما نوظروا العذاب**» أو قال: «**أنزل عليهم العذاب**».[٦١]

وممّا تقدّم ذكره، وما يستفاد من الروايات المتعلّقة بفلسفة الحجّ وأسرار أعماله المختلفة،

مثل: التوبة قبل السفر، ودفع الحقوق الماليّة، وتطهير الأموال، وتحصيل الإخلاص وإنجاز الأعمال لله، والتزوّد من أطيب الزاد، وإعانة الأصحاب، والاحتراز من العجلة، ومراعاة المرضى، واحترام الكبار، وحسن الخلق مع الصاحب في السفر، وعدم الإساءة إلى الآخرين، والتصدّق، وقراءة الدعاء عندالخروج من المنزل وعلى طول السفر وغيره... نستخلص أنّ الحجّ أحد القواعد المهمّة في تغيير الذات، وإحداث التحوّل الروحي والأخلاقي للفرد المسلم، وأنّ مناسك الحجّ هي في الحقيقة مناسك الحياة الإسلاميّة الصحيحة، ففي الحجّ تتمثّل الحياة الدنيا والآخرة جنباً إلى جنب، فهو تربية وتهذيب للنفس، وتربية اجتماعية وسياسيّة، وهو باعث للشعور بالأخوّة، وتعلّم النظم والترتيب، وهو مجمع لتوحيد الآراء والقلوب في مجالات متعدّدة، وهو محور للقرب من الخالق والزلفى لديه تعالى، ولكلّ ذلك وغيره جعل الله تعالى الحجّ مركزاً لاجتماع المسلمين: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ...﴾.

ومن مجمل ما ذكرناه يمكن القول: إنّ مكّة هي عاصمة الثقافة في العالم الإسلامي، وهي قاعدة قويّة ومحكمة لتطهير الروح وسموّ الأخلاق، فإذا أحسنّا الاستفادة من هذه الفريضة العظيمة، أمكننا بلوغ الأهداف المذكورة بكلّ يسر.

* * *

أخيراً، ولأجل حسن الختام لهذا المقال المتواضع، أذكر حديثاً للإمـــام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يبيّن طريق وأســـلوب الحجّ الصحيح، أو الحجّ المبرور.

قال الصادق عليه السلام: «إِذَا أَرَدْتَ الْحَـــجَّ فَجَرِّدْ قَلْبَكَ لله تَعَالَى مِنْ كُلِّ شَاغِلٍ وَ حِجَابٍ، وَ فَوِّضْ اُمُورَكَ إِلَى خَالِقِهَا، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِكَ وَ سَـــكَنَاتِكَ، وَسَـــلِّمْ لِقَضَائِهِ وَحُكْمِهِ وَقَدَرِهِ، وَدَعِ الدُّنْيَا وَالرَّاحَةَ وَالْخَلْقَ وَاخْرُجْ مِنْ حُقُـــوقٍ تَلْزِمُكَ مِنْ جِهَةِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلا تَعْتَمِدْ عَلَى زَادِكَ وَرَاحِلَتِكَ وَأَصْحَابِكَ وَقُوَّتِكَ وَشَبَابِكَ وَمَالِكَ مَخَافَـــةَ أَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ عَـــدُوّاً وَوَبَالاً، فَإِنَّ مَـــنِ ادَّعَى رِضَى الله وَاعْتَمَدَ عَلَى مَا سِوَاهُ صَيَّرَهُ عَلَيْهِ وَبَالاً وَعَدُوّاً، لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ قُوَّةٌ وَلا حِيلَةٌ وَلا لاَحَد إلاَّ بِعِصْمَةِ الله وَتَوْفِيقِهِ، فَاسْـــتَعِدَّ اسْتِعْدَادَ مَنْ لا يَرْجُو الرُّجُوعَ وَاَحْسِـــنِ الصُّحْبَـــةَ وَرَاعِ أَوْقَاتَ فَرَائِضِ الله وَسُـــنَنِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله وَمَا يَجِبُ عَلَيْكَ مِـــنَ الأَدَبِ وَ الاِحْتِمَالِ وَالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ وَالشَّـــفَقَةِ وَالسَّخَاوَةِ وَإِيثَارِ الزَّادِ عَلَى دَوَامِ الأَوْقَاتِ، ثُمَّ اغْسِلْ بِمَاءِ التَّوْبَةِ الْخَالِصَةِ ذُنُوبَكَ، وَالْبَسْ كِسْوَةَ الصِّدْقِ وَالصَّفَا وَالْخُضُوعِ وَالْخُشُـــوعِ، وَاحْرِمْ مِنْ كُلِّ شَـــيْءٍ يَمْنَعُكَ عَنْ ذِكْرِ الله وَيَحْجُبُكَ عَنْ طَاعَتِهِ، وَلَـــبِّ بِمَعْنَى إِجَابَةِ صَادِقَةٍ صَافِيَةٍ خَالِصَةٍ زَاكِيَةٍ لله سُـــبْحَانَهُ فِي دَعْوَتِكَ مُتَمَسِّـــكاً بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، وَطُفْ بِقَلْبِكَ مَعَ الْمَلائِكَةِ حَوْلَ الْعَرْشِ كَطَوَافِكَ مَعَ الْمُسْـــلِمِينَ بِنَفْسِـــكَ حَوْلَ الْبَيْـــتِ، وَهَرْوِلْ هَرَباً مِنْ هَوَاكَ وَتَبَرَّأْ مِـــنْ حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ،

وَاخْرُجْ مِنْ غَفْلَتِكَ وَزَلاَّتِكَ بِخُرُوجِكَ إِلَى مِنىَ، وَلا تَتَمَنَّ مَا لايَحِلُّ لَكَ وَلا تَسْتَحِقُّهُ، وَاعْتَرِفْ بالْخَطَايَا بِعَرَفَات، وَجَدِّدْ عَهْدَكَ عِنْدَ الله بوَحْدَانِيَّتِــهِ وَتَقَرَّبْ إِلَيْهِ وَاتَّقِهِ بِمُزْدَلِفَةَ، وَاصْعَدْ بِرُوحِكَ إِلَى الْمَلاَ الأَعْلَى بِصُعُودِكَ إِلَى الْجَبَــلِ، وَاذْبَحْ حَنْجَرَةَ الْهَوَى وَالطَّمَعِ عَنْكَ عِنْدَ الذَّبِيحَةِ، وَارْمِ الشَّهَوَاتِ، وَالخَسَاسَةَ، وَالدَّنَاءَةَ، وَالذَّمِيمَةَ عِنْدَ رَمْيِ الْجِمَــارِ، وَ احْلِقِ الْعُيُوبَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ بِحَلْقِ شَــعْرِكَ، وَادْخُلْ فِي أَمَانِ الله وَكَنَفِهِ وَسَــتْرِهِ وَكِلاءَتِهِ مِــنْ مُتَابَعَةِ مُرَادِكَ بِدُخُولِ الْحَــرَمِ، وَ دُخُولِ الْبَيْتِ، مُتَحَقِّقاً لِتَعْظِيمِ صَاحِبِهِ وَمَعْرِفَةِ جَلالِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَاسْتَلِمِ الْحَجَرَ رِضًى بِقِسْمَتِهِ وَخُضُوعاً لِعِزَّتِهِ، وَدَعْ مَا سِــوَاهُ بِطَوَافِ الْوَدَاعِ، وَأَصْفِ رُوحَكَ وَسِرَّكَ لِلِقَائِهِ يَوْمَ تَلْقَــاهُ بِوُقُوفِكَ عَلَى الصَّفَا، وَكُنْ بِمَرْأَى مِــنَ الله نَقِيّاً عِنْدَ الْمَرْوَةِ، وَاسْتَقِمْ عَلَى شَرْطِ حَجَّتِكَ هَذِهِ وَوَفَاءِ عَهْدِكَ الَّذِي عُوهِدْتَ بِهِ مَعَ رَبِّكَ وَأُوجِبْتَ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَاعْلَــمْ أَنَّ الله لَمْ يَفْرِضِ الْحَجَّ وَلَمْ يَخُصَّــهُ مِنْ جَمِيعِ الطَّاعَاتِ بِالاْضَافَةِ إِلَى نَفْسِــهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ وَ لا شَرَعَ نَبِيُّهُ صلى الله عليه وآله سُنَّةً فِي خِلالِ الْمَنَاسِكِ عَلَى تَرْتِيبِ مَا شَرَعَهُ إِلاّ لِلاسْتِعْدَادِ وَالاِشَارَةِ إِلَى الْمَوْتِ وَالْقَبْرِ وَالْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ وَفَضْلِ بَيَانِ السَّبْقِ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ أَهْلُهَا، وَدُخُولِ النَّارِ أَهْلُهَا، بِمُشَاهَدَةِ مَنَاسِكِ الْحَجِّ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا لاُولِي الأَلْبَابِ وَاُولِي النُّهَى».[٦٢]

الهوامش

١. الأنعام :٩٢ ؛ الشورى : ٧.
٢. من لايحضره الفقيه٢ : ١٢٤؛ تاريخ مكة المشرفة ، لمحمد بن محمد بن أحمد بن الضياء المكي: ٣٤.
٣. إقبال الأعمال، السيد بن طاووس ٢ : ٢٨ ؛ المصباح، الكفعمي : ٦٥٨.
٤. الحجّ من وجهة نظر الحقوق الدوليّة: ٢٠١، (باللغة الفارسية).
٥. تاريخ مكّة المشرفة: ٣٥.
٦. من لايحضره الفقيه ٢ :١٩١.
٧. البقرة: ١٢٦.
٨. البقرة: ١٢٦.
٩. التين: ٣.
١٠. الحج: ٢٥.
١١. البقرة: ١٢٦.
١٢. القصص: ٥٧.
١٣. إبراهيم: ٣٧.
١٤. الحج: ٢٥.
١٥. مجمع البيان في تفسير القرآن ٧ : ١٢٧.
١٦. الأنفال: ٣٤.
١٧. آل عمران: ٩٦.
١٨. الفرقان: ١.
١٩. سبأ: ٢٨.
٢٠. البقرة: ١٨٦.
٢١. الأنعام:٩٠.
٢٢. الحج: ٢٧.
٢٣. تهذيب الأحكام ٦:١٢١ .
٢٤. البقرة: ١٢٥ .
٢٥. التوبة: ١٠٨ .
٢٦. المائدة: ٩٧.
٢٧. الكافي ٤ : ٢٧١؛ بحار الأنوار ٩٦: ٥٧.
٢٨. نهج البلاغة، بتحقيق صبحي الصالح: ٤٢٢؛ بحارالأنوار ٤٢ :٢٥٦.
٢٩. بحارالأنوار ٩٦ :١٩؛ وسائل الشيعة ١١ : ٢٢.
٣٠. علل الشرائع: ٣٩٦.
٣١. الحج: ٢٩.
٣٢. الكافي ٤ : ١٨٩؛ علل الشرائع: ٣٩٩.
٣٣. نهج البلاغة، بتحقيق صبحي الصالح:٤٠١.
٣٤. البقرة: ١٢٥.
٣٥. أخبار مكّة للفاكهي١٤٧١،٢٦١؛ كنز العمّال ١٤: ٣٨٠٣٩/٩٧.
٣٦. الحزورة: موضع بمكة عند باب الحنّاطين؛ النهاية ١ : ٣٨٠.
٣٧. مسند أحمد ٦ : ١٨٧٤٠/٤٤٩.
٣٨. من لا يحضره الفقيه ٢ : ٢٤٣.
٣٩. آل عمران: ٩٧.
٤٠. الحجّ في الكتاب والسنة: ٣٢٥/١٤٨.
٤١. وسائل الشيعة ١١ : ١٠٩.
٤٢. الحجّ في الكتاب والسنّة: ٣٩٢/١٦٣.
٤٣. سنن الدارقطني ٢ : ٢٨٤.
٤٤. مستدرك وسائل الشيعة ٢: ٨ .

٤٥. الكافي ٤ : ٢٥٥.
٤٦. مسند الإمام زيد: ١٩٧ .
٤٧. المعجم الكبير، للطبراني ٤٤:٩ .
٤٨. الحجّ في الكتاب والسنّة: ٢٨٠/١٣٣ .
٤٩. الرعد: ٢٨.
٥٠. بحار الأنوار ٧٥ : ١٨٣.
٥١. من لا يحضره الفقيه ٢ : ٢٣٥.
٥٢. عوالي اللآلي ٢ : ٢٧٧/٨٤.
٥٣. الكافي ٤ : ٢٢٦؛ والآية من سورة آل عمران: ٩٦.
٥٤. أمالي الطوسي: ٦٦٨.
٥٥. كنز العمّال ح١١٨١٢ و١١٨٤٠.
٥٦. الحجّ في الكتاب والسنة: ٣٨٦/١٦٢ .
٥٧. المصدرالسابق، ح٣٨٧.
٥٨. المصدر السابق، ح ٣٩٨ ، ح٤٠٢.
٥٩. الكافي ٤ : ٢٥٢.
٦٠. المحاسن: ١ : ١٧٠.
٦١. الكافي ٤: ٢٧١.
٦٢. مصباح الشريعة: ١٤٢؛ بحار الأنوار ٩٩ : ١٢٤.

ميقات ذي الحليفة مسجد الشجرة أو البيداء ؟

آيةالله الشيخ محمد القايني

من المواقيت الخمسة التي صرحت النصوص بلزوم الإحرام منها، وعدم التجاوز عنها إلى غيرها هو ميقات الشجرة أو ذي الحليفة القريبة من مدينة الرسول صلى الله عليه وآله.

وقد اختلفت كلمات الأعلام في كون الميقات هل هو المسجد المعروف هناك، أو المنطقة المعروفة بذي الحليفة بسعتها، أو غير ذلك؟

وبناءً على أنّه المسجد، وقع الاختلاف في وجوب كون الإحرام من المسجد القديم، أو يجوز الإحرام من الزيادات الحادثة؟

ثمّ الخلاف خارجاً في تعيين موضع المسجد القديم، و أنّه وسط المسجد الفعلي أو غيره.

ثم الكلام في الوظيفة على تقدير الشك من كونها الاحتياط أو البراءة؛ لكون المسألة من الأقل والأكثر الارتباطيين، وهذا مما لسنا بصدده في هذا المجال، وإنما المقصود تحقيق الوظيفة بحسب الأدلة الاجتهادية.

ثم إنّ هذا الخلاف والاختلاف كلّه ناشئ من الغفلة عن التعمّق في النصوص، بل وعدم الاستقصاء في مراجعتها من البعض على ما أظنّ، وإلاّ فما كان ينبغي التمادي في هذا الخلاف، كيف وقد ورد التصريح في نصوص عدّة بأنّ الميقات ليس هو المسجد، وأنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يحرم منه وأنّه لاينبغي الإحرام هناك، بل المكان الذّي أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وآله وينبغي للحاج الإحرام منه هو خارج المسجد

عند البيـــداء الذّي هـــو مكان معروف.

بـــل الـــذّي يظهـــر بمراجعة الآثار أنّ المســـجد المعروف هناك حـــدث بعد حجّ النبيﷺ وبنـــي في مـــكان صلّـــى فيه رســـولاللهﷺ قبل أن يحرم؛ كما كانت العادة في بناء أمكنة صلّـــى فيه النبيﷺ مســـجداً ســـواء فـــي مكّـــة أو المدينة؛ فرســـولاللهﷺ لـــم يحرم في المســـجد، بل ولا في الموضع الـــذّي بني مســـجداً بعد ذلك اليـــوم، وإنّما المســـجد مكان صلاتهﷺ يوم أحرم.

وأمّا مـــكان إحرامه وتلبيته فهـــو أوّل البيـــداء؛ والمحكي في بعض الآثار أنّ المســـاجد المبنية في الأمكنة المناســـبة لهﷺ ـ كالتي صلّى فيها، و... ـ كلّهـــا مبنية بعد وفاتهﷺ إلاّ هذا المســـجد، فإنّـــه بني في حياتهﷺ.

وهـــذا لايعنـــي أنّ المـــكان كان مســـجداً حيـــن إحرامه منهـــا أولاً وإن كان يظهر من بعض الآثار تكرر إحرامه من الشجرة في حج وعمرة، فربّما بني المكان مســـجداً بعد أوّل إحرام منهﷺ.

نعم لاريب أنّ هذا المســـجد كان مبنيـــاً أيام الأئمةعليهم‌السلام وقد وســـع في الأعصار الأخيرة، واختلف في تعيين حدّه القديم وموضعـــه من هذا المســـجد الموسع.

وأمّـــا روايـــة تفســـير ذي الحليفة بمسجد الشجرة، فهو لتعيين هـــذا الميقات وتمييزه عن ســـائر المواقيت، وليست بصدد تعيين موضع الإحرام من ذي الحليفة وأنّه المســـجد

دون غيــره؛ فهو كقول القائل: أنا ذاهب إلى مسجد الشجرة، و أمّا أنّ الإحرام لمن ذهب إلى ذاك المكان من أي موضع فلا دلالة عليه بشيء.

ولولا إطلاق النصوص بكون ذي الحليفة ميقاتاً، أشكل صحّة الإحرام من المسجد، وإن كان المســجد داخلاً ضمن منطقة ذي الحليفة، بل ويشكل جواز الإحرام من المسجد حتّى مع إطلاق نصــوص ذي الحليفة؛ كلّ ذلك لدلالــة غير واحد من النصــوص علــى تعيين غير المسجد، ولتبيّن حقيقة الحال لابــدّ من التعــرّض لنصوص المسألة بالتفصيل.

فنقول بعد التوكل على الله: إنّ النصوص في ما يتعلق بميقات الشجرة على طوائف:

الطائفة الأولى:

ماتضمّنت ذا الحليفة ميقاتاً ضمن ســائر المواقيت، وهي روايات عدّة، كصحيح معاوية بن عمار، وصحيح أبي أيوب الخزّاز وغيرهما؛ ففي صحيح أبي أيوب عــن أبي عبدالله عليه السلام : «إنّ رســول الله صلى الله عليه وآله وقّــت لأهــل المدينــة ذا الحليفة... »الحديث.[1]

الطائفة الثانية:

ماتضمّنت تفسير ذا الحليفة بمســجد الشــجرة، كصحيح الحلبــي عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث: «وقّت لأهل المدينة ذا الحليفة وهو مسجد الشجرة، يصلى فيــه ويفرض الحج... »الحديث.[2]

ونحوها مرسلة الأمالي.

وفي رواية العلل المرسلة عن

الصـــادق عليه السلام «لأي علة أحرم رسول الله صلى الله عليه وآله من الشجرة ولم يحرم من موضع دونه؟ فقال: لأنه لما أسرى به إلى السماء وصـــار بحذاء الشـــجرة ...» الحديث.[٣]

وقد ذكر ســـيدنا الأستاذ قدس سره أنه ليـــس من النصـــوص ما يـــدل علـــى وجـــوب الإحرام في المســـجد، ليحتمـــل تعين الإحرام منـــه أو يتعين، وإنما الذي تضمنتـــه النصوص هو تعييـــن ذي الحليفة ميقاتاً، ثم تعييـــن الميقات في المســـجد في بعض النصوص، وهذا من إطلاق المسجد على منطقة ذي الحليفة، نظير إطلاق مســـجد سليمان على البلد المعروف ـ وكأنه يعني أنه من قبيل تسمية الكل باسم الجزء ـ فلا يدل على تعيين المسجد ميقاتاً.

ومع التسليم فلايقتضي تعين الإحرام من داخل المسجد، بل يصدق الإحرام من المســـجد لو أحرم خارجه، ســـواء كان قبله مـــن جهة المدينة أو بعده مـــن جهة مكـــة، إذا كان جنب المسجد وبجواره، نظير صدق السير من دار إلى دار إذا مشى بينهما، وإن لم يكن الشـــروع من داخل الدار.

ولكن شـــيءٌ مـــن الكلامين لايمكن المساعدة عليه؛ وذلك لوضوح دلالة الخبر على تعيين موضـــع الإحرام، ســـيما نقل الصدوق كما نشـــير إليه، كما أنّه لايحتمل إطلاق المســـجد علـــى المنطقـــة بعـــد قوله عليه السلام يصلّي فيه ويفرض الحج.

ففي روايـــة الصدوق: «وقّت لأهل المدينـــة ذا الحليفة، وهو مسجد الشـــجرة، كان يصلّي

فيه، و يفرض الحج، فإذا خرج من المسجد فسار واستوت به البيداء حين يجازي الميل الأوّل، أحرم».[٤]

وكيف كان، فهذه الرواية وإن فسّرت ذا الحليفة بالمسجد، لكنّها حدّدت كيفية الإحرام وموضعه على وجه يكون نفس المسجد خارجاً، ولاأقل من دلالته على عدم تعيّن المسجد لو لم يكن غيره أفضل للإحرام، وسيأتي الكلام فيه زيادة عن هذا إن شاء الله تعالى.

الطائفة الثالثة:

ما جمع فيها بين ذي الحلفية والجحفة في ميقات أهل المدينة، كما في رواية علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: سألته عن إحرام أهل الكوفة وأهل خراسان وما يليهم وأهل الشام ومصر من أين هو؟ فقال في حديث: «وأهل المدينة من ذي الحليفة والجحفة...» الحديث.[٥]

وظاهر إطلاقه جواز الإحرام اختياراً من الجحفة، وعدم تعين ذي الحليفة، كما يؤيده بعض الروايات الأخر.

ومنافاة سائر النصوص ـ التي ذكر فيها خصوص ذي الحليفة ـ معها يكون بالإطلاق، فيرفع اليد عن الإطلاق بخصوص هذا الخبر لو صحّ السند.

وقد يحمل الخبر على المريض والمعذور، ويستشهد له ببعض النصوص، ولكن لايبعد عدم الاختصاص، فإن ما ورد من إحرام المعصوم من الجحفة، لكونه مريضاً لاينافي عدم اختصاص جواز

الإحرام بذاك الفرض، ويكون من باب ذكر المورد وتمام الكلام يتطلب بحثاً آخر لسنا بصدده فعلاً؛ راجع الباب السادس من المواقيت في هذا المجال.

الطائفة الرابعة:

تفسير ذي الحليفة بالشجرة، والظاهر أنّه مشير إلى الموضع، لا إلى خصوص المسجد بعد عدم احتمال كون الشجرة نفسها الميقات.

ففي معتبرة علي بن رئاب قال: سألت أباعبدالله عليه السلام عن الأوقات، الّتي وقّتها رسول الله صلى الله عليه وآله للنّاس فقال: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وقّت لأهل المدينة ذا الحليفة وهي الشجرة...» الحديث.[٦]

وفي معتبرة علي بن جعفر عن أخيه عليه السلام قال: سألته عن المتعة في الحج من أين إحرامها وإحرام الحج؟ قال: «وقّت رسول الله صلى الله عليه وآله لأهل العراق من العقيق، ولأهل المدينة ومن يليها من الشجرة».

ثمّ إنّ سيدنا الأستاذ دام ظله ذكر أنّ الميقات في الشجرة هو كلّ منطقة ذي الحليفة، لا خصوص مسجد الشجرة، وظنّي أنّه لم يقف على نصوص البيداء، وإلاّ كان المناسب التعرّض لها، ولو بالردّ والحمل كما صدر من العلاّمة وغيره.

وقد ذكر قوّة كون إطلاق المسجد على ذي الحليفة في الرواية الّتي ذكرت ذا الحليفة، وأنّها مسجد شجرة من قبيل إطلاق المسجد على المنطقة، كبلدة مسجد سليمان، لا من باب التخصيص.

وذكر أنّه على تقدير كون الميقات هو المسجد، فإنّه لا يتعين الإحرام من داخل المسجد، بل يجوز من خارجه وجوانبه، مستشهداً لذلك بصحة قول: جئت من دار فلان مع كون شروع المجيء من خارج الدار، وأنّه فرق بين الإحرام في المسجد وبين الإحرام من المسجد، فيصدق الثاني ولو بالإحرام من خارج المسجد إذا كان مجاوراً له.

أقول: وإن لم يرد الأمر بالإحرام في المسجد، ولكن مقتضى كون الميقات هو المسجد هو وقوع الإحرام داخله، كما إذا قيل: محل الصلاة المسجد، فهل يحتمل كفاية الصلاة جنبه؟ والميقات إسم مكان وزمان كالمصلّى.

نعم، لو كان الحكم وجوب السير محرماً من المسجد، لأمكن الاكتفاء بالإحرام خارجه، ولكن الحكم هو كون المسجد ميقاتاً ووقتاً للتلبس بالإحرام على الفرض، فقد صرّح في جملة من النصوص بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وقّت مواضع للإحرام، لايجوز لأحد أن يحرم قبلها ولا بعدها، وأنّه صلى الله عليه وآله عين هذه المواضع للإحرام الّذي قوامه ومحققه التلبية.[٧]

نعم، لا بأس بنحو ما ذكر في مثل السعي بين الصفا والمروة حسب ما بيناه في محلّه، حيث ذكرنا أنّه لايلزم إلصاق العقب بالصفا والمروة في السعي بينهما لا في البداية والنهاية ولا في كلّ شوط من السبعة، بل يكفي السير بين الربوتين عرفاً بالحضور في كلّ شوط عندهما بلاحاجة إلى لصق

بهما فضلاً عن الاعتلاء عليهما، واستشهدنا لذلك بصدق السير بين الدارين لمن سار من باب إلى باب، وإن لم يكن ملاصقاً بعض جسده للدارين إذا كان حاضراً عند الباب.

وكيف كان، إنّه لو كنا نحن وهذه النصوص الّتي أشرنا إليها، لأمكن الحكم بجواز الإحرام من مسجد الشجرة، لاندراجه في إطلاق ذي الحليفة لو لم يحتمل تعينه.

ولكن هناك جملة من النصوص قد بينت موضع الإحرام في ذي الحليفة بما لايُبقي للفقيه شكّاً في عدم تعين المسجد قطعاً، بل قد يشكل معها جواز الإحرام في موضع المسجد، لاحتمال استفادة تعين غير المسجد وهو بداية البيداء من منطقة ذي الحليفة.

ففي صحيح معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن التهيّؤ للإحرام فقال: «في مسجد الشجرة، فقد صلّى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وقد ترى أناساً يحرمون فلاتفعل حتّى تنتهي إلى البيداء، حيث الميل، فتحرمون كما أنتم في محاملكم، تقول: لبيك اللهم لبيك...» الحديث.[٨]

ودلاله الخبر على أنّ المسجد موضع التّهيؤ للإحرام، بفعل الصلاة فيه والنّية واضحة، وقد منعت الرواية من التلبّس بالإحرام بالتلبية له في المسجد.

ولو كان التعبير مجرّد النهي عن التلبية، لربّما أمكن حمل الخبر على الإجهار بالتلبيات الذّي يستحبّ بعد

التلبّس بالإحرام حتى يأتي مكّة والحرم، ولكنّها صرّحت بالنّهي عن الإحرام.

وإنّ أناساً يحرمون في المسجد كما هو المتعارف الآن بين أهل السنة أيضاً فلاينبغي ذلك، بل موضع التلبية للإحرام هو البيداء.

وفي صحيح منصور بن حازم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا صلّيت عند الشجرة، فلا تلبّ حتّى تأتي البيداء حيث يقول النّاس يخسف بالجيش».[9]

وفي صحيح الفضلاء حفص بن البختري ومعاوية بن عمّار وعبدالرحمن بن الحجّاج والحلبي جميعاً عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا صليت في مسجد الشجرة فقل ـ وأنت قاعد في دبر الصلاة قبل أن تقوم ـ ما يقول المحرم، ثمّ قم فامش حتّى تبلغ الميل، وتستوي بك البيداء، فإذا استوت بك البيداء فلبّ ... وإن أهللت من المسجد الحرام للحجّ فإن شئت لبّيت خلف المقام، وأفضل ذلك أن تمضي حتى تأتي الرقطاء وتلبي قبل أن تصير إلى

الأبطح».[١٠]

وهـذه الروايـة مروية في الفقيـه والكافي وقد رواها في الوسـائل موزّعة فـي بابين، ولكن ذكر سند الكليني هكذا: حفـص بـن البختـري، وعبدالرحمـن بـن الحجاج، وحمّاد بن عثمان، عن الحلبي جميعاً عن أبي عبدالله عليه السلام.

والظاهـر أنّ في النسـخة سهواً إمّا بتصحيف والحلبي بـ: عن الحلبي أو يكون كلمة جميعاً قبل لفظ عن الحلبي أو بغير ذلك والأمر سهل بعد صحّة السند على كلّ تقدير.

وفي صحيح عبدالله بن سنان قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن يلبي حتّي يأتي البيداء».[١١]

وهذا الخبـر إن كان لاينافي جـواز التلبيـة مـن مطلـق ذي الحليفة الشـامل للمسجد، لكنّه دالّ على جواز التلبية من خارج المسجد

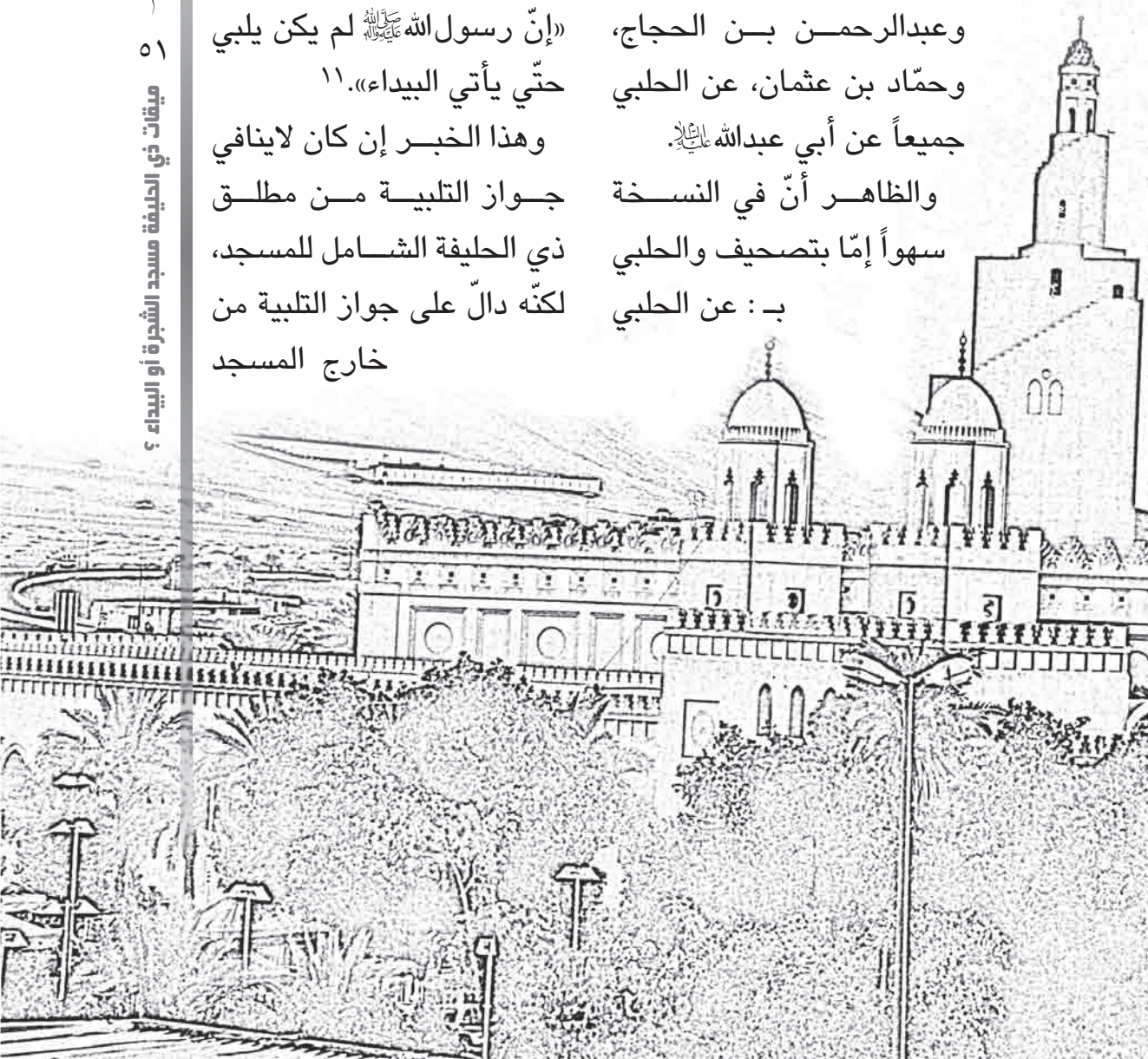

صريحاً، بل هو دالّ على الترغيب فيه.

وظاهر بعض الكلمات حمل التلبية المنهي عنها في الصحيح وغيره على التلبية المستحبة بعد الإحرام والإجهار به ما لم ير بيوت مكة، كما ورد تحديده في سائر النصوص.

ولكنّه مع مخالفته لظاهر النصوص وإطلاقها فإنّه مناف لصريح غير واحد منها، ومن جملتها هذه الرواية والتي قبلها، وذلك للتفصيل المذكور فيه بين الصلاة الّتي هي مقدّمة الإحرام وبين التلبية وأنّ الصلاة عند الشجرة، وأمّا التلبية فعند البيداء.

فلو فرض أنّ النهي عن التلبية مجرّداً كان قابلاً للحمل على التلبية المندوبة، ولكن اقترانه بما ذكر قرينة واضحة على إرادة التلبية المحققة للإحرام، كما تؤكده معتبرة ابن وهب المتقدمة، وسائر النصوص الّتي نذكرها تباعاً إن شاء الله تعالى.

وفي معتبرة معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا فرغت من صلاتك وعقدت ما تريد، فقم و امش هنيهة (هنيئة) فإذا استوت بك الأرض ماشياً كنت أو راكباً فلبّ...» الحديث.[١٢]

وواضح أنّ المراد من العقد، النية لما يراد الإحرام له من حج أو عمرة، لا الإحرام نفسه والتلبية له، وهذا أيضاً هو المراد بما في صحيح معاوية الآخر كما يأتي إن شاء الله تعالى.

ثمّ إنّ العلاّمة في المنتهى حمل الأخبار الدالة على تعيين

البيداء موضعاً لتلبية الإحرام على التلبيـــة المندوبـــة، الّتي يســـتحب الإجهار بها بعد أن تحقّق الإحرام بتلبية سابقة في مسجد الشجرة أو غيرها من ذي الحليفة.

وهذا ما يلوح من غير واحد ولعلّه المعروف.

إلاّ أنّ الّذي يظهر من العلاّمة هو تعييـــن موضـــع الإجهار بالتلبية المســـتحبّة في مسافة ميل بعـــد ذي الحليفـــة؛ وفي الحدائق تحديده بمســـافة ميل من مسجد الشجرة.

قـــال العلامـــة بعـــد ذكـــر الروايـــات على مـــا حكي: إذا ثبت هذا فـــإنّ المراد بذلك أنّ الإجهـــار بالتلبيـــة مســـتحب من البيـــداء، وبينها وبين ذي الحليفة ميـــل، وهذا يكون بعد التلبية ســـرّاً في الميقات الذّي هـــو ذوالحليفـــة، لأنّ الإحرام لاينعقد إلاّ بالتلبية، ولايجاوز الميقات إلاّ محرماً.[١٣]

وفي الحدائـــق: هذه الأخبار دلّت على تجاوزها (المواقيت) إلى البيداء ـ وهو على ميل من مسجد الشـــجرة كما عرفت ـ بغير إحرام ـ.

ثمّ حمل الأخبـــار الدالة على النهي عـــن تجـــاوز المواقيت بغيـــر إحرام على مـــا هو أعمّ من الإحرام والتهيـــؤ له، ولو لكونه أقرب المجازات.[١٤]

أقول: لم يظهر من شيءٍ من الروايـــات أنّ موضـــع التلبية المزبـــور هو ما بعد مســـافة ميـــل مـــن ذي الحليفـــة، ولا من المســـجد، بـــل الظاهر من النصـــوص أنّ هـــذا الموضع هو مبدء البيـــداء متّصلاً بذي الحليفة، والميـــل المذكور في

النصّ هو العلامة المنصوبة هناك وهو ميل المسافة وليس المراد به مسافة ميل بعد ذي الحليفة؛ فكأنّه كان هناك قديماً في أوّل البيداء ميل منصوب علامة للمسافة.

فإنّ النصوص دلّت على أنّ موضع التلبية هو الوصول إلى البيداء، ولم يذكر في شيءٍ منها تجاوز ميل من ذي الحليفة.

ففي خبر ابن سنان عن الصادق عليه السلام: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن يلبي حتّى يأتي البيداء».

وفي معتبرة معاوية بن عمّار عن الصادق عليه السلام: «واخرج بغير تلبية حتّى تصعد إلى أوّل البيداء إلى أوّل ميل عن يسارك».

وفي المحكي عن الكليني: وهذا عندي من الأمر المتوسّع، إلاّ أنّ الفضل فيه أن يظهر التلبية حيث أظهر النبي صلى الله عليه وآله على طرف البيداء، ولايجوز لأحد أن يجوز ميل البيداء إلاّ وقد أظهر التلبية، وأوّل البيداء أوّل ميل يلقاك عن يسار الطريق.

ثم إنّ المظنون أنّ الذي حمل من حمل من الأصحاب على اعتبار المسجد هو الميقات وأنّه موضع التلبية، مع ملاحظة النصوص الواردة في الأمر بالتلبية من البيداء أحد أمرين:

الأمر الأول: ما ورد في بعض الصحاح من الأمر بالإحرام في المسجد، حيث أمر بالإحرام بعد الصلاة في المسجد، بضميمة ما تضمّن أنّ الإحرام لايكون إلاّ بالتلبية.

مع أنّ ظاهر النصّ من

الإحرام في المسجد هو نية الإحرام، وقد أطلق الإحرام على نيته وعقده في بعض النصوص.

أمّا النصّ الذي قد يستفاد منه الأمر بالإحرام في المسجد، فهو معتبرة معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «صلّ المكتوبة، ثمّ أحرم بالحج أو بالمتعة، واخرج بغير تلبية حتى تصعد إلى أوّل البيداء، إلى أوّل ميل عن يسارك، فإذا استوت بك الأرض راكباً كنت أو ماشياً فلبّ...» الحديث.[١٥]

وكأنّهم فهموا من إطلاق الأمر الآخر بالإحرام للحج أو بالمتعة ـ يعني عمرة التمتع ـ التلبس بالإحرام بالتلبية ثمّ قوله: واخرج بغير تلبية يعني التلبية المندوبة بعد التلبس بالإحرام، ويكون قوله: بغير تلبية وصف لحال الخروج، يعني لاتلبّ في حال خروجك من المسجد، لا أنّه وصف للخارج ليكون المعنى لتكن خارجاً، ولم تتحقق منك التلبية في المسجد؛ كما أنّ المراد من الأمر بالتلبية فيه هو الإجهار بها أو التلبية المندوبة، التي يستحبّ تكرارها للمحرم بعد التلبّس بالإحرام حتّى ينظر إلى بيوت مكّة.

ولكن ظاهر الخبر أنّ المراد من الإحرام بالحجّ والمتعة نيته وعقد القلب عليه، كما في خبره السابق، ويكون الخروج بغير تلبية بمعنى التلبية المحققة للإحرام كما في سائر النصوص.

ولا أقل من احتماله الموجب للإجمال المسقط للخبر عن صلاحية الاستدلال لجواز

التلبية في المسجد.

ويؤكد ما استظهرناه من معتبرة معاوية بن عمار، رواية علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليهما السلام قال: سألته عن الإحرام عند الشجرة هل يحلّ لمن أحرم عندها أن لايلبي حتّى يعلو البيداء؟ قال: «لايلبي حتى يأتي البيداء عند أوّل ميل فأمّا عند الشجرة فلايجوز التلبية».[١٦]

وربّما يكون المراد بخبر علي بن جعفر في قوله: لمن أحرم عندها هو من أراد الإحرام عندها، فلاينافي كون المراد بالإحرام هو التلبس به بالتلبية.

ويؤكّد ما ذكرنا من كون المراد من الإحرام نيته وعقد القلب عليه، ما في صحيح البزنطي، أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: سألت أباالحسن الرضا عليه السلام كيف أصنع إذا أردت الإحرام؟ قال: «اعقد الإحرام في دبر الفريضة حتى إذا استوت بك البيداء فلبّ. قلت: أرأيت إذا كنت محرماً من طريق العراق؟ قال: لبّ إذا استوى بك بعيرك».[١٧]

وفي صحيح عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبدالله عليه السلام: «إنه صلّى ركعتين وعقد في مسجد الشجرة ثمّ خرج فأتى بخبيص فيه زعفران فأكل ـ قبل أن يلبي ـ منه».[١٨]

وفي صحيحه الآخر عن أبي عبدالله عليه السلام في الرجل يقع على أهله بعد ما يعقد الإحرام ولم يلب؟ قال: «ليس عليه شيء».[١٩]

وفي صحيح حفص بن البختري عن أبي عبدالله عليه السلام

فيمن عقد الإحرام في مسجد الشجرة ثمّ وقع على أهله قبل أن يلبي؟ قال: «ليس عليه شيء».

الأمر الثاني: ورود النهي عن تجاوز المواقيت بغير الاحرام بضميمة ما دلّ أن الإحرام لاينعقد إلاّ بالتلبية، فإذا ضمّ إليه إطلاق روايات تعيين ذي الحليفة ميقاتاً أو المسجد ميقاتاً، نتج وجوب التلبية في ذي الحليفة أو في المسجد، وعدم جواز تأخيرها إلى غير ذلك من بيداء و غيره.

وهذا مبني على عدم كون أوّل البيداء المحدد في النصوص للتلبية من جملة ذي الحليفة وكونها خارجة عن ذلك، مع أنّ الظاهر أنّه حدّ ذي الحليفة، والحدّ داخل في المحدود، ولو بعناية عرفية قريبة، إن لم يدخل حقيقة؛ ومع قيام الدليل ـ كما في المقام ـ لا محذور في الأخذ به.

ثمّ إنّ هناك رواية صرّح فيها بجواز إظهار التلبية في مسجد الشجرة، وهي صريحة في جواز التلبية للإحرام هناك، سواء كان المراد من إظهار التلبية المذكور فيها هو غير ما يعقد به الإحرام، أو كان المراد به هو ذلك؛ لأنّ إظهار التلبية المستحبة هو بعد انعقاد الإحرام بالتلبية المفروضة.

ففي رواية عبدالله بن سنان وقد عبّر عنها في الحدائق بالقوي، إنّه سأل أباعبدالله عليه السلام هل يجوز للمتمتع بالعمرة إلى الحج أن يظهر التلبية في مسجد الشجرة؟ فقال: «نعم إنما لبّى النبي صلى الله عليه وآله على البيداء، لأنّ النّاس لم يعرفوا

التلبية، فأحبّ أن يعلّمهم كيف التلبية».[٢٠]

وهــذا الخبر معــارض لما دلّ علــى أنّ النبــي صلى الله عليه وآله لم يكن يلبي حتّى يأتي البيداء الظاهر في الترغيب فيه، كما نصّ على ذلك في غير واحد من الروايات بل ورد النهــي عن التلبية قبل ذلك.

نعــم، غاية مضمــون الخبر جواز التلبية في المســجد، ولا دلالــة فيه علــى التعيين، ولو صحّ لزم حمل النصوص الدالة على تعيين البيداء محلاً للتلبية على الاستحباب، فتأمل.

ثمّ لو تحكّم التعارض بين خبر ابن ســنان و نصوص البيداء، كان المرجع إطلاقات روايات ذي الحليفــة، بناءً على أنّ أوّل البيداء هو طــرف ذي الحليفة ونهايتها؛ فإنّ نسبة نصوص تعييــن مبدء البيداء للتلبية إلى نصــوص ذي الحليفه نســبة المقيد إلى المطلــق، فإذا كان المقيد مبتلى بالمعارض، كان النصّ المطلق سليماً ومرجعاً بعد سقوط المتعارضين، كما هو كذلك فــي العام عند ابتلاء المخصص له بالمعارض.

مــع أنّــه لا معارضــة بين نصــوص البيــداء وخبر ابن ســنان في جــواز التلبية من البيــداء، فإنّ الأخيــر لاينافي جواز التلبية مــن البيداء، وإن كان لايعينهــا، فالتعارض في تعيين البيــداء لا في الرخصة فيها.

نعم، هناك روايــة فرّق فيها فــي التلبية من المســجد بين الماشي والراكب، وأنّ الماشي يلبــي مــن المســجد والآخر مــن البيداء، فإنها لو ســلمت

عن المعارضة تصلح شاهد جمع، لو تحكّم التعارض بين النصوص.

وهي صحيحة عمر بن يزيد عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا كنت ماشياً، فاجهر بإهلالك وتلبيتك من المسجد، وإن كنت راكباً، فإذا علت بك راحلتك البيداء».[٢١]

وهي مع منافاتها لنص صحيح ابن عمار المتقدم: «فإذا استوت بك الأرض ماشياً كنت أو راكباً فلبّ» لاتدل على جواز التلبية من المسجد للراكب، وإنما تدل على جواز التلبية من المسجد لمن يمشي إلى الحج، وأما الراكب في سفره فمحل تلبيته البيداء.

ومثلها روايته الأخرى عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا أحرمت من مسجد الشجرة، فإن كنت ماشياً لبّيت من مكانك من المسجد، تقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، لبيك ذا المعارج لبيك، لبيك بحجة تمامها عليك».[٢٢]

والمتفاهم من هذا النص، هو تحقق الإحرام حين الإجهار بالتلبية، ولو بنفس الإجهار إن لم يتحقق الإحرام قبله، فتدلّ الرواية على كون مبدء الإحرام للماشي قبل البيداء.

وهذه الرواية معارضة بصريح صحيح معاوية بن عمّار المصرّح بالتسوية بين الماشي و الراكب.

فقد روي عن أبي عبدالله عليه السلام بعد بيان دعاء الإحرام واشتراط المحرم «ثمّ قم فامش هنيئة، فإذا استوت بك الأرض ماشياً كنت أو راكباً فلبّ».[٢٣]

وفي رواية الشـــيخ قال: «إذا فرغت من صلاتك وعقدت ما تريد، فقم وامش هنيهة ـ هنيئة ـ فـــإذا اســـتوت بـــك الأرض ماشياً كنت أو راكباً فلبّ...» الحديث.[٢٤]

ثـــمّ حيث يتحكـــم التعارض بيـــن الطائفتين في الماشـــي ـ وأمّا الراكب فهـــي متفقة على أنّ تلبيتـــه عند البيـــداء، حيث تســـتوي الأرض ـ فالمرجـــع إطلاقـــات نصـــوص البيداء، فإنّ نسبة المفصل إليها نسبة الخـــاص والمقيد إلـــى العام والمطلـــق، ومع عدم ســـلامة المقيد من المعارض يرجع إلى المطلق.

فقـــد تحصل مما تقـــدم: أنّ الأحـــوط لو لم يكـــن المتعين بحســـب النصوص المعتبرة هو الإحرام مـــن البيداء دون المسجد، ســـيما للحاج راكباً، كما هـــو المتداول في زماننا ـ في قبال الحاج ماشياً ـ كما أنّ المعروف بحســـب الفتوى هو الإحرام من المســـجد، وذهب بعضهم كصاحب الحدائق إلى تعيّن البيداء، فـــكان الاحتياط المطلق هـــو الجمع بين التلبية في المسجد، ثم تجديدها أول البيداء؛ والله العالم.

الهوامش

١. وسـائل الشيعة ٨ : ٢٢١، الباب ١ من المواقيت، الحديث١ ؛ وراجع غيره.
٢.المصدر السابق: الحديث٣.
٣. المصدر السابق.
٤. من لايحضره الفقيه ٢ : ٣٠٣ ؛ وسائل الشيعة ٨ : ٢٢٢ ، ح٤.
٥. المصدر السابق، ح٥.
٦. المصدر السابق، ح٧ و ٩.
٧. وسـائل الشيعة ٨ : ٢٢٢، الباب ١ من المواقيت.
٨. وسائل الشـيعة ١٢: ٣٧٠، الباب ٣٤ من الإحرام، ح ٣.
٩. المصدر السابق، ح٤.
١٠. المصدر السابق، الباب ٣٥ و ٣٦ من الإحرام، ح ٣ و ١.
١١. المصـدر السـابق، البـاب ٣٤ من الإحرام.
١٢. المصدر السابق، ح ٢.
١٣. نقله عنه في الحدائق ١٥ : ٤٧.
١٤. المصدر السابق.
١٥. وسـائل الشيعة ١٢: ٣٧٠، الباب ٣٤ من الإحرام، ح٢.
١٦. المصدر السابق، ح ٨ .
١٧. المصدر السابق، ح٧ .
١٨. الوسائل الباب ١٤ من الإحرام.
١٩. المصدر السابق.
٢٠. الوسائل، الباب ٣٥ من الإحرام.
٢١. المصدر السابق، ح ١.
٢٢. المصدر السابق، الباب ٤٠ ، ح ٣.
٢٣. المصـدر السـابق، البـاب ١٦ من الإحرام، ح ١.
٢٤. المصدر السابق، الباب ٣٤، ح ٢ .

الإحصار في الحج والعمرة «٢»

حسن محمد

مع آية من آيات الحج : ١٩٦ سورة البقرة

ما زال كلامنا في دائرة اللاأمان «المنع حصراً أو صداً بعدو أو مرض أو بغيرهما» وما يترتب عليها من أحكام؛ فالمقطع القرآني المتمثل بالآية الكريمة ١٩٦ من سورة البقرة يتضمن دائرتين:

الأولى: دائرة اللاأمان: تبدأ من: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ للَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

الثانية: دائرة الأمان: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُواْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

وقد انتهينا في الجزء الأول من هذه المقالة بالحديث عن الدائرة الأولى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ للَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ ولم يبق منها إلا: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ وها نحن نبدأ به:

صحابيٌّ أكله القمّل!

اتفق الفريقان من المسلمين أنّ هذه الآية نزلت في صحابيٍّ أثناء فترة الحصار أو الصد في الحديبية، من قبل مشركي مكة

على رســـول الله ﷺ وأصحابه، منعاً لهم من دخول الحرم لتأدية مناسكهم...

فمن هو هذا الصحابي؟

إنه كعب بن عجرة الأنصاري الســـالمي المدني من أهل بيعة الرضوان، كنيته أبومحمد، أبوإسحاق، أبوعبدالله، من رواة حديث الغدير، عدّه الشـــيخ الطوســـي تارةً في أصحاب رســـول الله ﷺ وأخرى في أصحاب علي عليه السلام.

له عدة أحاديث، روى عنه بنوه ســـعد، ومحمـــد، وعبد الملك، وربيع، وطارق بن شهاب، ومحمد بن سيرين، وأبو وائل، وعبدالله بن معقل، وعبد الرحمـــن بن أبي ليلى، وأبو عبيدة بن عبدالله بن مســـعود، وآخرون، حدث بالكوفة وبالبصرة، مات ســـنة اثنتين وخمسين.

قال ابن سعد: هو بلوي من حلفاء الخزرج؛ وقال الواقدي: هو من أنفســـهم؛ وذكر عن رجاله قالوا: استأخر إسلام كعب بن عجرة، وكان له صنم يكرمه ويمســـحه، فكان يدعى إلى الإسلام فيأبى، وكان عبـــادة بن الصامت له خليلاً فرصده يوماً، فلما خرج دخل عبادة ومعه قدوم فكسره، فلما أتى كعب قال من فعل هذا؟ قالوا: عبادة، فخرج مغضباً ثم فكر في نفسه، وأتى عبادة فأسلم.

عن ضمام بن إسماعيل؛ حدثني يزيد بن أبي حبيب وموسى بن وردان، عن كعب بن عجرة، قال: أتيت النبي يوماً فرأيته متغيراً،

قلت: بأبي وأمي، مالي أراك متغيراً؟!

قال: «ما دخل جوفي شـــيء منذ ثـــلاث» ؛ فذهبت فإذا يهودي يسقي إبلاً له، فسقيت له على كل دلو بتمرة، فجمعت تمراً فأتيته به.

فقال: أتحبني يا كعب؟

قلت: بأبي أنت، نعم.

قال: إنّ الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى معادنه، وإنك سيصيبك بلاء فأعد له تجفافاً.

قال: ففقده النبي، فقالوا: مريض؛ فأتاه، فقال له: أبشر يا كعب!

فقالت أمه: هنيئاً لك الجنة!

فقال النبي صلى الله عليه وآله : من هذه المتألية على الله؟

قال: هي أمي.

قال: ما يدريك يـــا أم كعب، لعل كعباً قال ما لاينفعه، أو منع ما لا يغنيه؟

عن مســـعر عن ثابت بـــن عبيد، قال: بعثني أبـــي إلى كعب بن عجرة، فإذا هو أقطع.

فقلت لأبي: بعثتني إلى رجل أقطع.

قال: إنّ يده قد دخلت الجنة، وسيتبعها إن شاء الله.[1]

لقد ورد في كتب التفاســـير وأســـباب النزول ـ بألفاظ عديدة وبموضوع واحد ـ أنّ المناســـبة التي نزلت فيهـــا هذه الآية، أنّ كعب بن عجرة راح القمل يتناثر من رأسه على وجهه.

هكذا جاءت الأخبار، وتعددت حــول هذا الصحابي الذي ابتلي بالقمل المتناثر على رأسه، فكانت هذه الآية (آية الفدية) علاجاً لما أصيب به، وفرصة مباحة، لا فقط لمن يحتاج للحلق كعلاج للقمل المتكاثر في رأسه، وكان يؤذيه ويصبر، بل للمرضى ضمن كلام بينهــم يأتي، حتى غدا هذا الصحابي إذا ما ســئل عن هذه الآية يجيب:

فيّ نزلت هذه الآية: وقع القمل في رأسي فذكرت ذلك للنبيﷺ فقال: «احلق وافده: صيام ثلاثة أيام، أو النســك، أو أطعم ســتة مساكين لكل مسكين صاع.

أتيت رســول اللهﷺ فقال: «ادنه، فدنــوت مرتين أو ثلاثاً، فقال: أيؤذيك هوامّك؟ قال ابن عون: وأحسبه، قال: نعم، فأمرني بصيام أو نسك ما تيسر.

وفي ذيل خبر آخر يقول: نزلت فيّ خاصة ولكم عامة.

مرَّ به رسول اللهﷺ وهو يوقد قدر له بالحديبية، فقال: «أيؤذيك هوام رأســك؟» قال: نعم، قال: «احلق»؛ فأنــزل الله هذه الآية، أو "ونزلــت فيَّ آية الفدية"؛ قال: فالصيام ثلاثة أيام، والصدقة فرق بين ستة مساكين، والنسك شاة.

عن ابن عبــاس: لما نزلنا الحديبية جاء كعــب بن عجرة ينتثر هوام رأســه على جبهته، فقال يا رســول الله هذا القمل قد أكلني قال: «احلق وافده»، قال: فحلق كعب فنحر بقرةً، فأنزل الله في ذلك الموقف الآية.

عن عبدالله بن معقل: كنا جلوساً في المسجد، فجلس إلينا كعب بن عجرة فقال: فيّ أنزلت هذه الآية؛ قال: قلت: كيف كان شأنك؟ قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله محرمين، فوقع القمل في رأسي ولحيتي وشاربي حتى وقع في حاجبي، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وآله فقال: ما كنت أرى أن الجهد بلغ منك هذا، ادعو الحالق، فجاء الحالق فحلق رأسي، فقال: هل تجد نسيكةً؟ قلت: لا، وهي شاة، قال: فصم ثلاثة أيام أو أطعم ثلاثة آصع بين ستة مساكين. قال: فأنزلت فيَّ خاصة وهي للناس عامة.

فحمل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: ما كنت أرى أنّ الجهد بلغ منك هذا، ما تجد شاةً؟ قال: لا، فنزلت هذه الآية... فكانت قصته سبباً أو مناسبةً لنزول الآية المذكورة.

إذن كان الرجل محرماً، فلا يجوز له أن يحلق، والحلق من محظورات الإحرام العديدة: ﴿وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُ﴾.

وقد بلغ به الأذى من هوام رأسه مبلغاً كبيراً، كما تحمله هذه الروايات؛ وفي خبر في الكشاف للزمخشري: أنه مرّ به وقد قَرَحَ رَأسُه؛[٢] فقال صلى الله عليه وآله: «كفى بهذا أذى» وأمره أن يحلق ويطعم، أو يصوم، فنزلت الآية، وبين له رسول الله صلى الله عليه وآله حكمه: أن يحلق، و تترتب عليه فدية مخيرة.

فالآية ذكرت: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾.

فقد أبيح له الحلق؛ شريطة أن يَفدي؛ والفدية هنا تتقوم بواحد

من خيارات ثلاثة:
﴿فَفِدْيَةٌ مِّن:
صِيَامٍ
أَوْ صَدَقَةٍ
أَوْ نُسُكٍ﴾.

وقد جاءت هذه الآية مخصصة لقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا﴾ متفرعة عليه.[٣]

فالحكم الأولي: لا يجوز للمكلف حلق شعره ما دام محرماً، فالحلق من ممنوعات الإحرام وهي كثيرة، إلا في حالة وجود علة كما في الآية المذكورة: ﴿مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ فله أن يحلق.

﴿أَذًى﴾ الأذى مصدر بمعنى الإيذاء وهو الألم، يقال: آذاه يؤذيه إيذاءً وأذى، فالأذى مصدر على حذف الزوائد أو اسم مصدر، كالعطاء اسم للإعطاء، والنبات للإنبات.

﴿مِنْ رَأْسِهِ﴾ الجار والمجرور في محل رفع صفة لأذى، أي أذى كائن من رأسه. و«من» لابتداء الغاية.

﴿فَفِدْيَةٌ﴾

وقد ذكر السمين الحلبي ثلاثة أوجه في رفعها:
أحدُها: أن تكونَ مبتدأ والخبرُ محذوفٌ، أي: فعليه فديةٌ.
والثاني: أنْ تكونَ خبرَ مبتدأ محذوف أي: فالواجبُ عليه فديةٌ.
والثالثُ: أن يكونَ فاعلَ فعلٍ مقدَّر أي: فَتَجِبُ عليه فدية. وقُرىء

شـــاذاً: " فَفِدْيَةً " نصباً، وهي على إضمارِ فعــلٍ أي: فَلْيَفْدِ فديةً. و"مِنْ صيام" في محلِّ رفعٍ أو نصبٍ على حسب القراءتين صفةً لـ "فدية "، فيتعلَّقُ بمحذوفٍ، و"أو" للتخيير، ولا بُدَّ مِنْ حَذْفِ فعلٍ قبلَ الفاء، تقديرهُ: فَخَلقَ فَفِدْيَة.[٤]

وقفة مع الفدية والكفارة

عجبت لمــن يقرن بين الفدية والكفارة ، فيســمي الفدية كفارة والكفارة فدية، أو يجعل الكفــارة جزءاً من الفدية، دون أن يرى الفارق بينهمــا لغويّاً ومفهوميّاً وقرآنيّاً، وما يترتب على هذا من اختلاف في الدلالة والمضمون والمراد، وحتى في الاستعمال لكل منهما.

ويمكنني إيجاز القول: إنّ الشــريعة وضعــت حدوداً وتعازير وكفارات لما يرتكبه الإنســان من مخالفــات، وكلها تعدّ عقوبات وزواجر وروادع للإنســان عن تكرار ما ارتكبــه من مخالفات، ســلامةً لدينه، و حفظاً للنظام العام وســلامة النــاس، وتطهيراً للأفراد والمجتمعات؛ ولا أتفق مع القول: إنّ الكفارة تأتي تعزيراً في حــق الكافر، وجوابر في حق المســلم؛ لأنّ المطلوب إصلاح المجتمع المسلم، والفرد المسلم قبل غيره، فإن لم ينفع الإصلاح، فمنعه عبر زجره وردعه عن فعل ما يسيء له أو لمن حوله، وقد لا يكون هناك وجود لكافر، وإن وجد فقليل لا يؤثر.

ثم إنّ الكفارات وضعت للمخالفات التي أوقع المسلم نفسه فيها

لا الكافر؛ كحنث اليمين والظهار وكفارة الجماع فى نهار رمضان، وكفارة الإفطار المتعمد فى شـــهر رمضان، وترك بعض مناسك الحج وأحكامه.

أما الفدية فلعلها جاءت انطلاقاً من:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.[٥]

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾.[٦] أي بعد ضيق سعة، وبعد فقر غنى، وبعد صعوبة الأمر سهولة.[٧] فهي تحمل معاني اليسر والتيسير، وتدفع العســـر وتنهي المشـــقة، ولا يكون هذا كله إلا باســـتبدال حال مكان آخر؛ باستبدال حكم فيه عسر بالذي هو خير للمكلف وتسهيل له.

الفدية في اللغة

فداه ـ فَدًى، فِدًى، وفِداءً: اســـتنقذه بمـــال أو غيره فخلَّصه مما كان فيه؛ يقال: فَداه بماله، وفَداه بنفســـه، فهو فاد؛ والجمع: فُداة؛

والمستنقذ: مَفدِيٌّ.

الفداء: مـــا يقدم من مال ونحوه لتخليص المَفـــدِيِّ؛ والفداء: ما يقـــدم لله جزاءً لتقصير في عبادة ككفـــارة الصوم والحلق ولُبس المخيط في الإحرام؛ والفداء: الأضحية.

الكفارة: ما يســـتغفر به الآثم من صدقة وصوم ونحوذلك، وقد حددت الشـــريعة أنواعاً من الكفارة؛ منها: كفارة اليمين، وكفارة الصوم، وكفارة لترك بعض مناسك الحج.

ففـــي الإفصاح: الفداء: فداه يفديه فدّى وفداء وافتداه: اســـتنقذه بمـــال أو غيره، فخلصه مما كان فيه؛ وافتـــدى به وفاداه: أعطى شيئاً فأنقذه؛ والفداء والفدى والفدية: ذلك المعطى.

ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي؛ وأكد صاحب القامـــوس الفقهي على تلـــك المعاني بقوله: فدى الأســـير: فَدًي، وفِدًى، وفِداءً: استنقذه بمال أو غيره، فخلّصه مما كان فيه؛ فدي المرأة نفسَها من زوجها: أعطته مالاً حتى تخلّصت منه بالطلاق؛ افتدى فلان: قدم الفدية عن نفسه؛ الفداء: ما يقدم من مال ونحوه لتخليص الأسير.

ولكن صاحب القاموس الفقهي هـــذا وتبعاً لما جاء في المعجم الوسيط يذكر أنّ الفداء: ما يقدّم لله تعالى جزاءً لتقصير في عبادة مثل كفارة الصوم والحلق ولبس المخيط في الإحرام.

وكذلك ـ وهو الذي زاد استغرابي أكثر ـ ما وجدته عند الراغب في مفردات القرآن حين يقول: وما يقي به الإنســـان نفســـه من

مـــال يبذله في عبـــادة قصر فيها يقال له: فديـــة، ككفارة اليمين، وكفـــارة الصوم؛ نحو قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَـامٍ أَوْ صَدَقَةٍ﴾.[٨] ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ﴾.[٩]

فهل الـــذي يبتلى بالقمل أو بمرض يعدُّ مقصّراً في عبادة الحج متوانياً فيها؟!

وهل ﴿الَّذِيـنَ يُطِيقُونَـهُ﴾ فـــي آيـــة الصيـــام قـــد قصّـــروا في عبادتهم؟![١٠]

ـ الكفارة لغةً جمعها كفارات، وأصلها الســـتر وتغطية الشيء، تقول: كفرت القدر إذا غطيته، وســـميت بذلك؛ لأنها تستر الخطايا والذنوب التي ارتكبها الشـــخص؛ وكفّر عن يمينه: أعطى الكفارة، وكفّر عنه الذنب: محاه.

والكفارة اصطلاحاً هي ما يكفـــر به الآثم من صدقة أو صيام أو غير ذلك إســـقاطاً لذنبه، ككفارة اليمين عند الحنث به، وكفارة القتل وكفارة الإفطار العمد.

وســـميت الكفّـــارة كفّارةً؛ لأنهـــا تكفّر الذنوب، وهـــو مايذكره أبوالجيب في قاموســـه في حرف الـــكاف في تعريفه الكفارة: ما يستغفر به الآثم من صدقة وصوم ونحو ذلك.

وقد حددت الشـــريعة أنواعاً من الكفارة منهـــا: كفارة اليمين، وكفـــارة الصوم، وكفارة لترك بعض مناســـك الحج، مضافاً إلى ما ذكره عن معاني الكفـــر والكافر؛ وفي كتاب التوقيف: الكفارة: ما يغطي الإثم، وشـــرعاً: ما وجب على الجاني جبراً لما منه وقع،

وزجراً عن مثله.[١١]

مفهوم كل منهما:

من كل هذا يظهر أنّ الكلمتين مختلفتان في اللغة؛ بدءاً بجذريهما، وتبعاً لذلك اختلفت خصائصهما ومضامينهما ودلالاتهما.

فمصطلح الفدية بمشتقاته يحمل مضامين ودلالات السعة والحرية، والخلاص، والإنقاذ، والانتقال من وضع عسير إلى آخر يسير، كما جاء في لسان العرب، والمعجم الوسيط في مادة (فدي) وأكد صاحب القاموس الفقهي على تلك المعاني بقوله: فدى الأسير: استنقذه بمال أو غيره، فخلصه مما كان فيه؛ فدي المرأة نفسها من زوجها: أعطته مالاً حتى تخلّصت منه بالطلاق؛ افتدى فلان: قدم الفدية عن نفسه. الفداء: ما يقدم من مال، ونحوه، لتخليص الأسير. إذن فيها معنى الخلاص والتحرر والانعتاق والسعة.

فيما الكفارة وجمعها كفارات تنتمي إلى جذر(كفر) يدل على معاني الستر، والإخفاء، والغطاء،أي تستر الخطايا والذنوب التي ارتكبها الشخص بفعل منه أو قول؛ كما جاء في معاجم اللغة مادة (كفر) وصاحبها يدخل في دائرة الجناة كما في التوقيفات: الكفارة شرعاً: ما وجب على الجاني، ويمكن عدّ الكفارة عقوبةً وردعاً لما صدر منه عمداً.[١٢]

القرآن الكريم:

وردت الفدية ومشتقاتها في القرآن الكريم، وهي تحمل الصفات والمعاني والمضامين أعلاه:

١. في سورة الصافات: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.[١٣]

فبعد أن صدق إبراهيم التسليم لله تعالى، وكذلك ابنه إسماعيل ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ حيث طرح للذبح بثقة واطمئنان وطاعة وتسليم، جاءت مرحلة الانتقال من وضع يتصف بالضيق إلى آخر يتصف بالسعة، بعد أن نجحا في الامتحان الخطير، وتتمثل المرحلة هذه بالآية ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فداء إسماعيل بكبش عظيم، فما كان من إبراهيم إلاّ الانتقال من التسليم والطاعة الأولى دون أن يسأل ولو استرحاماً: لماذا يا ربّي أذبح غلامي الوحيد، والحليم كما وصفته ببشارتك لي: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾؟ إلى الطاعة الثانية؛ ذبح الكبش.

٢. في سورة محمد ﷺ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً...﴾.[١٤]

٣. في سورة البقرة: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾.[١٥]

وردت لفظة الفدية بمعنى طلب الحرية والخروج من الأسر، سواء كان ذلك بالمال أو بمنفعة، أو باستبدال أسير بأسير؛ أسيركم بأسيرهم، فهو تخليص لكل منهما مما يتصف به الأسر من عسر وضيق وتقييد وأغلال، واستبداله باليسر والسعة والحرية، فجاءت الفدية لتحقق هذه الأهداف.

٤. في سورة البقرة﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّه فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِ﴾.[١٦]

وهنا جاءت ﴿ٱفْتَدَتْ﴾ وهي الفدية؛ وتعني الانتقال من حال سيّئ إلى حال أحسن منه، مقابل قيمة نقدية أو عينية تدفعها المرأة لزوجها الذي استحال العيش معه في العيش الزوجي، الذي تحوّل إلى كابوس لا يطاق؛ لاحظ الخطاب القرآني حين استعمل ﴿ٱفْتَدَتْ﴾ ولم يستعمل مفردة (كفّرت) لأنه لم يكن ثمة ذنوب بين الزوجين وإنما استحالة العيش الهني سوياً.

أيضاً وردت مفردة (الفدية) في حوارات يوم القيامة؛ لتحقيق الخلاص والنجاة والانعتاق من حساب يوم القيامة وعذابها، دون أن ينفعهم وإن بذلوا ما بذلوا، ولن ينجيهم أن يفتدوا بملء الأرض ذهباً، يوم لا ينفع الفداء.

٥. في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِ﴾.[١٧]

٦. في سورة يونس: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ﴾.[١٨]

٧. في سورة الرعد: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِى ٱلأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ﴾.[١٩]

٨. في سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِى ٱلأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[٢٠]

٩. في سورة المعارج: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ... ثُمَّ يُنجِيهِ﴾.[٢١]

١٠. في سورة الحديد: ﴿فَٱلْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.[٢٢]

١١. في سورة البقرة: ﴿يأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ... وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾.[٢٣]

فكلمة الفدية هنا وردت بمعنى الانتقال من نسك إلى نسك أكثر تيسيراً من الأول، فميَّز أصحاب الأعذار بذكره للمرضى

والمسافرين، ثم ذكر صنفاً ثالثاً ﴿الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ الذين كانوا يطيقونه ثم صاروا بحيث لا يطيقونه.[٢٤]

قول من ثلاثة أقوال؛ فجعل الله فيه رخصة لمن يستطيع الصوم بجهد ـ وهو مدلول يطيقونه ـ فالإطاقة الاحتمال بأقصى جهد، جعل الله هذه الرخصة، وهي الفطر مع إطعام مسكين.[٢٥]

عن ابن عباس قال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ هي رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة، وهما يطيقان الصوم أن يُفطرا ويُطعما مكان كل يوم مسكيناً والحبلى والمرضع إذا خافتا أفطرتا وأطعمتا.

فإن صام الكبير ولكن بجهد ومشقة كبيرة، فقد تضييع عليه المقاصد التي من أجلها شرع الصوم، فانتقل أمره من عبادة الإمساك عن الطعام إلى عبادة إنفاق المال على الفقراء والمساكين وهو من خصال أهل التقوى والإحسان.

وكذا الحال في الآية محل مقالتنا ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ...﴾ فقد وردت مفردة (الفدية) بذات المعنى، معنى التيسير بالانتقال من نسك إلى آخر، ومن عمل عبادي إلى آخر لضرورة أقرّها الشرع، وعلة تغيّر بسببها التكليف.

وحسب العرف القرآني لو كان المكلف مرتكباً ذنباً بتركه للصيام في آية الصيام، أو بحلق رأسه في آية الفدية؛ لاستعمل القرآن مفردة كفارة عوضاً عن الفدية؛ ولكن القرآن الكريم سمّاها

فديةً ولم يسـمها كفارةً؛ لأنّ المكلف لم يرتكب ذنباً في الحالتين، وقد يعدّ هذا بمثابة النص في محل النزاع، والله أعلم بمراده.

وهكـذا يتجلّى الخلط بين مفهوم الفديـة ومفهوم الكفارة التي جاءت أربع مرات في آيات من سـورة المائدة، ثلاث منها جاءت في الذين ارتكبوا مخالفةً وذنباً، فيما جاءت الآية:

﴿وَكَتَبْنَـا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ... فَمَـنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَـهُ...﴾.[٢٦] كفَّرَ اللهُ عنه الذنب: غفره. أي يكفّر عن المتصدّق ذنوباً عظيمـةً .. من تصدق بالقصاص متطوعـاً.. فصدقته هذه كفارة لذنوبه؛ يحط بها الله عنه.[٢٧]

﴿لَا يُؤَاخِذُكُـمُ اللَّه بِاللَّغْـوِ فـِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِـن يُؤَاخِذُكُمْ بِمَـا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَـرَةِ مَسَـاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ...﴾.[٢٨]

فالكفارة هنا على عدم العمل بالحلف؛ يمين عقدت بقصد ونية، والحنـث بها إثم يقتضي كفـارة؛ لأنّ معنى الكفارة حصول إثم، وذلك هو إثم الحنث.[٢٩]

الأمـة قد اجتمعت على أنّ الكفارة لا تجـب إلا بعد الحنث؛ لأنّ الكفارة لا تجب بنفس اليمين، وإنما تجب باليمين والحنث، وقيل: تجب بالحنث بشرط تقدم اليمين.[٣٠]

حَنِثَ في يمينه، لم يَبَرَّ فيها، وأثِمَ.[٣١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً

فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّه عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللّه مِنْهُ وَ اللّه عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ).[٣٢]

كفارة من تجرأ فتعمد قتل الصيد وهو محرم بحج أو عمرة، أو في الحرم، أو تحريم قتل الصيد على الوجهين... ليذوق عقوبة ما فعله في الآخرة إن لم يتب، وقيل: وخامة عاقبة أمره وثقله بما يلزمه من الجزاء.[٣٣] وقد دلنا ـ والقول لابن عاشور ـ على أنّ مقصد التشريع هو العقوبة قوله عقبه: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ وأما بالنسبة إلى تسمية ذلك بالجزاء، فيقول: وإنما سمّي جزاءً ولم يسمَّ بكفارة؛ لأنه روعي فيه المماثلة فهو مقدر بمثل العمل فسمي جزاءً وينص السياق القرآني على حكمة هذه الكفارة: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ ففي الكفارة معنى العقوبة؛ لأنّ الذنب هنا مخل بحرمة يشدد فيها الإسلام تشديداً كبيراً.[٣٤]

﴿مِنْ صِيَامٍ﴾ في موضع رفع صفة للفدية، و﴿أو﴾ هاهنا للتخيير على أصلها، مما يعني أنّ هذه الفدية مخيرة؛ فيكفيه الصيام إن اختاره، وتكفيه الصدقة إن تصدق، والنسك كافٍ إن وقع اختياره عليه.

صدقة: تصدَّق عليه: أعطاه الصدقة؛ والصدقة: ما يعطى على وجه القربى لله لا المكرمة؛ المتصدق: معطي الصدقة، وفي الكتاب الكريم: ﴿إِنَّ اللّه يُحِبُّ الْمُتَصَدِّقِينَ﴾.[٣٥]

ولما للصدقة من فوائد كبيرة للمحتاجين من الناس، ولما تتركه من ودٍّ وإلفة بينهم، نال المتصدقون حبه تعالى، وما أعظمها من

نعمة!

والنسك لما فيه من معانٍ نافعة، ومضامين جميلة، أذكر التالي:

فالسمين الحلبي يقول: وفي النُّسُك قولان، أحدُهما: أنه مصدرٌ يقال: نَسَكَ ينسُك نُسْكاً ونُسُكاً بالضم، والإسكان كما قرأه الحسن؛ والثاني: أنه جمع نَسِيكة، قال ابن الأعرابي: النَّسيكة في الأصل سَبيكة الفضة، وتُسَمَّى العبادةُ بها لأنَّ العبادة مُشْبِهَةٌ سبيكة الفِضَّة في صفائها وخُلوصِها من الآثام، وكذلك سُمِّي العابدُ ناسكاً، وقيل للذَّبِيحة "نَسِيكة" لذلك؛ ويجوز تسكين السين، وبها قرأ الحسن والزهري، وهو تخفيفُ المضموم.

وأما القرطبي فيقول: النسك: جمع نسيكة، وهي الذبيحة ينسكها العبد لله تعالى، ويجمع أيضاً على نسائك؛ والنسك: العبادة في الأصل ومنه قوله تعالى: ﴿أَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي متعبداتنا؛ وقيل: إنّ أصل النسك في اللغة: الغسل؛ ومنه نسك ثوبه إذا غسله؛ فكأنّ العابد غسل نفسه من أدران الذنوب بالعبادة؛ وقيل: النسك: سبائك الفضة، كل سبيكة منها نسيكة؛ فكأنّ العابد خلّص نفسه من دنس الآثام وسبكها.[٣٦]

الرازي في المسألة الأولى: أصل النسك العبادة، قال ابن الأعرابي: النسك سبائك الفضة، كل سبيكة منها نسيكة، ثم قيل للمتعبد: ناسك لأنه خلص نفسه من دنس الآثام، وصفاها كالسبيكة المخلصة من الخبث، هذا أصل معنى النسك، ثم قيل

للذبيحة: نسك من أشرف العبادات التي يتقرب بها إلى الله.

ابن عاشور: والنسك بضمتين وبسكون السين مع تثليث النون: العبـــادة، ويطلق على الذبيحة المقصود منهـــا التعبد وهو المراد هنا مشـــتق من نَسك كنصر وكرم إذا عبد وذبح لله وسمي العابد ناســـكاً، وأغلب إطلاقه على الذبيحة المتقرب بها إلى معبود وفي

الحديث: «والآخر يوم تأكلون فيه من نسككم» يعني الضحية.

والرازي في المسألة الثانية من تفسيره يقول: اتفقوا في النسك على أنّ أقله شـــاة؛ لأنّ النســـك لا يتأدى إلا بأحد الأمور الثلاثة: الجمل، والبقرة، والشـــاة، ولما كان أقلها الشاة، لا جرم كان أقل

الواجب في النسك هو الشاة.[٣٧]

فائدة:

الدماء الأربعة الواجبة بنص القرآن الكريم ـ وكل هذه الدماء في دائرة أنشطة الحج والعمرة من مناسك وأحكام ومقدمات ـ هي:

دم هدي الحصار، قال عز شأنه: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

دم التمتع، قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

دم الحلق، وهو مخير، قال عز من قائل: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ...﴾.[٣٨]

دم هدي الجزاء، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ﴾.[٣٩]

تفصيل الفدية:

ذكروا للفدية تفصيلاً، اتفقت عليه الروايات التي ذكرت في سبب النزول، فأقوالهم:

صيام ثلاثة أيام، أو صدقة بإطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة والتصدق بها.

صيام ثلاثة أيام، والصدقة على ستة مساكين، لكل مسكين

مدّان، والنسك شاة.

صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من قوت البلد، من تمر أو غيره، أو ذبح شاة تجزئ في الأضحية.

البيضاوي في تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل: وأما قدرها فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لكعب بن عجرة: «احلق وصم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق على ستة مساكين أو انسك شاة». والفرق: ثلاثة آصع.

إلا أنّ هناك مرويّاً عند الإمامية يوزع الصدقة على عشرة مساكين؛ وهو ما ذكره الأردبيلي في زبدة البيان: عنِ عمر بنِ يزيد عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال الله في كتابه: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ فمن عرض له أذًى أو وجع، فتعاطى ما لا ينبغي للمحرم إذا كان صحيحاً، فالصيام ثلاثة أيام، والصدقة على عشرة مساكين يشبعهم من الطعام، والنسك شاة يذبحها فيأكل ويطعم، وإنما عليه واحد من ذلك.[٤٠]

وعلى ضوء هذا المروي يذكر المحقق الأردبيلي: والمشهور عند الأصحاب هو إطعام عشرة مساكين لكل واحد مدّ.

والشيخ السيوري استفاد من رواية العشرة أيضاً فقال: والفدية إما صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين لكل مسكين مدَّان، أو عشرة لكل مسكين مدٌّ، أو شاة يذبحها ويعطيها الفقراء.[٤١]

يقول المحقق الأردبيلي: وأما تفسير ﴿فَمَنْ كَانَ﴾ فهو ما يعلم من سبب نزوله على ما هو الموجود في خبر صحيح في التهذيب والفقيه، وفي الكافي أيضاً، لكنه غير صحيح، رواه حريز عن أبي عبدالله عليه السلام قال: مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله على كعب بن عجرة الأنصاري والقمل يتناثر من رأسه، فقال: أيؤذيك هامّك؟

فقال: نعم.

فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

فأمره رسول الله صلى الله عليه وآله بحلق رأسه؛ وجعل عليه صيام ثلاثة أيام، والصدقة على ستة مساكين، لكل مسكين مدّان، والنسك شاة.

فهذا الحديث يفسر الآية المذكورة، ويدل بجميع رواياته على التخيير بين الأصناف الثلاثة، كما هو ظاهر الآية الكريمة، وهي صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من قوت البلد من تمر أو غيره، أو ذبح شاة تجزئ في الأضحية.

وقال أبو عبدالله عليه السلام: وكل شيء في القرآن: "أو"، فصاحبه بالخيار، يختار ما يشاء؛ وكل شيء في القرآن: "فمن لم يجد فعليه كذا" فالأولى بالخيار».[٤٢] يدل على الترتيب.

الآلوسي: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً﴾ يحتاج للحلق، وهو مخصص لقوله سبحانه: ﴿وَلاَ تَحْلِقُواْ﴾ متفرع عليه: ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مّن رَّأْسِهِ﴾ من جراحة وقمل وصداع ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ أي فعلية فدية إن حلق،﴿مِنْ صِيَامٍ

أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ بيان لجنس الفدية.

الرازي في المسألة الثانية من تفسيره للآية: اتفقوا في النسك على أنّ أقله شاة؛ لأنّ النسك لا يتأدى إلاّ بأحد الأمور الثلاثة: الجمل، والبقرة، والشاة، ولما كان أقلها الشاة، لا جرم كان أقل الواجب في النسك هو الشاة، أما الصيام والإطعام فليس في الآية ما يدل على كميتهما وكيفيتهما، وبماذا يحصل بيانه فيه قولان أحدهما: أنه حصل عن كعب بن عجرة، وهو ما روى أبو داود في سننه أنه عليه الصلاة والسلام لما مرّ بكعب بن عجرة، ورأى كثرة الهوام في رأسه، قال له: «احلق ثم اذبح شاة نسكاً أو صم ثلاثة أيام، أو أطعم ثلاثة آصع من تمر على ستة مساكين».

والقول الثاني: ما يروى عن ابن عباس والحسن أنهما قالا: الصيام للمتمتع عشرة أيام، والإطعام مثل ذلك في العدة، وحجتهما أنّ الصيام والإطعام لما كانا مجملين في هذا الموضع، وجب حملهما على المفسر فيما جاء بعد ذلك، وهو الذي يلزم المتمتع إذا لم يجد الهدي، والقول الأول عليه أكثر الفقهاء.[٤٣]

وأخيراً فالمحقق يقول عن الآية: فدلت على أنه على تقدير حصول مرض يضرّ أو أذًى في الرأس من هوامّه، وإن لم يكن مرضاً، يجوز له الحلق، وفعل مالا يجوز للمحرم فعله، إذا كان بسبب الإحرام، وسببيته للمرض إمّا حصولاً أو زيادةً كيفاً أو كمّاً؛ وبالجملة أن يكون بحيث يفهم منه أنّ مثل هذا الضرر إنما هو منه، ولا يتحمل مثله عادةً، فالتقدير فلكم أن تفعلوا ما به

يندفــع عنكم الضرر والأذى في الإحرام مــن الأمور التي يحرم عليكــم فعلها فيه، لــو لم تكونوا مرضى ولم يكــن بكم أذًى من رأسكم، وإن فعلتم فعليكم فدية.

ثم يقول: فلا تــدل حينئذ على وجوب الفعل بل على جوازه، أو يكون التقديــر فالواجب عليكم فدية من غير تقدير شــيء آخر، فيســتفاد وجوب ذلك الفعل المنهي حال الصحة، إذ إيجابها من غير تقييده بشرط الفعل مستلزم لإيجاب الفعل، وهو ظاهر، وقد مرّ مثله في: ﴿فَعِـدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَـرَ﴾ فالمراد بالفداء البدل، أي فعليه بدل يقوم مقامــه، فهي مبتدأ خبره محــذوف، ويحتمل العكس، والتقدير فالواجب فدية، وهذا أولى ليكون المبتدأ معرفةً، والجملة جزاء الشــرط؛ أي فمن كان؛ و من صيام، مع ما عطف عليه بيان ذلك البدل والفدية.

والظاهر هو الأول، لكثرة الأخبار.

وصحة الخبر مع شهرته روايةً، فهي منقولة في الكتب الأربعة؛ هذا مع عدم شــهرة الثاني لأني ـ والقول للأردبيلي ـ ما رأيته إلا في التهذيب بل وكذا في الاســتبصار٢ : ١٩٦ فساوى الشهرتان علــى تقدير كونها شــيئاً يعتد به في الجملــة، وبقي الصحة مع الكثرة سالمة.

ويذكر المحقق الأردبيلي: والمشــهور عند الأصحاب هو إطعام عشرة مساكين لكل واحد مدّ.[٤٤]

أي مرض؟!

ولهم كلام في أنّ الآية هل تشمل كل مرض يتعرض له المحرم؛ ويرتفع عنه بعمل ما نهي عن فعله بسبب الإحرام، أو أنه يختص بما كان من المرض محتاجاً إلى الحلق؟

الأردبيلي: وظاهر الآية ثبــوت هذا الحكم في كل مرض يرتفع بفعل ما نهي عنه المحرم حال صحته، بناءً على معنى الآية؛ ويذكر أنّ هناك من خصّه بمرض محوج إلى الحلق كما في مجمع البيان والكشاف وتفسير القاضي.

والرازي في تفســيره، يذهب إلى أنّ هذا الحكم عام في جميع محظــورات الحج، وقبل أن يصرح يذكر في المســألة الثالثة من تفسيره الأقوال:

قال بعضهم: هذه الآية مختصة بالمحصر، وذلك لأنّ قبل بلوغ الهــدي محله ربما لحقه مرض أو أذى في رأســه إن صبر، فالله أذن له في ذلك بشرط بذل الفدية.

وقال آخرون: بل الكلام مستأنف لكل محرم لحقه المرض في بدنه فاحتاج إلى علاج، أو لحقه أذى في رأسه فاحتاج إلى الحلق، فبين الله تعالى أن له ذلك، وبين ما يجب عليه من الفدية.

وبعد أن ذكــر ذلك يقول: المرض قد يحوج إلى اللباس، فتكون الرخصة في اللباس كالرخصة فــي الحلق، وقد يكون ذلك بغير المرض من شدة البرد وما شــاكله، فأبيح له بشرط الفدية، وقد يحتاج أيضاً إلى اســتعمال الطيب في كثير من الأمراض فيكون

الحكم فيه ذاك، وأما من يكون به أذى من رأســه فقد يكون ذلك بسبب القمل والصئبان، وقد يكون بسبب الصداع، وقد يكون عند الخوف من حدوث مرض أو ألــم، وبالجملة فهذا الحكم عام في جميع محظورات الحج.

وأما عند غيره من المفســرين، فالأمر كما ذكره عنهم المحقق الأردبيلي، فصاحب مجمع البيان، الطبرسي يقول: أي من مرض منكم مرضاً يحتاج فيه إلى الحلق للمداواة، أو تأذى بهوام رأسه، أبيح له الحلق بشرط الفدية.

والزمخشــري في الكشاف: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ فمن كان به مــرض يحوجه إلى الحلق ﴿أَوْ بِـهِ أَذًى مّن رَّأْسِـهِ﴾ وهو القمل أو الجراحة، فعليه إذا احتلق فدية ﴿مِنْ صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ على ســتة مساكين، لكل مســكين نصف صاع من برّ ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ وهو شاة وروي: أنه مرّ به وقد قَرَحَ رَأسُهُ فقال: «كفى بهذا أذى» وأمره أن يحلق ويطعم، أو يصوم.

والقاضي البيضاوي في تفسيره أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ﴿فَمَـن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضاً يحوجه إلى الحلق؛ ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مّن رَّأْسِـهِ﴾ كجراحة وقمل ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فعليه فدية إن حلق ﴿مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ بيان لجنس الفدية.

ابن عاشور في التحرير والتنوير: وقوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مّن رَّأْسِهِ﴾ الآية، المراد مرض يقتضي الحلق سواء كان المرض بالجســد أم بالرأس، وقوله: ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مّن رَّأْسِهِ﴾ كناية

عن الوسخ الشديد والقمل، لكراهية التصريح بالقمل؛ وكلمة (من) للابتداء أي أذى ناشـــيء عن رأســـه؛ ومن لطائـــف القرآن ترك التصريح بمـــا هو مرذول من الألفاظ؛ وقوله: ﴿فَفِدْيَـةٌ مِنْ صِيَامٍ﴾ محذوف المســـند إليه لظهوره أي عليه، والمعنى فليحلق رأســـه وعليه فدية، وقرينة المحذوف قوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ﴾.

سيد قطب في ظلاله: ففي حالة ما إذا كان هناك مرض يقتضي حلق الرأس، أو كان به أذى من الهوام التي تتكون في الشعر حين يطول ولا يمشط، فالإسلام دين اليسر والواقع، يبيح للمحرم أن يحلق شـــعره ـ قبل أن يبلغ الهدي الذي ساقه عند الإحرام محله، وقبـــل أن يكمل أفعال الحـــج ـ وذلك في مقابل فدية: صيام ثلاثة أيام، أو صدقة بإطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة والتصدق بها؛ وهذا التحديد لحديث النبي ﷺ.

هذا كله في الدائرة الأولى، أما ما يتعلق بالدائرة الثانية، فالكلام يجري كالتالي:

الدائرة الثانية: الأمان

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾،

كلمة قصيرة في الأمن:

لا غرابة في اشـــتراط الأمن فـــي الآية: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُـمْ﴾ وفي الآية ٢٣٩ من ســـورة البقـــرة؛ فالأمن يعدُّ من أعظـــم النعم التي يجب أن نذكرها ونذكّر بها أنفســـنا والآخرين؛ وأهميته تنبع من كونه مطلباً وأمنيـــةً للناس جميعاً، ولأهميته ظلَّ مفردةً جميلةً، تحملها آيات قرآنية كثيرة؛ منها:

دعاء إبراهيـــم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَـداً آمِنـاً وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾.[٤٥]

فطلب الأمن قبل الرزق؛ لأن استتباب الأمن يكون سبباً لحصول

الرزق ودوامه.

ومنها بشارة يوسف عليه السلام وهو يطلب من والديه دخول مصر لا بأي صورة بل دخولها آمنين:

﴿فَلَمَّـا دَخَلُوا عَلـى يُوسُـفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْـهِ وَقالَ ادْخُلُـوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللّٰه آمِنِينَ﴾.[٤٦]

ولأنها تحمل صفة الاطمئنان والسلامة، أعلم الله تعالى نبيه موسى، لما دخل قلبه الخوف، بأنه من الآمنين:

﴿وَ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾.[٤٧]

ولأن الناس بطبيعتهم يبحثون عن الأمن، وبفطرتهم يحبون السلام؛ فهو قوام الحياة، ولأنه من أعظم أهداف الدين الحنيف، ومقاصد الشريعة الغراء، راح رسول الله صلى الله عليه وآله يردّد ها حين دخل مكة، ويذكّرأهلها بما ينالهم من الأمن والسلامة، إن هم استجابوا لندائه الذي ملأ سماء مكة المكرمة:

«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن؛ ومن دخل بيته وأغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، وفي رواية: ومن ألقى سلاحه فهو آمن».

وإذا هلَّ هلال نظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله ـ كما نسب إليه صلى الله عليه وآله ـ وهو يدعو: «أللهم أهلّه علينا بالأمن والإيمان، (وفي خبر آخر: باليمن والإيمان) ، والسلامة والإسلام، والتوفيق لما تحب وترضى، ربنا وربك الله»؛ وكلها معاني تحملها هذه الكلمة التي لا يمكن أن تقوم الحياة وتستقر وتزدهر إلا بها.

والعبادات لا يتأتى الإتيان بها على أكمل صورها إلا بنعمة الأمن، لاحظ الآيات:

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلّهِ قَانِتِينَ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللّه كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا

تَعْلَمُونَ﴾.[٤٨]

أي أدوها بكاملها وصفتها التامة.

وفريضة الحج هي الأخرى، وقد امتنّ الله تعالى بالأمن على أهل حَرَمه ، وهي السـاحة المعينة ؛ مكة وما حولها ، لأداء مناسـك الحج والعمرة :

فقال تعالى:﴿أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنـا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.[٤٩]

﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾.[٥٠]

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾.[٥١]

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.[٥٢]

فحتى تـؤدى تامةً تحتاج إلى الأمن، وها هو الحرم الآمن، وها هو البلد الأمين.

وتحتاج أيضاً إلى أن يكون الإنسان نفسه آمناً:

﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾.[٥٣]

﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.[٥٤]

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾.[٥٥]

والآية محل كلامنا: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾.

ومن الروايات:

عن ابن عباس: قال: قال رسـول الله ﷺ يـوم فتح مكة: «إنّ هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة».

عن جابر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح».[٥٦]

إضافةً إلى ذلك ـ وقبل أن نرجع إلى اللغة وما قاله المفسرون ـ أشير إلى أنّ هذا الجزء من الآية ﴿أَمِنْتُمْ﴾ قد ورد مثله في آية أخرى ٢٣٩ من سورة البقرة:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللّه كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

فتضمنت الآية ﴿خِفْتُمْ﴾ وتقابلها ﴿أَمِنْتُمْ﴾ فإذا وجد الخوف الذي هو الفزع كما يسميه القرطبي في تفسيره، فقد الأمان، والخوف له أسباب عديدة: وجود عدوظالم، أو حيوان مفترس، أو مرض، فصلّوا ماشين على أرجلكم أو راكبين حتى تأتي مرحلة الأمان ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللّه﴾ فإذا كان الأمن، فالصلاة المعروفة التي علمها الله للمسلمين، فصلوا صلاة الآمنين: قيام في الصلاة واستقرار واستقبال، ووقار وسكينة وهدوء جوارح؛ وهذا في الحالة الغالبة من الأمن والطمأنينة، فيما لا يكون ذلك في حالة الخوف الطارئة أحياناً.

إذن هناك دين يدعو إلى التزام منهجه العبادي، ونحن في حالة خوف، ونحن في حالة أمان، ليصل بنا إلى درجات رفيعة من الطاعة والتسليم والانقياد، منهج في العبادة يدعو إلى التمسك به، ويثبته في أنفسنا في الشدة، ويهذبنا به في اليسر والرخاء، وقد وضع للحالتين؛ حالة اللاأمان، وحالة الأمان، أحكاماً تتناسب مع

ما يحملانه من طبيعة.

وهنـــا في آية الحج والعمرة جـــاءت: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُـمْ﴾ والأمن ضد الخوف، وهو أيضاً السلامة من كل ما يخاف منه، فكما كان هناك ﴿فَـإِنْ خِفْتُـمْ﴾ خفتم من عدو، والخوف مانع من أداء الصلاة تجاه القبلة حيث الكعبة المشرفة.

فأمـــا إذا كان الخوف الذي لا يدع مجـــالاً لإقامة الصلاة تجاه القبلـــة، فإنّ الصلاة تؤدى ولا تتوقف؛ يتجـــه الراكب على الدابة والراجل المشـــغول بالقتـــال ودفع الخطر حيـــث يقتضيه حاله، ويؤمي إيماءةً خفيفةً للركوع والسجود، وهذه غير صلاة الخوف التي بيّن كيفيتها في سورة النساء.[٥٧]

وكان الخوف هنا من عدو، كان من مشـــركي مكة الذين حالوا بين رســـول الله ﷺ والمسلمين وبين دخولها؛ فكان الخوف مانعاً من دخول مصدر القبلة، الكعبة.

وقد يكون مجيء ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ قد لا يعني أمنتم من الخوف، أو أنّ المســـلمين كانوا خائفين من المشركين، بل أمنتم من الموانع والعقبات، فلا وجود لها وأنتم في طريقكم إلى مواقف الحج لأداء المناسك فيها، وهو ما نجده في كلام بعض المفسرين.

الأمن لغةً:

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ الفاء اســـتئنافية، وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن، وجيء بـ (إذا) لأن فعل الشرط مرغوب فيه.

أمن، يأمــن، أمناً، وأماناً، وأمانةً، وأمَناً، وإمنــاً، وأمَنَةً: اطمأنَّ ولم يخف، فهو آمنٌ، وأمنٌ، وأمينٌ؛ يقال: لك الأمان، أي قد آمنتُك؛ وأمــن البلد: اطمأنَّ فيه أهله؛ وأمِنَ الشــرَّ، ومنه: سَــلِمَ.[٥٨] وهو قاصر بالنســبة إلى المأمون منه، فيتعدى بـ «من»، تقول: أمنت من العــدو، ويتعدى إلى المأمون، تقول: أمنــت فلاناً، إذا جعلته آمنــاً منك، والأظهر أنّ الأمن ضد الخوف من العدو ما لم يصرح بمتعلقه، وفي القرآن: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ فإن لم يذكر له متعلق نزل منزلة اللازم، فدل على عدم الخوف من القتال.

الأمن عند المفسرين:

اخترت أقوال بعض ما تيسر لي من المفسرين:

فإذا أمنتم: أي من المرض والعدو، أو فإذا كنتم في حال أمن.[٥٩] أمنتم الإحصار وكنتم في حال أمن وسعة، وقد فسر في الكشاف الإحصار بالحبس والمنــع المطلق من المرض والعدو والخوف؛ فالمرض ضيقٌ وحرجٌ والصحةُ أمنٌ وسعةٌ. [٦٠]

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُــمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَــى ٱلْحَجِّ﴾ تفريع على الإحصار، أي إذا أمنتم المانع من مرض أو عدو.[٦١]

والحاصل أنــه إذا لم تحصروا وتمنعــوا، وكنتم في حال أمن قادرين على الحج.[٦٢]

برأتم من المرض؛ وقيــل: من خوفكم من العدو المحصِر، قاله ابن عباس وقتادة وهو أشــبه باللفــظ، إلا أن يتخيل الخوف من

المرض فيكون الأمن منه.[٦٣]

بعد هـذا، يمكن ترجيح قول الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) الذي سبق الشيخ الطبرسي في المراد من: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ أي فإذا أمنتم الموانعَ من المرض والعدوِّ وكل مانع؛ ويقال: في الآية إضمارٌ تقديره: فإذا أمنتم من العدوِّ وبرئتم من المرضِ، فاقضوا ما كنتم أحرمتم به قبلَ الإحصار من حجٍّ أو عمرةٍ.

ويبدو أنّ الشيخ الطبرسي (ت٥٤٨) تبع الطبراني فقال: فإذا أمنتم الموانع من العدو والمرض وكل مانع.[٦٤]

إذن؛ فكل ما يبعث على عدم الأمان والسلامة والاطمئنان والعافية، يدخل تحت دائرة اللاأمان.

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ :

التمتع لغةً: التمتع بكذا، الانتفاع بالشيء، ومنه: التمتع في الحج خير؛ والتمتع: أصله الالتذاذ والاستمتاع، استمتع بكذا: تمتع به.[٦٥]

مفردة التمتع في القرآن الكريم:

وقد ذكرت في القرآن الكريم بمشتقاتها سبعين مرةً، منها:

متعه الله بكذا، وأمتعه، وتمتع به؛ قال تعالى:

﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.[٦٦]

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾.[٦٧]

﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾.[٦٨]

﴿سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[٦٩]

ويقال لما ينتفع به في البيت: متاع؛ قال: ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾.[٧٠]

وكل ما ينتفع به على وجه ما فهو متاع ومتعة، وعلى هذا قوله: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾.[٧١] أي: طعامهم، فسماه متاعاً، وقيل: وعاءهم، وكلاهما متاع، وهما متلازمان؛ فإنّ الطعام كان في الوعاء.

ومتعة الحج: ضم العمرة إليه؛ قال تعالى:

﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.[٧٢]

التمتع اصطلاحاً:

تمتع بالعمرة إلى الحج: أقام معتمراً في الحرم حتى أدى الحج، فضمّ العمرة إلى الحج.[٧٣] التمتع: الإحرام بالعمرة في أشهر الحج، ثم الإحرام بالحج بعد تمامها.[٧٤] ومتعة الحج: هي أن يعتمر في أشهر الحج، ثم يحل ويتمتع بالإحلال بأن يفعل ما يفعله المحل، ثم يحرم بالحج من غير رجوع إلى الميقات، فهو إحلال بين إحرامين.[٧٥]

العمرة: عَمَرَ وأعمَرَ فلاناً: أعانه على أداء العُمرة؛ واعتمر وتعمَّر: أدّى العمرة؛ والعُمرةُ: نُسُك كالحج، ليس له وقت معين ولا وقوف بعرفة؛ وجمعها: عُمَر.[٧٦]

والاعتمار والعمرة: الزيارة التي فيها عمارة الودِّ، وجعل في الشريعة للقصد المخصوص؛ وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾.[٧٧]

إما من العمـــارة التي هي حفظ البناء، أو مـــن العمرة التي هي الزيارة، أو من قولهم: عمرت المكان كذا، أي أقمت به؛ لأنه يقال: عمرت المكان وعمرت بالمكان.[٧٨]

والعمارة: أن يجدد منه ما اســـترم من الأبنية، ومنه اعتمر، إذا زار؛ لأنه يجدد بالزيارة ما استرم من الحال.[٧٩]

والعمرة اصطلاحاً:

العمرة شرعاً قصد الكعبة للنسك المعروف.[٨٠]

خلاصة ما عليـــه العمرة في اللغة هي الزيـــارة بوجه العموم، وشرعاً تعني الزيارة لبيت الله الحرام بنحو خاص وهي:

عمرة مفردة مستقلة، ليســـت لها علاقة بالحج، وليس لها وقت بل وقتها طوال أيام السنة بالاتفاق، ووقتها الأفضل:

عند الإمامية: شهر رجب.

عند غيرهم: شهر رمضان.

واختلـــف في كونها مســـتحبة، وعليه الأكثر؛ وواجبة يســـقط وجوبها، لو أتى المكلف بالعمرة غير المســـتقلة، وهي المنضمة للحج.

عمرة غير مستقلة؛ لانضمامها إلى الحج، يأتي بها الناسك أولاً ثـــم يأتي بأعمال الحج بعدها، فكلاهما يؤديان في ســـنة واحدة، ووقتها من أول شـــهر شـــوال حتى اليوم التاســـع من شهر ذي الحجة.

فأشـــهر الحج هي: شـــوال وذو القعدة وذو الحجة؛ إما كله أو العشرة الأولى منه على خلاف بين الفقهاء، وهذا النوع من العمرة هو المقصود بالآية: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾.

لِمَ سمّي المتمع متمتعاً، وبأي شيء تمتع؟

بمـــا أنّ معنى التمتع هو الانتفاع، و بما أنّ البـــاء في: ﴿بِالْعُمْرَةِ﴾ سببية، أي انتفع بسببها قاصداً إلى الحج، فسمي متمتعاً؛ لأنه قد

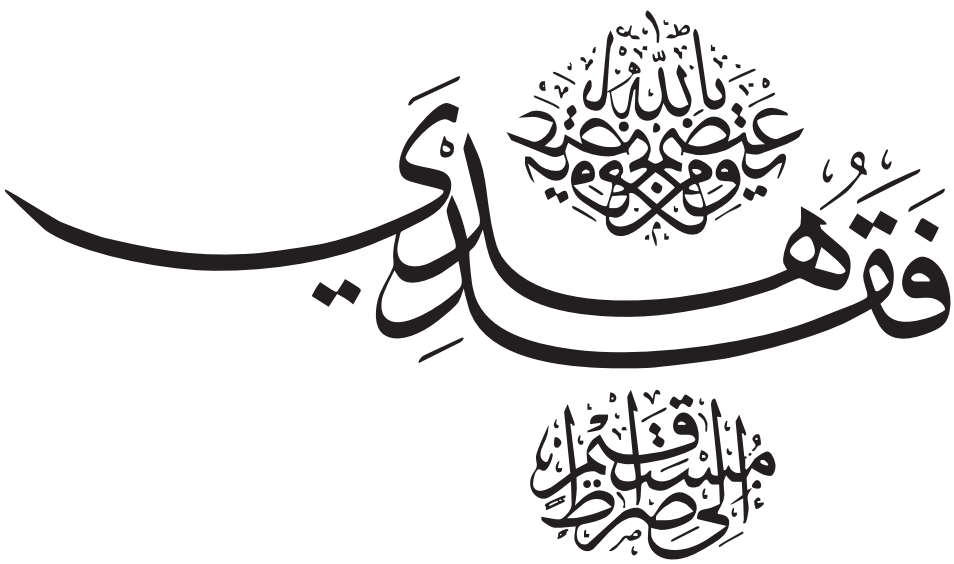

استمتع وانتفع ﴿بِالْعُمْرَةِ﴾ منتهياً ﴿إِلَى الْحَجِّ﴾؛ واستمتاعه بالعمرة إلى وقت الحج انتفاعه بالتقرب بها إلى الله، قبل الانتفاع بتقربه إليه بالحج؛ وقيل: إذا حلَّ من عمرته انتفع باســـتباحة ما كان محرَّماً عليه إلى أن يحرم بالحج.[٨١]

والقرطبي يذكر سببين: لأنه تمتع بكل ما لا يجوز للمحرم فعله من وقت حِلِّه في العمرة إلى وقت إنشائه الحج. لأنه تمتع بإسقاط أحد السفرين، وذلك أنّ حق العمرة أن تقصد بسفر، وحق الحج كذلك؛ فلما تمتع بإسقاط أحدهما ألزمه الله هدياً، كالقارن الذي يجمع بين الحج والعمرة في سفر واحد.

ثم يقول القرطبي: والأول أعم؛ فإنه يتمتع بكل ما يجوز للحلال أن يفعله، وسقط عنه السفر لحجه من بلده، وسقط عنه الإحرام من ميقاته في الحج.[٨٢]

مَن المخاطب؟

وقع اختلاف فيمن المخاطب بهذه الآية:

فابن عباس وجماعة ذهبوا إلى أنّ الآية في المُحصَرين وغيرهم ممن خلِّيَ سبيله.

فيما ذهب كل من عبدالله بن الزبير وعلقمة وإبراهيم إلى أن الآية في المحصَرين دون المُخَلَّى سبيلهم.[٨٣]

صورة المتمتع المحصر: أيضاً هي الأخرى وقع اختلاف فيها:

صورة المتمتّع المحصَر عند ابن الزبير: أن يُحصَر الرجل حتى يفوته الحج، ثم يصل إلى البيت فيحلّ بعُمرة، ثم يقضي الحج من قابل؛ فهذا قد تمتع بما بين العُمرة إلى حج القضاء.

عند غيره: أن يُحصَر فيحلّ دون عُمرة ويؤخرها حتى يأتي من قابل، فيعتمر في أشهر الحج ويحج من عامه.[٨٤]

الحج ثلاثة:

ينبغي أن يعلم أنّ حج التمتع شرع وعمل به في حجة الوداع، وأنّ الحج قبل ذلك هو حج قران أو إفراد لحاضري مكة والبعيدين عنها؛ وبتشريعه صارت أقسام الحج ثلاثة: تمتع، وقران، وإفراد، وهو محل اتفاق الفريقين، وعليه تدل أخبارهم.

فمن روايات الإمامية:

عن معاوية بن عمار قال: «سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: الحج ثلاثة أصناف: حج مفرد، وقران، وتمتع بالعمرة إلى الحج؛ وبها أمر رسول‌الله صلى الله عليه وآله والفضل فيها؛ ولا نأمر الناس إلا بها».

عن منصور الصيقل قال: قال أبوعبدالله عليه السلام: «الحج عندنا على ثلاثة أوجه: حاج متمتع، وحاج مقرن سائق الهدي، وحاج مفرد للحج».

عن أبي بصير وزرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الحاج على ثلاثة وجوه: رجل أفرد الحج وساق الهدي ورجل أفرد الحج ولم يسق الهدي، ورجل تمتع بالعمرة إلى الحج».[٨٥]

من روايات المذاهب الأخرى:

عن عائشة أنّ رسول‌الله صلى الله عليه وآله أفرد الحج. ولفظ مسلم: أهل بالحج مفرداً. وفي رواية جابر: أهل النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه بالحج مفرداً.

عن عمران بن حصين قال: أُنزلت آية المتعة في كتاب الله ففعلناها

مع رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يحرمها قرآن ولم ينه عنها حتى مات.

عن جابر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قرن الحج والعمرة فطاف لهما طوافاً واحداً.[٨٦]

المعنى والفارق:

واتفقوا على أنّ معنى التمتــع: أن يأتي أولاً بأعمال العمرة في أشهر الحج، وبعد الفراغ منها يأتي بالحج.

يقول الســيوري من الإمامية بعد أن يذكر أقسام الحج الثلاثة: فالتمتــع هو الذي تكــون العمرة فيه مقدمةً علــى الحج، بخلاف أخويه. ويقصد بهما القران والإفراد.

والقــران: هــو أن يقرن بإحرامه ســياق هدي؛ يعقــد إحرامه بإشعاره أو تقليده، وإن شاء بالتلبية.

والمفرد يقتصر على عقد إحرامه بالتلبية لا غير.

والإماميــة عندهــم أنّ الفارق بين القران والإفــراد هو الهدي، فالمفرد ليس عليه هدي وهو محــل اتفاق بينهم والمذاهب. فيما القارن يسوقه عند إحرامه، وعليه أن يهدي ماساقه.

ولا تجــوّز الجمع بين الحج والعمــرة بنية واحدة ولا يجيزون التداخــل بين إحراميــن، وأجازه غيرهم مــن المذاهب في حجة القران، فالقران عندهم هــو أن يحرم بالحج والعمرة معاً، بحيث يقــول الناســك: لبيك اللهم بحج وعمرة؛ فيمــا لا يجوز ذلك عند الإماميــة، إلا ما نقل عن ابن عقيل جواز الجمع وجعله تفســيراً

للقران مع سياق الهدي.[٨٧]

الأفضل:

وقع الاختلاف بينهـــم في أي من الثلاثة هو الأفضل؟ لاختلاف الأخبار.

القران أفضل من التمتع والإفراد. هذا ما قالته الحنفية وآخرون منهم الثــوري والمزني. والقران عندهم: هــو الجمع بين إحرام العمــرة والحج في ســفر واحد؛ وإنما قالــوا بأفضليته؛ لأنّ فيه استدامة الإحرام بهما من الميقات إلى أن يفرغ منهما، ولأنه يكون مؤدّياً للفرضيــن جميعاً وهو قول المُزنــي، ولما رواه كل من البخاريّ عن عمر بن الخطاب قال: ســمعت رسول‌الله ﷺ بوادي العَقيق يقول: «أتاني الليلة آتٍ من ربّي فقال: صلّ في هذا الوادي المبارك وقل عمرة في حَجّة».

والطحاوي عن أم سلمة: أهلُّوا يا آل محمد بعمرة في حجة.

والترمذيّ عن أنس قال: سمعت رسول‌الله ﷺ يقول: لبيك بعمرة وحجة "أو" سمعت رسول‌الله ﷺ يلبي بالحج والعمرة يقول: لبيك عمرة وحجة".[٨٨]

الإفــراد أفضل، وهو ما ذهب إليه المالكية والشــافعية، لكنهما اختلفــا في الثانــي والثالث، فالقران عند المالكيــة يأتي ثانياً في الفضــل ثم التمتع. وعند الشــافعية التمتع بعد الإفراد في الفضل ثم القران. فالإفراد بالحج عندهــم أفضل من القران والتمتع، إن

اعتمر عامه؛ لأنه لا يجب معه هدي، ولأنّ النبي صلى الله عليه وآله حج مفرداً على الأصح، قالت عائشة: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله عام حجة الوداع، فمنا ما أهَلَّ بعمرة، ومنا من أهَلَّ بحج وعمرة، وأهّلَّ رسول الله صلى الله عليه وآله بالحج.

كان هذا استناداً لما روته: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: من أراد منكم أن يُهِلّ بحج وعُمرة فليفعل ومن أراد أن يهلّ بحج فَلْيُهِلّ ومن أراد أن يُهِلّ بعمرة فليُهِلّ؛ قالت عائشة: فأهَلّ رسول الله صلى الله عليه وآله بحج، وأهلّ به ناس معه، وأهلّ ناس بالعُمْرة والحج، وأهلّ ناس بعمرة، وكنت فيمن أهلّ بالعمرة؛ رواه جماعة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. وقال بعضهم فيه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله : وأما أنا فأُهِلُّ بالحج». وهذا نصٌّ في موضع الخلاف، وهو حجة من قال بالإفراد وفضله.

ووجدت السيوري يذكر التالي: فقال مالك وأحمد: التمتع أفضل، وهو أحد قولي الشافعي، وفي قوله الآخر الإفراد أفضل؛ ولذلك جعل الهدي جبراً لا نسكاً.[٨٩]

التمتع أفضل، هو محل اتفاق الحنابلة والإمامية.

فالإمامية: لما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله : «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي». ولما ورد عن الباقر عليه السلام : «لو حججت ألفاً وألفاً لتمتعت». ولأنه مشتمل على نسكين العمرة والحج، فيكون أفضل من نسك واحد.[٩٠]

والحنابلة: التمتع أفضل، فالإفراد فالقران. والتمتع: وهو أن

يحرم بعمرة في أشـــهر الحج، ثم يحـــرم بالحج في عامه من أين شـــاء بعـــد فراغـــه منها؛ ودليلهـــم: أنّ النبـــي ﷺ كان متمتعاً؛ لما قال ابن عمر: تمتع رســـول الله ﷺ في عـــام حجة الـــوداع بالعمـــرة إلـــى الحج، وأهدى وساق الهدي معه من ذي الحليفـــة. وقـــال النبي ﷺ : «لو اســـتقبلت مـــن أمري ما اســـتدبرت لما ســـقت الهدي، ولجعلتها عمرةً».

وممن ذهـــب إلـــى أفضلية التمتـــع، يقـــول القرطبـــي: واستحب آخـــرون التّمتـــع بالعُمرة إلى الحج، قالوا: وذلك أفضل. وهو مذهب عبدالله بن عمر وعبـــد اللَّه بن الزبير، وبه قال أحمد بن حنبل، وهو أحد قولي الشافعيّ. قال الدّارَقُطنِيّ: قال الشافعيّ: اختارت الإفراد؛ والتَمتُع حَسَن لا نكرهه.

ويقول أيضاً: وقد احتجَ مَن فضّل التّمتع بما رواه مســـلم عـــن عمران بـــن حُصين قال: نزلت آية المُتْعَة في كتاب الله ـ يعنـــي متعة الحج ـ وأمرنا بها رســـول الله ﷺ ثم لم تنزِل آيةٌ تنســـخ (آية) متعة الحج، ولم يَنه عنها رســـول الله ﷺ حتى مات؛ قال رجـــل برأيه بعدُ ما شاء.[٩١]

وبعد ذلك يذكر القرطبي أنّ التمتـــع بالعمرة إلى الحج على أربعـــة أوجه، منها وجه واحد مجتمع عليه، والثلاثة مختلف فيها.

الوجـــه الـــذي عليـــه إجماع أهل العلم قديمـــاً وحديثاً، هو التمتع المراد بالآية: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ﴾.

أن يحـــرم الرجل بعمرة في

أشـــهر الحـــج، وأن يكون من أهل الآفاق، وقـــدم مكة ففرغ منها، ثم أقـــام حلالاً بمكة إلى أن أنشـــأ الحج منها في عامه ذلك، قبل رجوعه إلى بلده، أو قبـــل خروجه إلى أهل ناحيته؛ ورابطها ثمانية شروط، وهي: أن يجمع بيـــن الحج والعمرة في سفر واحد، في عام واحد، في أشهر الحج.

تقديـــم العمـــرة ألا يَمزُجَها؛ بل يكـــون إحـــرام الحج بعد الفـــراغ من العمـــرة، أن تكون العمـــرة والحج عن شـــخص واحد، أن يكون من أهل مكة، وبهذا يكون متمتعاً، وعليه ما أوجبه الله على المتمتع.[٩٢]

نكتفـــي بهـــذه الخلاصة لما اجتمعوا عليه، ونترك المختلف فيه حيـــن نواصل الحديث عن الآيـــة المذكـــورة: ﴿فَمَـنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْـرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ ضمن مقالة آتية بإذنه تعالى.

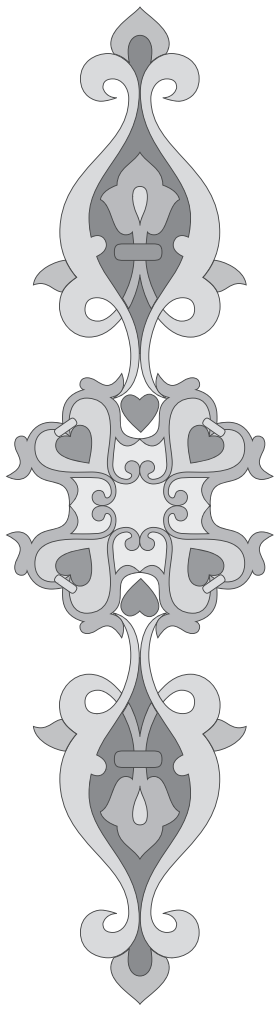

الهوامش

١. أنظـر ترجمته في الاسـتيعاب : ٦٢٦ رقـم ٢١٧٣ ؛ الإصابـة ٥ : ٥٩٩ رقم:٧٤٢٤؛ سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبي ؛ معجم رجال الحديث، للسيد الخوئي١٦ : ١٢٠ رقم ٩٧٥٨ كعب بن عجرة (عجزة).

٢. من الفعل قَرِحَ ـ قَرحاً: بدت به جروح من سـلاح أو بثور؛ والقرحة: البشرة إذا دبّ فيها الفساد؛ المعجم الوسيط : ٧٢٤.

٣. روح المعاني، للآلوسي، الآية.

٤. الدر المصون ٢ : ٣١٧ ؛ إعراب القرآن الكريم، الدرويش ١ : ٢٨٩.

٥. سورة البقرة : ١٨٥.

٦. سورة الطلاق : ٧ .

٧. مجمع البيان، للشيخ الطبرسي، الآية.

٨ . سورة البقرة : ١٩٦.

٩ . سورة البقرة : ١٨٤.

١٠. أنظر المعجم الوسـيط ٦٧٧ ، ٧٩٢؛ التوقيـف علـى مهمـات التعاريف "معجـم لغـوي مصطلحـي" محمد عبـد الـرؤوف المنـاوي (ت١٠٣١) المفردات ؛ القاموس الفقهي، سـعدي أبوالجيب٢٨١ .

١١. أنظر المعجم الوسـيط؛ والقاموس الفقهـي؛ والتوقيـف علـى مهمـات التعاريف : ٦٠٦ .

١٢. لسـان العرب ؛ المعجم الوسـيط؛ الإفصـاح في فقـه اللغـة ٢ : ١٢٠٧ لحسين يوسف موسـى وعبد الفتاح الصعيـدي؛ التوقيـف علـى مهمات التعاريف.

١٣. الصافات : ١٠٧.

١٤. سورة محمد :٤.

١٥. سورة البقرة : ٨٥ .

١٦. سورة البقرة : ٢٢٩.

١٧. سورة آل عمران : ٩١.

١٨ . سورة يونس : ٥٤.

١٩. سورة الرعد : ١٨.

٢٠. سورة المائدة : ٣٦.

٢١. سورة المعارج : ١١ـ١٤.

٢٢. سورة الحديد : ١٥.

٢٣. سورة البقرة : ١٨٤.

٢٤. مجمع البيان، للشيخ الطبرسي.

٢٥. في ظلال القرآن، لسيد قطب،: الآية ؛ التاج الجامع للأصول، للشيخ منصور علي ناصف ٢ : ٧٦ .

٢٦. سورة المائدة : ٤٥.

٢٧. المعجـم الوسـيط: كَفَّـرَ. وانظـر التفصيل في الكشـاف للزمخشري، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وفي ظلال القرآن، لسيد قطب، الآية.

٢٨. سورة المائدة : ٨٩ .

٢٩. ابن عاشـور في تفسـيره التحرير

والتنوير.
٣٠. الشيخ الطبرسي في مجمع البيان.
٣١. القاموس الفقهي، سعدي أبوالجيب : ١٠٤.
٣٢. سورة المائدة : ٩٥.
٣٣. مجمع البيان، للطبرسي، الآية.
٣٤. ابن عاشور في التحرير والتنوير، سيد قطب، في ظلال القرآن، الآية.
٣٥. سورة يوسف : ٨٨ ؛ الدر المصون، الآية ؛ المعجم الوسيط.
٣٦. الدر المصون ؛ الجامع لأحكام القرآن، الآية.
٣٧. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٢ : ٣١٧ ؛ الجامع لأحكام القرآن؛ التفسير الكبير ؛ التحرير والتنوير، التفسير الكبير للرازي، الآية ؛ وأيضاً تفسير غرائب القرآن الكريم، للشيخ فخر الدين الطريحي :٤٤١ ـ٤٤٢.
٣٨. سورة البقرة :١٩٦.
٣٩. سورة المائدة :٩٥.
٤٠. كتاب التهذيب ١ : ٥٤٢ وفيه تفصيل؛ زبدة البيان في أحكام القرآن :٢٥٥.
٤١. كنز العرفان في فقه القرآن :٢٨٩.
٤٢. مجمع البيان للشيخ الطبرسي، زبدة البيان في أحكام القرآن، كتاب الحج٢٥٣ـ٢٥٤، نقلاً عن كتاب التهذيب ١ : ٥٤٢ ؛ والكافي ٤: ٣٥٨ ؛ والفقيه٢: ٢٢٨ ؛ وقد رواه أصحاب الصحاح والتفاسير كما في صحيح البخاري١ : ٣١٠؛ والدر المنثور ١: ٢١٣.
٤٣. روح المعاني، للآلوسي ؛ التفسير الكبير، للرازي، الآية.
٤٤. زبدة البيان : ٢٥٥بتصرف بسيط.
٤٥. سورة البقرة : ١٢٦.
٤٦. سورة يوسف : ٩٩.
٤٧. سورة القصص :٣١ .
٤٨. سورة البقرة : ٢٣٨ ـ ٢٣٩.
٤٩. سورة العنكبوت : ٦٧.
٥٠. سورة القصص : ٥٧.
٥١. سورة البقرة : ١٢٦.
٥٢. سورة التين : ٣.
٥٣. سورة آل عمران : ٩٧.
٥٤. سورة قريش:٤.
٥٥. سورة البقرة : ١٢٥.
٥٦. السيرة النبوية ٤ : ٤٦ ؛ مسند الدارمي وكتاب الترمذي ؛ ميقات الحج ٨ : ١٧٦، مقالة أمن الحرم.
٥٧. في ظلال القرآن، الآية.
٥٨. المعجم الوسيط.
٥٩. كنز العرفان.
٦٠. الكشاف.
٦١. الميزان.
٦٢. زبدة البيان.
٦٣. الجامع لأحكام القرآن.
٦٤. التفسير الكبير، للطبراني ؛ مجمع البيان، للطبرسي.
٦٥. التوقيف على أمهات التعاريف،

للمنـاوي :٢٠٤ ؛ والمعجم الوسـيط :٨٥٢ .

٦٦. سورة يونس : ٩٨.

٦٧. سورة لقمان : ٢٤.

٦٨. سورة البقرة : ١٢٦.

٦٩. سورة هود : ٤٨.

٧٠. سورة الرعد : ١٧.

٧١. سورة يوسف : ٦٥.

٧٢. سورة البقرة : ١٩٦ ؛ مفردات القرآن، للراغب ؛ مفـردات القرآن، للحمصي: متع.

٧٣. المعجم الوسيط : ٨٥٢ .

٧٤. القاموس الفقهـي لغة واصطلاحاً : ٣٣٥.

٧٥. مجمع البيان، للشـيخ الطبرسي ١ : ٥١٨.

٧٦. المعجم الوسيط : ٦٢٦ ـ ٦٢٧.

٧٧. التوبة : ١٨.

٧٨. مفردات الراغب، وعنه التوقيف على مهمات التعاريف : ٥٢٧.

٧٩. مجمع البيان، للطبرسي.

٨٠ . القاموس الفقهي : ٢٦٢.

٨١ . كنـز العرفان، للسـيوري ؛ وزبدة البيان، للأردبيلي.

٨٢ . الجامع لأحكام القرآن.

٨٣ . المصدر السابق.

٨٤ . المصدر السابق.

٨٥ . الوسائل، الباب ١ من أقسام الحج ؛ الخصال ١ : ٧١.

٨٦ . التـاج الجامع للأصول٢ : الشـيخ منصـور علي ناصف، كتـاب الحج، أنواعه.

٨٧ . كنـز العرفان١ : ٢٧٣ ـ ٢٧٤ ؛ الفقه على المذاهب الخمسـة، للشيخ محمد جواد مغنية.

٨٨ . أنظـر كلاً مـن القرطبي في الجامع لأحـكام القـرآن ٢ : ٣٨٩ ؛ الزحيلي فـي الفقه الإسـلامي وأدلته ٣ : ١٣٤ ومصدره: نصب الراية ٣ : ٩٩.

٨٩ . الـفـقـه الإسـلامـي وأدلـتـه، للزحيلي٣:١٣٥ ؛ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، الآية، بتصرف قليل في كلا المصدرين ؛ كنز العرفان، للسيوري ١ : ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

٩٠. صحيح البخاري ١ : ٢٨٧ في حديث جابر ؛ الوسـائل البـاب ٤ من أبواب أقسام الحج، ح٢١ عن أبي عبدالله عليه السلام؛ عن كنز العرفان للسيوري١ : ٣٠٠.

٩١. الفقه الاسـلامي وأدلتـه ٣ : ١٣٦؛ والمصادر في الهامش: غاية المنتهى١: ٣٦٦ ؛ نصب الراية ٣ : ١١٣؛ المجموع ٧ : ١٥٠ ؛ الجامـع لأحـكام القرآن، للقرطبي٣ : ٣٨٧ ـ٣٨٨ .

٩٢. الـجـامـع لأحـكـام الـقـرآن، للقرطبي٣:٣٩١.

شخصيات من الحرمين الشريفين

(٢٩)

زيد بن حارثة

محمد سليمان

﴿.. أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ..﴾[١٠]

هناك من الصحابة من توفرت فيهم من الملاكات الإيمانية، والمواهب النفسية، والقدرات الجسدية، بدرجة عجز عنها آخرون غيرهم، فنالوا ذكراً طيباً في تأريخنا الإسلامي عبر ما حملوه من أمانة السماء، وما بلغوه من مبادئها، وقيمها، ومفاهيمها، وأحكامها.

وقد اتسمت أنشطتهم بالصدق والإخلاص، وجهودهم بالتضحية والبذل، فكان عطاؤهم عظيماً، وإرثهم نافعاً، وتاريخهم حافلاً بالحب، مشرقاً بالنور، زاهراً بالأمل والخير ...

وقد وفقني ربي للكتابة عن عدد منهم عبر هذه المجلة الموقرة، آملاً أن أزيد إن مدّ الله تعالى في عمري، وسددني في أن أقدم شيئاً لهؤلاء العظماء، فلعله يشكل بعض وفاء لما بذلوه في الدعوة و الهداية إلى الله تعالى، أسأله تعالى أن يدخره لي يوم لا ينفع مال ولا بنون.

وهذه المرة نقف عند صحابي جليل، ما إن يذكر حتى يُذكر معه امرأتان مؤمنتان صالحتان، الأولى: أم أيمن، التي كان لها دور متميز في المسؤولية والدعوة إلى الله تعالى..

فيما الثانية: زينب بنت جحش، التي شاء السماء أن تكون مع زيد شريكة، ضمن مشروعها التغييري في الساحة المسلمة يومذاك.

إنه زيد بن حارثة! الذي

أنعم الله عليه بنعم عظيمة، وما أعظمه من تصريح في كتابه العزيز: ﴿.. أَنْعَمَ اللّٰه عَلَيْهِ ..﴾! فقد أنعم عليه بالإسلام وأعزه بالهداية إليه، وأنعم الله عليه بالقرب من رسوله وبحبّ الرسول صلى الله عليه وآله له، وتنبيه له، ذلك الحب الذي يتقدم به على غيره، والذي أنعم عليه الرسول صلى الله عليه وآله بصريح التنزيل المجيد: ﴿..وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ..﴾، وما أجلّه من تصريح هو الآخر! فإضافةً إلى الهداية، وهي الأعظم، تفضل عليه بالرعاية الخالصة، والتربية وقضاء حوائجه، وبالعتق وبناء مستقبل حياته.. حتى كان ذا شأن كبير في عالم الدعوة إلى الله تعالى وساحات الجهاد في سبيله.. وحظي بثقة رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يبعثه في جيش ولا في جماعة إلا جعله أميراً على من معه.

زيد أحبّ:

فمع أنّ زيداً كان من أقدم الصحابة إسلاماً، وكان على قرب قريب من بيت النبوة، وكان على صلة وثيقة برسول الله صلى الله عليه وآله حتى كان حبيباً له، وقد عرف بهذا أنه حبيب لرسول الله صلى الله عليه وآله ونال بذلك وساماً مباركاً، وشهادة ممن عاصره من الصحابة ما أجلّها! حظي بها زيدٌ وهو شهيد بين يدي ربّه؛ فعن ابن عمر أنّ عمر فرض لأسامة بن زيد أكثر مما فرض لي، قال: فقلت له في ذلك، فقال: إنه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله منك، وإنّ أباه أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من أبيك![٢]

نسبه

زيد بن حارثة بن شـــراحيل بن كعـــب بـــن عبدالعزى بن يزيد بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بـــن عامر بن عبد ود ـ ســـماه أبوه بصنمه ـ بن أمرئ القيس بـــن النعمان بن عمـــران بن عوف بن كنانة بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بـــن وبرة بن كلب بـــن وبرة؛ وينتهي نسبه إلى قضاعة.

وأمه ســـعدى بنت ثعلبة بن عبد عامر بن أفلت بن سلسلة من بني معن من طيئ.[٣]

وكنيته : أبو أسامة الكلبي.

من صفاته الجسمية، أنه كان قصيراً أدم ـ أي أسمر ـ شديد الأدمة، أفطس الأنف..

زيد أسيراً !

لقد كان الرّق فـي ذلك الزمان البعيـــد يحتل مكانة واســـعة، وراح يفرض نفســـه كظرف اجتماعي وواقـــع، وضرورة قائمـــة.. ففي أثينا ـ كما ذكروا ـ كانت ظاهرة الرق، حتى في أزهى عصور حريّتها ورقيّها.. وكذلك كانت تلك الظاهرة في روما.. والأمر نفسه في العالم القديم كله.. وبالتالي في جزيرة العرب أيضاً..

وقـــد وقـــع زيد بـــن حارثة ضحية هـــذا النظام القاســـي، وكان واحـــداً من ضحايا ذلك الواقع الاجتماعي المرير، فقد أصابه سباء في الجاهلية وهو ابن ثمان ســـنين؛ فبعد أن أعدّ حارثة أبو زيد الراحلة والمتاع لزوجتـــه ســـعدى، التي كانت تزمع زيـــارة أهلهـــا في بني معن... وخـــرج يودع زوجته التـــي كانت تحمـــل بين يديها

طفلهما الصغير زيداً، وكلما همّ أن يودع القافلة التي كانت أم زيد برفقتها ويعود إلى شأنه، يدفعه تعلقه بهم، وحنان خفيّ، وحب عجيب لمواصلة السير مع زوجته وولده.. لكنّ الشقّة بعدت، والقافلة أغذت سيرها، وآن لحارثة أن يودّع الوليد وأمّه، لكن شعور قلق وخوف عليهم، وحزن راح يراوده، مما جعله يقف طويلاً مسمراً في مكانه، مكتفياً بأن يلوح لهما بيديه حتى غابا عن بصره، وأحسّ وقتها كأن قلبه لم يعد في مكانه المعهود؛ كأنه رحل مع الراحلين..!!

ومكثت سعدى في قومها ما شاء الله لها أن تمكث.. وذات يوم فوجئ الحيّ، حي بني معن، بإحدى القبائل المناوئة له، فأغارت خيلهم خيل بني القين بن جسر، وأنزلت الهزيمة بأهل الحي، وما أن مروا على أبيات بني معن رهط أم زيد، حتى احتملوا زيداً معهم، وهو يومئذ غلام يافع.

ورجعت وحيدةً !

وعادت سعدى إلى زوجها وحيدةً، ولم يكد حارثة يعرف النبأ منها حتى خرّ صعقاً، وحمل عصاه على كاهله، ومضى يجوب الديار، ويقطع الصحاري، ويسأل كل قبيلة في طريقه أو قافلة تصادفه عن ولده وحبّة قلبه زيد، وهو يحدو ناقته بأبيات شعر من الطويل، ظل ينشدها بقلب مفجوع، ودموع جارية، ومن تلك الأبيات:

بكيــت علــى زيــد ولــم أدر مــا فعل
أحــيّ فيرجــى أم أتــى دونــه الأجل؟
فــوالله مــا أدري، وإن كنــت ســائلاً
أغالــك ســهل الأرض أم غالــك الجبل؟
فياليت شــعري هل لك الدهــر رجعة ؟
فحســبي مــن الدنيا رجوعــك لي بجل
تذكرنيــه الشــمس عنــد طلوعهــا
وتعــرض ذكــراه إذا قــارب الطفــل
وان هبّــت الأرواح هيّجــن ذكــره
فيــا طــول ما حزنــي عليه، ومــا وجل
ســأعمل نص العيس في الأرض جاهداً
ولا أســأم التطــواف أو تســأم الإبــل
حياتــي أو تأتــي علــي منيتــي
وكل أمــرئ فــان وإن غــره الأمــل
وأوصــي بــه قيســاً وعمــراً كليهمــا
وأوصــي يزيــداً ثــم من بعدهــم جبل

ويعني بجبل: جبلة بن حارثة أخا زيد، وكان أكبر من زيد، ويعني بيزيد، كعباً أخا زيد لأمه و ابن عمه، وهو يزيد بن كعب بن شراحبيل..

في سوق عكاظ

وعندما اختطفت قبيلة بني القين المغيرة على بني معن نصرها، وعادت حاملة أسراها، وافوا بهم سوق عكاظ التي كانت منعقدة آنئذ، فعرضوا زيداً للبيع مع رفاقه في الأسر، ووقع الطفل زيد في يد حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، الذي اشتراه لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم... وفي رواية أنّ حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة؛ فدخلت عليه عمته خديجة بنت خويلد، فقال لها: اختاري يا عمة أي هؤلاء الغلمان شئت فهو لك، فاختارت زيداً، فأخذته، وكانت يومذاك زوجة سيد العالمين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله فرآه رسول الله صلى الله عليه وآله عندها، فاستوهبه منها، فوهبته له، والوحي بعد لم يأت إليه؛ بيد أنه كان يحمل كل الصفات العظيمة التي أهلته السماء لها؛ ليكون غداً من الأنبياء والمرسلين... كان يومئذ محمد ولم يكن نبياً، ولكنه كان الصادق الأمين، كان ابن عبدالله من بني هاشم ولم يكن رسولاً، إلا أنه كان عظيماً في أخلاقه، نموذجاً رائعاً في آدابه، جميلاً في سيرته... فتقبل هذا الطفل، الذي اختطفته عصابة، وانتزعته من أمه وأبيه، واقتلعته من روضته

الجميلة الممتعة بقومه وأهله، لتبيعه؛ لكن السماء عوضته عن كل ذلك وغيره بالكثير الكثير، فبعد أن وقع بين يدي الصادق الأمين، واحتضنه قلبه المبارك حتى أعتقه من فوره، وراح يمنحه من نفسه العظيمة ومن قلبه الكبير كل عطف وحنان، ومن أدبه وخلقه الرعاية والتربية.

واختار محمداً ﷺ !

وظل أبو زيد وعمه كعب يطويان الأرض طولاً وعرضاً، يبحثان عن غلامهما... ودخلا مكة المكرمة يسألان عن زيد.

وجاء في رواية أنه: حج ناس من كلب، فرأوا زيداً، فعرفهم وعرفوه، ونقلوا إليه لوعة والديه... وحمّلهم زيد سلامه وحنانه وشوقه لأمه وأبيه، وقال للحجّاج من قومه: أخبروا أبي أني هنا مع أكرم والد.

ثم قال لهم: أبلغوا أهلي هذه الأبيات، فإني أعلم أنهم قد جزعوا علي، وكانت أبياته من الطويل:

أحن إلى قومي وإن كنت نائي
فإني قعيد البيت عند المشاعر
فكفوا من الوجد الذي قد شجاكم
ولا تعملوا في الأرض نص الأباعر
فإني بحمد الله في خير أسرة
كرام معد كابراً بعد كابر

تقول الرواية: فانطلق الكلبيون فأعلموا أباه فقال: ابني ورب الكعبة؛ ووصفوا له موضعه، وعند من هو؛ فخرج حارثة وكعب ابنا شراحيل بفدائه، وقدما مكة، فسألا عن النبي ﷺ فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه، فقالا: يا بن عبدالله، يا بن

عبدالمطلب، يا بن هاشم، يا بن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، وعند بيته، تفكون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ابتياع عبدك، فامنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه، فإنا سنرفع لك في الفداء.

قال: من هو؟

قالوا: زيد بن حارثة.

فقال رسول الله ﷺ: فهلا غير ذلك؟!

قالوا: ما هو؟

قال: أدعوه، فخيره، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني، فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً.

قالا: قد زدتنا على النصف وأحسنت.

فدعاه، فقال: هل تعرف هؤلاء؟

قال: نعم.

قال: من هما؟

وكأني بزيد وهو ينظر إلى أبيه، وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

وقال: هذا أبي، وهذا عمي.

قال ﷺ: فأنا من قد علمت، ورأيت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما.

وهنا أيضاً وكأني أرى زيداً وهو ينظر إلى هنا حيث الوجه المتألق والمشرق لنبي الرحمة ورسولها، وينظر هناك إلى حيث وجه أبيه وعمه... وساد الموقف صمت أعظم من صمت القبور، وقد وجفت القلوب من حولهم، وتحيرت النفوس... كل هذا أمام علامة استفهام كبيرة، وكلمة فصل أعظم، واختيار أصعب، يتمحور حول «فاخترني أو اخترهما»

إنه اختيار الحياة والحرية بمعناهما الأعظم والأوسع والأجل؛ ذكر في الدنيا، وخلود في الآخرة.

قال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والعم.

قالها زيد صريحةً لا لبس فيها ولا غموض؛ اختارك أنت، فأنت أفضل من أبي وأمي والناس أجمعين.

فقالا: ويحك يا زيد! أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟!

قال: نعم إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً، ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً، أنت الأب والعم!

وفي رواية أنه قال له رسول‌الله ﷺ: «إن شئت فأقم عندي، وإن شئت فانطلق مع أبيك».

فقال: بل أقيم عندك.

فلما رأى رسول‌الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر، فقال: «يا من حضر، اشهدوا أن زيداً ابني أرثه ويرثني»؛ فدعي زيد بن محمد.

فلما رأى أبوه وعمه الخلق الرفيع لمحمد بن عبدالله وأدبه العالي، وموقف زيد وتعلقه بمحمد ﷺ طابت أنفسهما، فانصرفا مطمئنين.

وأصبح زيداً أثيراً لدى رسول‌الله ﷺ أي يحبه ويؤثره على نفسه، فأعتقه، وغدا بحق حبّ رسول‌الله ﷺ ومولاه؛ ولم يزل عند رسول‌الله ﷺ حتى بعثه الله فصدقه وأسلم، وصلى معه.

وتهلل وجه حارثة الذي لم يكن يتوقع كل هذا السماح

وقال: «لقد أنصفتنـــا، وزدتنا عن النصف».

وإذا بزيد في أعظم بيت!

إنـــه بيت مـــن أجـــلّ بيوت قريش وبني هاشـــم، وشاءت الســـماء أن يكـــون بيت وحي ونبوة ورســـالة، بيت أذن الله أن يرفـــع ويذكر فيه اســـمه.. فكيـــف لايكـــون مـــن أفضل وأعظـــم البيـــوت؟! كان ذلك حين نديت عينا رســـول الله ﷺ بدموع شـــاكرة وحانية، وهو يمسك بيد زيد، وخرج به إلى فناء الكعبـــة أو إلى الحجر في بيت الله الحـــرام، حيث قريش مجتمعة هناك، فقـــال: «يا من حضر! اشـــهدوا أنّ زيداً ابني يرثني وأرثه» ، فلمّا رأى ذلك أبوه وعمّه طابت نفوسهما.[٤]

وكاد قلـــب حارثـــة يطيـــر من الفرح.. فابنـــه لم يعد حراً فحسب، بل وابناً للرجل الذي تسميه قريش الصادق الأمين ســـليل بني هاشـــم، وموضع حفـــاوة مكة كلهـــا، والعالمين فيما بعد! وعاد الأب والعم إلى قومهما مطمئنين على ولدهما والـــذي تركاه في مكـــة، آمناً معافـــى، بعـــد أن كان أبوه لا يدري: أغاله الســـهل، أم غاله الجبل..!! تبنّى الرســـول زيداً.. وصـــار لا يعرف في مكة كلها إلا باسمه هذا زيد بن محمد.

لم يكـــن زيد يعلـــم أنه قدر لـــه أن يكون في بيـــت رباني أعدتـــه الســـماء؛ ليكـــون هذا البيـــت قدوة للعالمين، في بيت النبـــوة والرســـالة، والوحي الســـماوي في رواحه ومجيئه يبلغ الرســـول ﷺ بمـــا تريده الســـماء منه، بآياتها القرآنية،

وأحكامها وشرائعها وآدابها؛ وزيد في هكذا جوٍّ تربى ونشأ، فمـــا أعظمها من تربية وأجلّها من نشأة!

إسلامه

ما إن منَّ الله ســـبحانه على الناس بالديـــن الحنيف، حتى انشرح صدر زيد للإسلام بعد الإمام علي عليه السلام فدخله بإخلاص عظيم، وولجه بروحه ووجدانه، وأحب الله تعالى ورسوله حباً كبيراً واعيـــاً، وراحت روحه تنشدُّ لرســـول الله صلى الله عليه وآله وتقترن به أكثـــر فأكثـــر، حتى حظي بثقة رســـول الله صلى الله عليه وآله فلا يبعثه في جيش ولا في جماعة ـ كما ذكرنا ـ إلا جعله أميراً على من معه، وهذا جزء من إكرامه صلى الله عليه وآله له وسيأتينا مزيد.

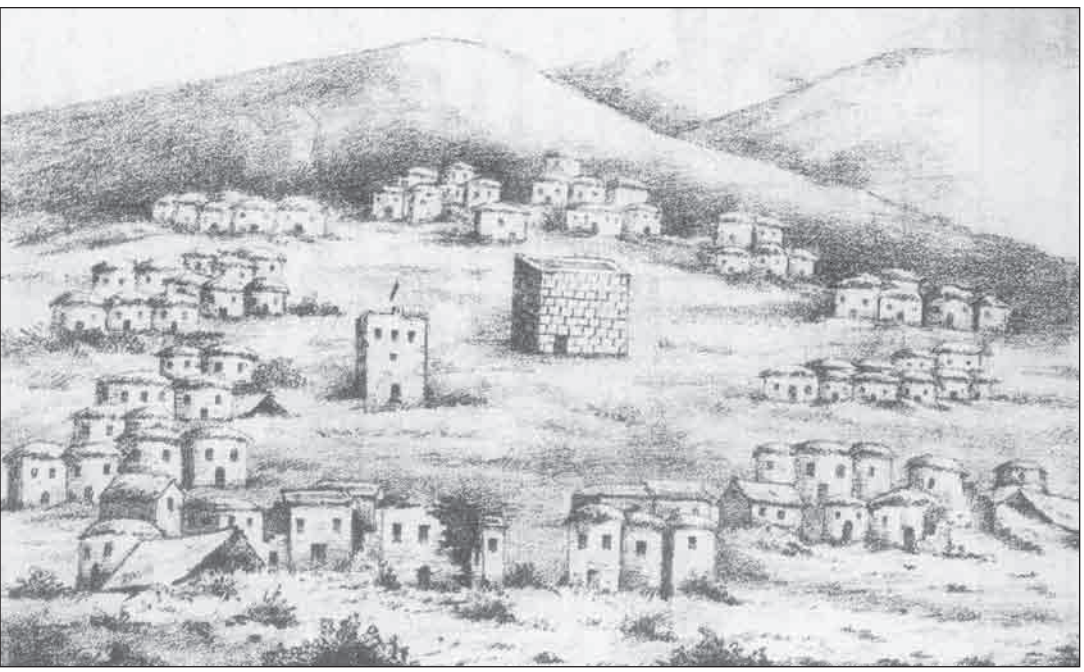

مما ورد في إسلامه

* وأظهر علي عليه السلام وزيد بن حارثة إسلامهما، فكبر ذلك على قريش، وكان أول من اتبع رسول الله صلى الله عليه وآله خديجة بنت خويلد زوجته، ثم كان أول ذكر آمن به علي عليه السلام وهو يومئذ ابن عشر سنين، ثم زيد بن حارثة.

* عن علي عليه السلام قال: أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله فكان أول ذكر أسلم وصلى بعد علي بن أبي طالب.[٥]

زيد بن محمد ثم زيد بن حارثة!

لما اختار زيد البقاء مع محمد صلى الله عليه وآله فصار من يومها يدعى زيد بن محمد تعظيماً له وتكريماً .. ولما جاء الإسلام و نزل قوله تعالى: ﴿أُدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ...﴾.[٦]

عاد اسمه إليه امتثالاً وتلبيةً لهذه الآية، وقال زيد حينئذ: أنا زيد بن حارثة، وهكذا دعي الأدعياء إلى آبائهم، ومنهم المقداد بن عمرو، فقد كان يقال له قبل ذلك: المقداد بن الأسود، وكان الأسود بن عبد يغوث الزهري قد تبناه في الجاهلية، إلا أنّ هناك من يقول: إنّ المقداد بقي يحمل اللقب نفسه (الأسود) وكذا سالم.

فقد غلب عليهما اسم التبنّي فلايكاد يعرف كل منهما إلاّ به؛ فهذا المقداد لما نزلت الآية قال: أنا ابن عمرو، ومع ذلك بقي الاطلاق عليه: المقداد بن الأسود؛ ولم يسمع فيمن مضى من عصّى مُطْلِق ذلك عليه وإن كان متعمداً؛ وكذلك سالم مولى أبي حذيفة، كان يدعى

لأبي حذيفة؛ وغير هؤلاء ممن تُبُنّي وانْتُسِب لغير أبيه وشُهر بذلك وغَلب عليه؛ وذلك بخلاف الحال في زيد بن حارثة، فإنه لايجوز أن يقال فيه زيد بن محمد، فإن قاله أحد متعمداً عصى لقوله تعالى: ﴿وَلَكِن مَّا تَعَمَّدتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي فعليكم الجناح؛ ولذلك قال بعده: ﴿وَكَانَ اللّه غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي «غفوراً» للعمد، و «رحيماً» برفع اسم الخطأ.[٧]

زواجه

ظهر مما سبق أنّ هذا الصحابي قد حظي بمنزلة كبيرة عند رسول الله صلى الله عليه وآله حين راحت روحه تقترب من روحه، فاحتل مكاناً رفيعاً في قلب من هو رحمة للعالمين، لهذا تراه صلى الله عليه وآله هو المبادر بنفسه لقضاء حوائج هذا الصحابي، فبعد أن علّمه الإسلام ورباه عليه ليحيا في دنياه وآخرته، بادر إلى زواجه.

أولاً ، بأم أيمن

وأمّ أيمن هذه التي يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وآله : «من سرّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة، فليتزوج أم أيمن».

اسمها، بركة بنت ثعلبة بن عمر بن حصن بن مالك بن عمر النعمان الحبشية وغلبت عليها كنيتها أم أيمن.

وإذا ما عرفنا ولو شيئاً عن هذه المرأة ومواقفها النبيلة من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو إذ كان طفلاً يحبو فنبياً ورسولاً، فإننا نعرف قيمة العمل الذي قام به رسول الله صلى الله عليه وآله لهذا الصحابي، وهو دليل على مكانته الكبيرة

عنده صلى الله عليه وآله ... وهذا يدعونا إلى الحديث قليلاً عن أم أيمن المرأة الصحابيـــة المؤمنة الصالحة، التي افتتح الأصفهاني ترجمة شيء من حياتها بذكر مناقب لها، وهو يتحدث في باب: (ذكر النســـاء الصالحـــات) فيقول: ومنهـــنّ أمُّ أيمـــن المهاجـــرة الماشـــية، الصائمـــة الطاوية، الناحبة الباكية، سقيت من غير راوية، شربة ســـماوية كانت لها شافية كافية..[٨]

جاءت أمّ أيمن من الحبشة مع أصحاب الفيل في جيش أبرهة، الذي أتـــى مكة غازياً، لتحطيم الكعبة المشرفة وتحويل أنظار الناس من الكعبة إلى كنيســـة بناهـــا فـــي اليمن؛ وســـمّاها باسم ملك الحبشـــة، وقد هيّأ لها أســـباب الفخامة، أتى هذا الجيش وكان معه فيل ضخم؛ ليثير الرعب والفزع في نفوس أهل مكة... أرســـل الله تعالى عليهم طيراً من الســـماء، ألقت عليهـــم بحجارة من ســـجيل كما جاءت به سورة الفيل في القرآن الكريم:

﴿بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَـمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِـي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَـلَ عَلَيْهِـمْ طَيْـراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِـمْ بِحِجَـارَةٍ مِـنْ سِـجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.

أطاحـــت بكيدهـــم، بـــددت شـــملهم، فرقـــت جمعهم، قتل منهم من قتل، فرّ منهم من فرّ.

فوقعت هذه المرأة في الأسر، عاشت في بيت عبدالمطلب جد النبي صلى الله عليه وآله وهبها بعد ذلك لابنه عبـــدالله، ومن بعـــده إلى ولده خير الأنام محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله يقال: إنه ورثها من أبيه وورث

خمسة جمال أوراك، وكذلك قطيعاً من الغنم، وأم أيمن هذه هي التي كانت مع آمنة بنت وهب أمّ النبي ﷺ حين ذهبت إلى المدينة، لزيارة بني النجار أخوال جده عبدالمطلب، ولمّا عادت إلى مكة مرضت آمنة في الطريق، وتوفيت في الأبواء، فعادت أم أيمن بالنبي ﷺ وأصبحت حاضنته، وأوقفت نفسها لرعايته والعناية به، وغمرته بعطفها، كما غمره جده عبدالمطلب بحبه، وعوضه الله تعالى بحنان جده وأم أيمن عن حنان الوالدين، وأحبه عبدالمطلب حباً عظيماً، وكثيراً ما كان يوصي الحاضنة أم أيمن قائلاً لها:

يابركة، لاتغفلي عن ابني، فإني وجدته مع غلمان قريباً من السدرة، وأن أهل الكتاب يزعمون أن ابني هذا نبي هذه الأمة.

وبعد وفاة عبد المطلب حزن عليه رسول الله ﷺ حزناً كما روت ذلك أم أيمن: رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب.

عاشت الفتاة الحبشية حياة كريمة في مكة؛ لأمانتها ووفائها وخلقها الكريم وسيرتها الحسنة وسلوكها المستقيم؛ ولما جاء الإسلام ازدادت مكانتها سمواً وارتفاعاً، فكانت في طليعة السابقين إلى الدين الجديد، وهي مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته، التي حظيت بمنزلة عالية في قلب رسول الله ﷺ ، فقد كان الرسول ﷺ يحسن معاملتها، ويناديها يا أماه، وشب النبي ﷺ وهو يقدر أم أيمن ويكرمها؛

لأنها كانت رضي الله عنها تقوم على أموره وشؤونه، وترعاه رعاية حسنة، وقد كان لإكرامه ﷺ الأثر الكبير فيما تركه من بصمات على سيرتها واستقامتها، ولما تزوج الرسول ﷺ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أعتق أم أيمن، ويقال إنّ عبدالله والد الرسول هو الذي أعتقها، لقد كانت أم أيمن في طليعة المصدقين برسول الله ﷺ المؤمنين برسالته، فقد أسلمت رضي الله عنها في الأيام الأولى من البعثة النبوية، وغدت صحابية مباركة، وفقها الله تعالى أن ترى النبي ﷺ وترعاه طفلاً صغيراً، وترافقه نبياً مرسلاً، عاشت مراحل حياته كلها، ومراحل النبوة والرسالة، وعاصرت العديد من الأحداث التي حدثت والوقائع... نعم حظيت أم أيمن بمنزلة عالية عند الرسول ﷺ وأكرمها أيما إكرام.

وقد روي أن النبي ﷺ كان يقول لأم أيمن: «يا أم»؛ ويقول: «هذه بقية أهل بيتي»؛ «أم أيمن أمي، بعد أمي»؛ «إنها من أهل الجنة».

وهذا إن دل فإنما يدل على مكانة أم أيمن عند رسول الله ﷺ وحبه الشديد لها، وقد عدها من أهل بيته؛ عندما قال رسول الله ﷺ فيها: «هذه بقية أهل بيتي»!!

وقدعرفت بحبها له ولأهل بيته عليهم السلام وعدت من اللواتي كن برفقة سيدة النساء فاطمة بنت رسول الله ﷺ أسماء بنت يزيد الأنصاري، وأم سلمة، وفضة، ومعاذة أم سعد بن معاذ،

وصفية بنت عبدالمطلب، وأم أيمن، ونساء مخلصات من نساء المهاجرين والأنصار، وكانت ترعاها وتقوم بشؤونها، وتقف بجانبها فيما تعرضت له .. حتى شهدت لفاطمة عليك بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله أنشدك بالله ألست تعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أمّ أيمن امرأة من أهل الجنة».

فقال: بلى.

فقالت: فأشهد أنّ الله عزوجل

الزهراء عليها السلام في قضية فد ك المعروفة، فقبلت شهادتها ثمَّ ردَّت بدعوى أنها أعجمية ... ومما ذكر أنها قالت للخليفة الأول:

لا أشهد يا أبابكر حتى أحتج

أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ فجعل فدكاً لها طعمة بأمر الله.

وكانت أمّ أيمن أبرز من حضرت وفاة الزهراء عليها السلام من النساء.[9]

زواجها

تزوجها عبيد بن الحارث الخزرجي بمكة، وولدت له: أيمن، ولأيمن هجرة وجهاد، واستشهد في معركة حنين، فغدت أمّاً للشهيد.

وله ﷺ قول رائع فيها، وذلك لما مات زوجها الخزرجي وانتهت عدتها، قال رسول الله ﷺ فيها: «من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة، فليتزوج أم أيمن»، فحظي بها زيد بن حارثة عندما زوجه بها رسول الله ﷺ فولدت له أُسامة بن زيد.

هجرتها

كانت من المهاجرات الأول، هاجرت مرتين الأولى إلى الحبشة «وطنها الأول» ثم عادت لتهاجر ثانيةً من مكة إلى المدينة المنورة بمفردها سيراً على الأقدام، وفي خبر: لما هاجرت أمّ أيمن أمست بمنطقة جرداء لا زرع بها ولا ماء وليس معها زاد، فأصابها عطش شديد، واقتربت من الهلاك؛ هبط عليها دلو من السماء فيه ماء شربت منه وارتوت فقالت: ما أصابني بعد ذلك عطش؛ وقد صامت وسافرت في أيام اشتد فيها الحر، فما شعرت بالعطش بعدها.

ومما رواه ابن سعد عن عثمان بن القاسم أنه قال: لما هاجرت أم أيمن... فعطشت، وليس معها ماء؛ وهي صائمة، فأجهدها العطش، فدلي عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض، فأخذته، فشربته حتى رويت؛ فكانت تقول: ما

أصابني بعد ذلك عطش، ولقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجـــر، فما عطشـــت؛ وفي خبر لقد أكرم الله ســـبحانه أمّ أيمن وهى صائمة فقد أصابها العطش وهي لم يكن معها ماء فدلـــي عليها من الســـماء ماء فرويت.

وفـــي خبر قالـــت: ... إذ أنا بحفيف "دون الصوت" شيء فوق رأســـي، فرفعت رأسي، فإذا أنا بدلوٍ من السماء مدلى برشـــاء أبيض، فدنا مني حتى إذا كان حيـــث اســـتمكن منه، تناولتـــه فشـــربت منـــه حتى رويت، فلقد كنت بعد ذلك اليوم الحار أطوف في الشـــمس كي أعطش، وما عطشت بعدها.

فهذا يدل علـــى كرم الله على أمّ أيمن، وعلى منزلتها العالية، وفوزها بمحبة الله والرســـول، وهـــذا كله يدل علـــى رفق الله بعباده، وســـعة رحمة الخالق بهم.[١٠]

من رواياتها

وقد روت عن النبي صلى الله عليه وآله العديد من الأحاديث:

منهـــا، عن أم أيمن رضي الله عنها أنّ النبي صلى الله عليه وآله أوصى بعض أهل بيته فقال: «لا تشرك بالله وإن عذبت وإن حرقت، وأطع ربك ووالديـــك وإن أمراك أن تخرج من كل شيء فاخرج».

«ولا تترك الصـــلاة متعمداً فإنه من تـــرك الصلاة متعمداً فقـــد برئت منه ذمـــة الله؛ إياك والخمـــر فإنهـــا مفتـــاح كل شـــر؛ وإياك والمعصية فإنها تســـخط الله؛ لا تنازعـــن الأمر أهلـــه وإن رأيت أنه لك؛ لا تفر من الزحف وإن أصاب الناس

موت وأنــت فيهم فاثبت؛ أنفق على أهلك من طولك، ولا ترفع عصاك عنهــم، وأخفهم في الله عزّوجل».

وعــن أم أيمــن قالــت: قال رسول الله ﷺ: «لا يقطع السارق إلا في حجفــة»، وقومت على عهد رســول الله ﷺ ديناراً أو عشرة دراهم.

مواقفها

مــن المواقــف الرائعــة والتــي حدثــت بيــن أم أيمن والرسول ﷺ أنه لما حضرت وفــاة بنــت لرســول الله ﷺ صغيرة، فأخذها رسول الله ﷺ فضمها إلــى صدره ثم وضع يده عليها فقضــت، وهي بين يــدي رســول الله ﷺ فبكت أم أيمن، فقال لها رسول الله ﷺ: «يــا أم أيمــن أتبكيــن ورسول الله ﷺ عندك؟»، فقالت: مالي لا أبكي ورســول الله ﷺ يبكي؛ فقال رسول الله ﷺ: «إني لست أبكي ولكنها رحمة»؛ ثم قــال رســول الله ﷺ «المؤمن بخير على كل حال تنزع نفسه من بين جنبيــه وهو يحمد الله عزّوجل».

وقالــت أم أيمــن رضي الله عنها: قام النبــي ﷺ من الليل إلــى فخارة من جانــب البيت فبــال فيهــا فقمت مــن الليل وأنا عطشــى فشــربت ما في الفخــارة وأنا لا أشــعر، فلما أصبــح النبي ﷺ قــال: «يا أم أيمن قومي إلــى تلك الفخارة فاهريقي ما فيها»، قلت: قد والله شــربت ما فيها؛ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: «أما أنك لا يفجع بطنك بعده أبداً».[11]

جهادها

ورغم كبر سن أم أيمن، فقد أبت إلا أن تشارك في الجهاد مع رسول الله ﷺ ففي غزوة أحد خرجت مع النساء، وكانت مهمتها مداواة الجرحى والاعتناء بهم، وسقاية العطشى من المجاهدين؛ وكانت تحثو التراب في وجوه الذين فرّوا من المعركة، وتقول لبعضهم: «هاك المغزل وهات سيفك».

وفي غزوة خيبر خرجت مع رسول الله ﷺ عشرون امرأة كان من بينهنّ أم أيمن رضي الله عنها، وأما ابنها أيمن فقد تخلف لمرض فرسه، وكانت أمه قد وصفته بالجبن؛ وشاركت وابنها أيمن في معركة حنين.

وفي سرية مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة، قتل زيد بن حارثة رضي الله عنه، فتلقت أم أيمن نبأ استشهاد زوجها وهي صابرة محتسبة.

ثم تأتي بعد ذلك غزوة حنين في سنة ثمان للهجرة، التي شاركت وابنها أيمن فيها، وتلقت نبأ استشهاد ابنها في هذه المعركة بصبر وتسليم لقضاء الله وقدره؛ واحتسبت كلاً من زوجها زيد وابنها أيمن عندالله تعالى، ابتغاء مرضاته، ومرضاة رسوله ﷺ!

وفاة رسول الله ﷺ

ومرت الأيام سريعاً، وتوفي الرسول ﷺ وتسرب النبأ الفادح، وأظلمت على المدينة أرجاؤها وآفاقها، فقامت أم أيمن حزينة باكية على فراق رسول الله ﷺ.

ففي خبر أنّ أم أيمن بكت

حين مات النبـــي صلى الله عليه وآله فقيل لها: أتبكين؟ قالت: والله، لقد علمت أنه سيموت؛ ولكني إنما أبكي على الوحـــي إذ انقطع عنا من السماء.

وإذا ســـئلت مـــا يبكيك؟ ما عندالله خير لرســـوله؛ فكانت تجيب: ما أبكـــي لأني لا أعلم أنّ ما عندالله خير لرسوله صلى الله عليه وآله ولكن أبكي أنّ الوحي قد انقطع من السماء، فتبكي من حولها، وكذلـــك هذا القـــول يدل على حبّها الشديد وتعلقها بالنبي صلى الله عليه وآله والوحي.

وفاتها رضوان الله تعالى عليها

اختلف فـــي تاريـــخ وفاتها فقيـــل: توفيـــت بعـــد وفـــاة رسول الله صلى الله عليه وآله بخمسة أو بستة أشهر، وقيل: توفيت بعد وفاة عمر بـــن الخطاب بعشـــرين يوماً، فـــي أول عهـــد عثمان، ودفنت في المدينـــة المنورة، بعد أن بذلت هـــذه الصحابية الصالحة أقصى ما تســـتطيع في خدمة الإسلام ورسوله صلى الله عليه وآله فرضوان الله تعالى عليها.[١٢]

* * *

وثانياً بزينب

قلت فيما ســـبق: وهذه المرة نقف عند صحابي جليل، ما إن يذكر حتى تُذكر معه امرأتان مؤمنتان صالحتان، الأولى: أمّ أيمن، التي كان لها دور متميز فـــي الدعـــوة إلـــى الله تعالى؛ وأوجزنا الحديث عنها.

فيمـــا الثانيـــة: زينـــب بنت جحش، التي شـــاءت الســـماء أن تكـــون مـــع زيد شـــريكة، ضمن مشروعها التغييري في الساحة المسلمة يومذاك.

فبعد أن وقفت عند أمّ أيمن، ها أنذا أقف عند زينب رضوان الله تعالى عليهما، ولو قليلاً، فقد كان أملي أن أفرد لأمّ المؤمنين مقالة، لما في حياتها من حدث كبير مازال حيّاً، رغم أنه تجاوز عمره ١٤٢٠ سنة هجرية؛ ولما حمله من أهمية تشريعية تغييرية خطيرة وكبيرة؛ لتُميتَ أمر التبني وآثاره.. ، وهو من التجذر في الساحة يومذاك والخطورة بدرجة ما عاد ينفع معها إلا الكلام المقرون بالفعل، وفعل من؟ فعل يتولاّه رسول الله ﷺ بنفسه؛ هذا الأمر الذي ترك وقته ضجّةً خطيرةً في الساحة، ومازال موضوعاً تتناوله خطب وأقلام من يريد النيل من الإسلام وكرامة رسوله ﷺ وقد تبعهم ضعاف الدين ومرضى القلوب، والذين ماقدروا الله حق قدره... فما عرفوا عظمته وحكمته في خلقه وتشريعاته.. وفعلاً ـ وأنا أراجع ما كتب عن الموضوع هذا، وما يحتاجه من حديث ـ رأيت من المناسب أن أفرد له مقالةً خاصة، فلعلها تفي.. مختصراً قولي هنا؛ فهي:

زينب بنت جحش بن رياب بن يعمر بن مرة بن كثير بن غنم بن دوران بن أسد بن خزيمة، كان اسمها أولاً برة، فسماها النبي ﷺ زينب؛ وتكنى بأمّ الحكم.

وأمّها أميمة بنت عبدالمطلب عمّة النبي، من أخوالها حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، الملقب بأسد الله وسيد الشهداء في غزوة أحد، والعباس بن عبدالمطلب، وخالتها صفية

بنت عبدالمطلب الهاشمية، أم الزبير بن العوام الأسدي.

ولها أخوان همـــا عبدالله بن جحش الأسدي، صاحب أول راية عقدت في الإســـلام، من شـــهداء معركة أحد، والآخر أبوأحمـــد، واســـمه عبـــد بن جحـــش الأعمـــى، وهـــو أحد السابقين ومن المهاجرين إلى المدينة.

ولدت السيدة زينب في مكة المكرمة قبل الهجرة بأكثر من ثلاثين سنة، وقيل: ولدت قبل الهجرة بسبع عشرة سنة، وقد نشأت السيدة زينب بنت جحش في بيت شرف ونسب وحسب، وهي متمسكة بنسبها، ومعتزة بشـــرف أســـرتها، وكثيراً ما كانت تفتخـــر بأصلهـــا، وقد قالت مرة: أنا سيدة أبناء عبد شمس!

إسلامها

أخلصت زينب إسلامها الذى أسرعت في اعتناقه، و هاجرت إلـــى المدينـــة المنـــورة مـــع أخواتها المهاجرات وإخوانها المهاجريـــن، الذيـــن تركـــوا كل شـــيء في مكة وهاجروا إلى يثرب، المدينـــة فيما بعد، فأكرمهم الأنصار وقاسموهم منازلهـــم وناصفوهم أموالهم وديارهم.

زينب وآيتان قرآنيتان:

ـ فبحسب أســـباب النزول، كان وقـــت نزول آية الحجاب، ـ الأحـــزاب٥٣ ـ فـــي صبيحة عـــرس رســـول الله ﷺ بزينب بنت جحش الأسدية التي تولت السماء تزويجها، في ذي القعدة من السنة الرابعة هجرية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ

بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُواْ وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَٱللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلاَ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيماً﴾.[١٣]

لما بنى رسول الله ﷺ بزينب وأولم عليها، قال أنس: أولم عليها بتمر وسويق وذبح شاة، وبعثت إليه أمي أمّ سليم بحَيْس في تور من حجارة، فأمرني رسول الله ﷺ أن أدعو أصحابه إلى الطعام؛ فدعوتهم فجعل القوم يجيئون ويأكلون ويخرجون، ثم يجيء القوم فيأكلون ويخرجون، قلت يا نبي الله قد دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه؛ فقال: «ارفعوا طعامكم» فرفعوا طعامهم وخرج القوم وبقي ثلاثة نفر يتحدثون في البيت، فأطالوا المكث؛ فقال ﷺ: وقمت معه لكي يخرجوا فمشى حتى بلغ حجرة عائشة، ثم ظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فنزلت الآية.[١٤]

- وفي قصة زواجها من زيد أولاً ومن رسول الله ﷺ ثانياً، يحكي لنا المقطع القرآني ٣٦ من سورة الأحزاب:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً﴾ * ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيۤ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ

عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لاَ يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً﴾ * ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدراً مَّقْدُوراً﴾ * ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيباً﴾ * ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً﴾.[١٥]

أموراً ذات أهمية بالغة كان هذا الصحابي الجليل محوراً فيها؛ بزواجه من زينب بنت جحش وما وقع من فراق بينهما وزواج رسول الله ﷺ بها بعد انتهاء عدة طلاقها من قبل زيد، الذي تبناه رسول الله ﷺ وما أحدث هذا المشروع من بدايته حتى نهايته من ضجة في الوسط الاجتماعي لا فقط يومذاك، بل استمر الكلام حوله حتى يومنا هذا بين مشكك ومثير للشبهة، ولا يخلو هذا الموقف من اتهام لرسول الله ﷺ وطعن؛ وهو ما نشير له بما يناسب المقالة هذه.

لما بلغ هذا الفتى أشده واستوى، رغب رسول الله ﷺ أن يزيد في تكريمه، ويبالغ في ذلك حين يزوجه بامرأة فاضلة؛ لتكون له عوناً وسنداً، فكانت ابنة عمته أميمة بنت عبدالمطلب وهي زينب بنت جحش محل اختياره ﷺ فخطبها له مكافأةً له ودليلاً

على رضـــاه عنه؛ ولكن أخاها عبـــدالله بـــن جحش لـــم يقبل في بـــادئ الأمـــر ـ كما زينب تشـــاركه رأيه وإباءه وأنفته ـ أن يكـــون زيد زوجـــاً لها؛ لنسبهما الكريم، ولأن زيداً لم يكن نسبه قد صرح أي خلص؛ ويبدو أنّ زينب بنت جحش قد قبلت أخيراً هـــذا الزواج تحت وطأة حيائها أن ترفض شفاعة رسول‌الله ﷺ أو ترغب بنفسها عن نفسه، والتزاماً منها بقوله تعالى في الآية ٣٦ من سورة الأحزاب: ﴿وَمَـا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّه وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُـمُ ٱلْخِيَرَةُ مِـنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّه وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَـلاَلاً مُّبِيناً﴾، الـــذي نزل فيها وفي أخيهـــا عبدالله بن جحش الممانـــع لهذا الـــزواج في أول الأمر..

يقول صاحب مجمع البيان: نزلـــت في زينـــب بنت جحش الأسدية، وكانت بنت أميمة بنت عبدالمطلب عمة رسول‌الله ﷺ فخطبهـــا رســـول‌الله ﷺ على مولاه زيد بـــن حارثة، ورأت أنـــه يخطبها على نفســـه، فلما علمت أنه يخطبهـــا على زيد، أبت وأنكـــرت، وقالت: أنا ابنة عمتك فلـــم أكن لأفعل، وكذلك قال أخوها عبدالله بن جحش؛ فنـــزل: ﴿وَمَـا كَانَ لِمُؤْمِـنٍ وَلاَ مُؤْمِنَـةٍ﴾ الآيـــة، يعني عبدالله بن جحش، وأخته زينب، فلما نزلـــت الآية قالـــت: رضيت يا رســـول‌الله، وجعلـــت أمرهـــا بيـــد رســـول الله ﷺ وكذلـــك أخوها، فأنكحها رسول‌الله ﷺ زيداً فدخل بها، وســـاق إليها رســـول‌الله ﷺ عشـــرة دنانير وستين درهماً مهراً، وخماراً،

وملحفةً، ودرعاً، وإزاراً، وخمسين مداً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر؛ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وقالت زينب: خطبني عدة من قريش، فبعثت أختي حمنة بنت جحش إلى رسول الله ﷺ أستشيره، فأشار بزيد، فغضبت أختي وقالت: تزوج بنت عمتك مولاك ثم أعلمتني، فغضبت أشد من غضبها، فنزلت الآية، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ وقلت: زوّجني ممن شئت، فزوَّجني من زيد.[١٦]

فكان هذا قضاء الله تعالى رضي به أخوها عبدالله وخضعت له زينب، ولعل كلاً من زيد وزينب يكونان زوجين هانئين، ويسعدان بزواج ولو إلى حين، إلا أنّ هذه الحياة قد تعثرت، ووهنت العلاقة بينهما، وفترت حتى انتهت بفراقهما.. إنها إرادة السماء شاءت أن تسير الأمور هكذا إبطالاً لشريعة أو تقليد تعارفوا عليه، وإنهاءً لأوهام عشعشت في أوساطهم، وسنّاً لشريعة، وتوضيحاً لحكم كانت الأمة بحاجة إليه، و لِحِكَم تكفّل القرآن العزيز الحديث عنها؛ فخلّد ذكر هذا الزواج وما ترتب عليه في الكتاب العزيز، ولاننسى أيضاً أنه الزواج الوحيد الذي ذكره القرآن الكريم، فقد زوجت زينب من زيد بآية قرآنية، وبعده زوجت من نبي الرحمة محمد ﷺ بآية قرآنية أخرى، مما جعل زينب تفتخر، وحق لها أن تفتخر على سائر نساء النبي ﷺ وتقول: زوجني الله من النبي ﷺ وأنتنّ

إنما زوجكنّ أولياؤكنّ !

وفي رواية أنها قالت للنبي صلى الله عليه وآله: إنـــي لأدل عليك بثلاث ما من نســـائك امرأة تدل بهن: جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله في الســـماء، وأنّ الســـفير لي جبرائيل عليه السلام.

لقد حمل هذا المقطع القرآني قصة هذا الـــزواج بين زيد بن حارثـــة بدايةً ونهايـــةً، مجيباً وموضحـــاً، خصوصـــاً وقد ذهب الذين في قلوبهم مرض يرجفون المدينة: كيف يتزوّج محمد مطلقة ابنه زيد؟

فأجابهم القـــرآن مفرّقا بين الأدعياء والأبنـــاء.. بين التبني والبنّوة، ومقـــرراً إلغاء عادة التبني، ومعلناً: ﴿مَـا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾.[17] الذين لم يلدهم، وفي هذا بيان أنه ليس بأب لزيد فتحرم عليه زوجته، فإنّ تحريم زوجة الابن معلق بثبوت النســـب، فمن لا نسب له لا حرمـــة لامرأتـــه؛ ولهذا أشـــار إليهم فقال من رجالكم وقد ولد صلى الله عليه وآله له أولاد ذكور ... ﴿وَلَكِـن رَّسُـولَ اللَّهِ﴾ أي ولكن رسول الله لا يترك ما أباحه الله تعالى بقول الجهال.[18]

لقـــد صـــار هـــذا موضوعاً تناولتـــه الأقـــلام المخلصـــة لدينهـــا مبينـــةً وموضحةً له، وراحت ترد شـــبهات أثارتها نفوس معادية، وأخرى ضعف إيمانها أو قـــل علمها؛ رددتها وقد تكون تأثرت بها بشـــكل أو بآخـــر... إنهـــا قصـــة لم تنجو من تســـاؤلات وشبهات أثيرت من هنـــا وهناك متخذةً من الإســـرائيليات والأحاديث الموضوعـــة أساســـاً لهـــا، والمؤســـف المؤلـــم أنّ هناك

بعض المفسرين ذكروا روايات أقل ما يقال فيها إنها ضعيفة تحت عنوان سبب النزول، وقد حملت هذه الأخبار والأحاديث المختلقة إساءات واضحة للنبي ﷺ ولطهارته ولخلقه الكريم الذي وصفته السماء: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.[١٩]

ولسيرته الشريفة التي شهدت بها الآيات والروايات والمواقف العديدة؛ ولم أقف على مبرر معقول لهم في ذكر مثل هذه الأسباب المؤسسة على خبر ضعيف، ورواية أضعف، وخبر موضوع، ورواية مختلقة، تجد اليد الإسرائيلية أو المعادية

والمغرضة واضحة فيها.

وأكتفي هنا أولاً بذكر ما روي عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام قال: «أعلم الله نبيه صلى الله عليه وآله أنّ زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها وقال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك؛ قال الله: قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه».

وثانياً بما ذكره العلامة السيد الطباطبائي في الميزان:

عن العيون في باب مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون مع أصحاب الملل في حديث يجيب فيه عن مسألة علي بن الجهم في عصمة الأنبياء.

قال: وأما محمد صلى الله عليه وآله وقول الله عزّوجلّ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ فإنّ الله عزّوجلّ عرَّف نبيه صلى الله عليه وآله أسماء أزواجه في دار الدنيا، وأسماء أزواجه في الآخرة، وأنهن أُمهات المؤمنين، وإحدى من سميت له زينب بنت جحش، وهي يومئذ تحت زيد بن حارثة، فأخفى صلى الله عليه وآله اسمها في نفسه ولم يبده، لكيلا يقول أحد من المنافقين: إنه قال في امرأة في بيت رجل: أنها أحد أزواجه من أُمّهات المؤمنين وخشي قول المنافقين.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ يعني في نفسك الحديث.

أقول: وروي ما يقرب منه فيه عنه عليه السلام في جواب مسألة المأمون عنه في عصمة الأنبياء.

وفي المجمع في قوله تعالى:

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللّٰهُ مُبْدِيهِ﴾ قيل: إنّ الذي أخفاه في نفسه هو أنّ الله سبحانه أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأنّ زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد وقال له: أُريد أن أُطلق زينب؛ قال صلى الله عليه وآله له: «أمسك عليك زوجك، فقال سبحانه: لم قلت: أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك»؟

وروي ذلك عن علي بن الحسين عليه السلام.[٢٠]

وثالثاً بما قاله الخازن في تفسير آية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللّٰهُ مُبْدِيهِ﴾ وأصح ما في هذا الباب ما روي عن سفيان بن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان قال: سألني زين العابدين علي بن الحسين، قال: ما يقول الحسن في قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللّٰهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾؟

قلت: يقول: لما جاء زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال يا رسول الله إني أريد أن أطلق زينب؛ أعجبه ذلك، وقال أمسك عليك زوجك واتق الله، فقال علي بن الحسين عليه السلام: «ليس كذلك، فإنّ الله عزّوجل، قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأنّ زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد قال: إني أريد أن أطلقها قال له: أمسك عليك زوجك، فعاتبه الله تعالى، وقال: لِمَ قلت أمسك عليك زوجك، وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك»؟

وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء وهو مطابق للتلاوة، لأنّ الله تعالى أعلم أنه يبدي ويظهر ما أخفاه، ولم يظهر غير تزويجها منه فقال تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ فلو كان

الــذي أضمره رســول الله ﷺ محبتهــا أو إرادة طلاقها لكان يظهــر ذلك؛ لأنــه لا يجوز أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه ولا يظهره، فدل على أنه إنما عوتب علــى إخفاء ما أعلمــه الله أنها ســتكون زوجته وإنما أخفى ذلك اســتحياء أن يخبر زيداً أنّ التــي تحتك وفــي نكاحك ســتكون زوجتي، وهذا قول حسن مرضي، وكم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحي مــن اطلاع النــاس عليه، وهو في نفسه مباح متسع، وحلال مطلــق لا مقال فيــه، ولا عيب عندالله، وربما كان الدخول في ذلك المباح سلماً إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين، هو إنما جعل الله طلاق زيد لها، وتزويــج النبي ﷺ إياها لإزالة حرمة التبني وإبطال ســنته، كما قال الله تعالى.[٢١]

وكان حســناً مــا قالــه ابن كثير في تفســيره عنــد قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيــهِ﴾ ذكر ابــن حاتم وابن جرير هنــا آثاراً مــن بعض السلف رضي الله عنهم أحببنا أن نضــرب عنها صفحاً لعدم صحتها...

وياليت غيره قد حذى حذوه لإماتة مثل هذه الآثار.

وقــال ابــن حجر عــن هذه الروايات: لا ينبغي التشــاغل بها.

فإضافــةً إلــى مــا ورد في ترجمــة وهــب بــن منبــه، والحســن البصــري، وأقوال بعض علمــاء الرجال القادحة فيهمــا، فــإنّ كليهمــا كانا قد ولدا بعد رسول الله ﷺ بأعوام، فكيف يرويــان عمّا حدث في

عصر رسول الله صلى الله عليه وآله ويرسلانه إرسالاً ولم يذكرا المصدر؟!

ومحور ما جاء به وهب والحسن البصري: أنّ الرسول صلى الله عليه وآله أعجبه جمال زينب عندما رآها بغتةً بلا حجاب، ورغب في طلاق زيد إيّاها، وأخفى ذلك في نفسه.[٢٢]

وبيان زيف ذلك: أنّ زينب كانت ابنة عمّة النبي صلى الله عليه وآله وليست بعيدةً عليه، وكان قد رآها قبل أن يزوّجها من زيد مراراً وتكراراً، و نزل حكم الحجاب بعد زواج الرسول صلى الله عليه وآله بزينب، وقد افترى على الرسول صلى الله عليه وآله من قال ذلك.

وكل الأمر أنه بعد الهجرة إلى المدينة خطب زينب ابنة أميمة ابنة عبدالمطّلب عدّة من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله فأرسلت أخاها إلى النبي صلى الله عليه وآله تستشيره في أمرها، فقال: فأين هي ممّن يعلّمها كتاب ربّها وسنّة نبيّها؟ فسألت: من هو؟ فقال: زيد!

فغضبت، وقالت: تزوّج ابنة عمّتك مولاك! لست بناكحته! أنا خير منه حسباً! أنا أيِّم قومِي، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللّه وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً﴾.[٢٣]

فرضيت، فزوّجها الرسول صلى الله عليه وآله من زيد بعد أمّ أيمن السوداء الحبشيّة، ولها أُسامة بن زيد، فكانت تعلو على زيد، وتشتدّ وتأخذه بلسانها، فكان يشكوها إلى الرسول صلى الله عليه وآله ويحاول تطليقها.

زينب أمّ المؤمنين

واقتضت مشيئة الله وحكمته،

أن يتزوّجها الرسول صلى الله عليه وآله بعد زيد، فغدت أمّاً للمؤمنين، وليُلغى بذلك التبنّي بين المسلمين، وأشعره الوحي بذلك، فخشي الرسول صلى الله عليه وآله أن يقول الناس: تزوّج حليلة ابنه، فكتم الوحي في نفسه وقال لزيد: إتّق الله وأمسك عليك زوجك، ولمّا ضاق زيد ذرعاً بزوجته زينب، طلّقها وانقضت عدّتها، فنزلت الآيات على الرسول صلى الله عليه وآله مرّة واحدة تخبر عمّا وقع، وتبيّن حكم المتبنّي في شريعة الإسلام:

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ... * ... مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ...﴾.[٢٤]

زيد كان سبباً من أسباب ذكرت لنزول هذه الآية.

وقال عزّ اسمه لسائر المؤمنين: ﴿مَا جَعَلَ اللّه لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَ مَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللّه يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * أُدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ...﴾.[٢٥]

ـ ما قاله عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الزهري في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللّه لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ قال: بلغنا أنّ ذلك كان في زيد بن حارثة، ضرب له مثل يقول: ليس ابن رجل آخر ابنك، .كذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد: أنها نزلت في زيد بن حارثة

رضي الله عنه.

ـ وكذا ورد في مجمع البيان: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ...﴾ الأدعياء جمع الدعي وهو الذي يتبنّاه الإنسان، بيّن سبحانه أنه ليس بابن على الحقيقة؛ ثم يقول: ونزلت في زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي من بني عبد ود ، تبنّاه النبي صلى الله عليه وآله قبل الوحي، وكان قد وقع عليه السبي، فاشتراه رسول الله صلى الله عليه وآله بسوق عكاظ، فلما نبئ رسول الله صلى الله عليه وآله دعاه إلى الإسلام، فأسلم فقدم أبو حارثة مكة وأتى أباطالب وقال: سل ابن أخيك، فإما أن يبيعه وإما أن يعتقه، فلما قال ذلك أبوطالب لرسول الله صلى الله عليه وآله قال هو حرّ فليذهب حيث شاء، فأبى زيد أن يفارق رسول الله صلى الله عليه وآله فقال حارثة: يا معشر قريش اشهدوا أنه ليس ابني؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : «اشهدوا أنه ابني» يعني زيداً، فكان يدعى زيد بن محمد، فلما تزوج النبي صلى الله عليه وآله زينب بنت جحش، فكانت تحت زيد بن حارثة، قالت اليهود والمنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عنها؛ فقال الله سبحانه: ما جعل الله من تدعونه ولداً وهو ثابت النسب من غيركم ولداً لكم.

ـ وروى سالم عن ابن عمر قال: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، حتى نزل في القرآن: ﴿أُدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّٰهِ﴾.[٢٦]

وهناك منافع:

لقد أثمرت هذه القصة عن منافع كبيرة، تركت بصماتها

على الساحة المؤمنة وهي:

أولاً: ألغاء التبني بعد أن استحكم في واقعهم، وتجذر في نفوسهم، وكان العرب يعتقدون أنّ آثار التبني هو نفس آثار البنوة الحقيقية، أي كالإبن الحقيقي تماماً من دون فرق، وتجري عليه حقوقه في الميراث، وحرمة زوجته على من تبناه.

ثانياً: زواج بنات الأشراف من الموالي، بعد أن كان أمراً كبيراً وعسيراً، حتى إذا اعتقوا وحرروا؛ فكان زيد وبأمر من الله تعالى، أول عتيق يتزوج بعربية في الصميم من قريش، فيفتح بهذا باباً كان موصداً أمام إخوانه؛ وأن تكون زينب باستجابتها أخيراً أول شريفة تقضي على هذه العادة؛ لتنطلق بنات الأشراف للزواج من الموالي.

ثالثاً: اقتضت السماء أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله - وهو الأول سيداً وشرفاً وسيرةً وفضلاً و.. - هو بنفسه الذي يبطل عادةً تأصلت فيهم: حرمة زوجة الابن المتبنى على من تبناه، فيتزوج المتبنون ويقترنوا بأزواج أدعيائهم؛ وقد أشار القرآن الكريم إلى علة التزويج في الآية الشريفة: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهَا وَطَراً﴾.. وبنزول: ﴿أُدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ...﴾ وبتزوج رسول الله صلى الله عليه وآله امرأة زيد الذي تبناه من قبل، انتهت عملياً آثار مشروع التبني في الواقع الإسلامي، والساحة المؤمنة، ولم يعد له

أثر كالتوارث، وحرمة زواج المتبني بامرأة من تبناه بعد انفصالهما وانتهاء عدتها، وبالتالي فهو أي المتبنى ليست أحكامه كأحكام الولد الصلبي.

رابعاً: بيان رسول الله ﷺ لتبني مشروعاً كبيراً في حياتهم الاجتماعية، وبناء علاقات جديدة بعد أن أطاحت بعادات لا يمكن القضاء عليها بكلمات، دون أن تكون مقترنة بأفعال مؤثرة، ولم يكن هناك

الواضح: «فأين هي ممّن يعلّمها كتاب ربّها وسنّة نبيّها»؟ وهو أمر عظيم ينبغي للمسلمين الالتفات إليه والاعتناء به في مثل مشروع الزواج.

وهذه الحكم حملتها الآيات

مجال لقلع تلك المفاهيم الخاطئة إلا بالإقدام على عمل أساسي لا مجال للريب ولا للتأويل فيه؛ فكان زواج زيد من زينب أولاً ثم انفصالهما، ليتم زواج النبي ﷺ من زوجة ابنه بالتبني

هو الوسيلة الفضلى لقلع هذا المفهوم الخاطئ من أذهانهم، ولكي يُسقط وإلى الأبد عادة مستحكمةً لا تشتث بكلمات؛ وأخيراً كل هذا حدث لضرورة اقتضاها التشريع السماوي وكفى به دليلاً على طهارة هذا الزواج وحكمته العالية، وما يترتب عليه من فوائد جمة لحاضر ومستقبل اجتماعي في الساحة المؤمنة.. نكتفي بهذا القدر آمل أن أواصل الكلام بتفصيل مناسب حول هذا الموضوع والآثار كما قلت في مقالة قادمة بإذنه تعالى عن حياة أمّ المؤمنين زينب رضوان الله تعالى عليها.

مما قيل فيها:

ووردت فيها أقوال، نكتفي منها بما قالته عائشة: ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم أمانة وصدقة.

وفاتها:

توفيت أمّ المؤمنين زينب رضوان الله تعالى عليها التي كانت تعرف بأنها أمّ المساكين في سنة عشرين هجرية، وهي بنت خمسين؛ وقيل: إنها عاشت ثلاثاً وخمسين سنة، ودفنت بالبقيع في المدينة المنورة.[٢٧]

الزواج الثالث: تزوج زيد بأمّ كلثوم بنت عقبة، وقد جاء في تفسير مجمع البيان أنّ الآية ٣٦ من الأحزاب، نزلت في أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله فقال: «قد قبلت» وزوَّجها زيد بن حارثة، فسخطت هي

وأخوهـا وقـالا: إنمـا أردنا رسـول الله ﷺ فزوَّجنـا عبده فنزلت الآية؛ عن ابن زيد.[٢٨]

* * *

حبه للإنفاق

عـرف زيد بأنـه كان محباً للأنفاق وكان سباقاً إليه، حتى ورد التالي:

لما نزلـت هذه الآيـة: ﴿لَنْ تَنَالُـوا الْبِرَّ حَتَّـى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.[٢٩]

قال زيـد بن حارثـة مولى رسـول الله ﷺ: أللهـم، إنـك تعلم أنه ليس مـال أحب إليّ من فرسـي هذه، فتصدق بها للمسـاكين، فأقاموهـا للبيع، وكانـت تعجـب زيـداً، فأتى رسـول الله ﷺ فقال: اشتريها؟ فنهاه أن يشتريها.

وفي رواية أخرى: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَـنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُـوا مِمَّـا تُحِبُّـونَ﴾ جاء زيد بفرس له، فقال: تصدق بهذا يا رسول الله، فأعطاه رسول الله ﷺ ابنه أسامة بن زيد بن حارثة، فقال: يا رسول الله! إنما أردت أن أتصدق به، فقال رسول الله ﷺ: «قد قبلت صدقتك».

وختاماً وقع شهيداً!

(مؤتـة) ممـا مثّلتـه هـذه المعركة، مفاهيم رفيعة تجلّت في سـمائها، بعيداً عن التمايز الباطـل، وإقـراراً لدين جديد يلغـي كل الأحكام الفاسـدة وتقاليد التعالي والإلغاء، وبعيداً عن التعصب والنظرات الدونية للآخر بسبب الغنى أو الحسب والنسب أو اللون، احتل زيد بن حارثة الإمارة الأولى للجيش الزاحف إلى أرض البلقاء إلى

جيش الروم، فيما احتل جعفر بن أبي طالب الهاشمي القرشي الإمارة الثانية، وكانت الإمارة الثالثة من نصيب عبدالله بن رواحة الأنصاري الخزرجي رضي الله عنهم.

إنه أمر رسول الله ﷺ حين وقف يودع جيشه: «عليكم زيد بن حارثة.. فإن أصيب زيد، فجعفر بن أبي طالب.. فإن أصيب جعفر، فعبدالله بن رواحة» على الرغم من فضلهما وشجاعتهما وجسارتهما، وحسبهما ونسبهما، فقد جعلهما رسول الله ﷺ الأميرين التاليين لزيد بن حارثة، وجعلهما تحت إمرته مادام حياً، فإن استشهد يأتي دور جعفر، فعبدالله بن رواحة! إنها روح الإسلام ونظراته الإنسانية، بعيداً عن اللون والجنس والأصل.

ففي جمادى الأولى من العام الثامن الهجري، خرج جيش الإسلام إلى الشام، حتى إذا بلغوا تخوم البلقاء، لقيتهم جيوش هرقل من الروم، ومن القبائل المستعربة التي كانت تقطن الحدود... ونزل جيش الروم في مكان يسمى (مشارف) فيما نزل المسلمون بجوار بلدة تسمى (مؤتة)، ومن هنا سميت الغزوة باسمها.

وكان رسول الله ﷺ يدرك أهمية هذه الغزوة وخطرها، فاختار لها أولئك الثلاثة، وهم من رهبان الليل، فرسان النهار، ثلاثة من الذين آلوا على أن يقدموا أنفسهم بنية خالصة لله تعالى، فلم يعد لهم مطمع ولا أمنية إلا في استشهاد عظيم يصافحون به

رضوان الله تعالى، ويطالعون به وجهه الكريم هناك في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

يصف الدكتور السيد الجميلي ما جرى داخل ميدان المعركة: وفي غزوة مؤتة يواجه المسلمون فرسان الروم بأعداد كثيرة لا تحصى، تملأ السهل والجبل، ويستشرف المسلمون عدوهم المدجج بالسلاح، مسلحين باليقين، وتقابل الجمعان والتحم الفريقان، وسقط " زيد بن حارثة " أمير جيش المسلمين، فاستلم مكانه "جعفر بن أبي طالب" وسرعان ما سعت إليه الشهادة وعوجل إلى ربه، فكان عبدالله بن رواحة ثالث الأمراء الذين تولوا إمرة جيش المسلمين، فضربوا أجناد هرقل من الروم، وأخذ يصول ويجول في أحشائهم حتى أدركته الشهادة، وما هي إلا لحظات حتى يتناهى خبر الشهداء الثلاثة إلى رسول الله ﷺ وما قدموه من بطولات وفدائية، فترحم عليهم واستغفر لهم، ثم أطرق قليلاً ثم قال: «لقد رفعوا إليَّ في الجنة!».[٣٠]

نعم، استشهد زيد بن حارثة في غزوة مؤتة، وراية الإسلام عاليةً في يده، فتناولها جعفر بن عبدالمطلب، ومن بعده عبدالله بن رواحة؛ تناوبوا على حملها خفاقةً حتى آثروا الآخرة وعوجلوا إليها، فسلام عليهم مع الأطهار من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

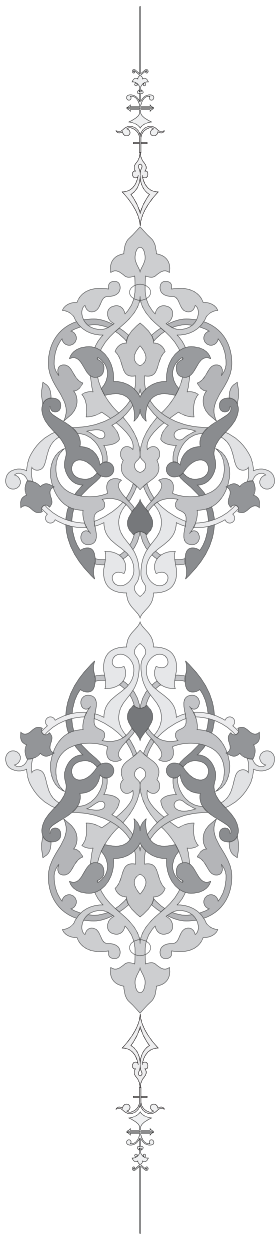

ومما جاء في رثائهم:

الشاعر حسان بن ثابت:

عيــن جــودي بدمعــك المنزور
واذكــري في الرخاء أهــل القبور
واذكــري مؤتــة ومــا كان فيها
يــوم راحوا فــي وقعــة التغوير
حيــن راحوا وغــادروا ثــم زيداً
نعم مــأوى الضريك والمأســور
حــب خيــر الأنــام طــراً جميعاً
ســيد النــاس جبه فــي الصدور
ذاكــم أحمــد الــذي لا ســواه
ذاك حزنــي لــه معاً وســروري
إن زيــداً قــد كان منــا بأمــر
ليــس أمــر المكــذب المغــرور
قــد أتانــا مــن قتلهــم مــا كفانا
فبحــزن نبيــت غيــر ســرور

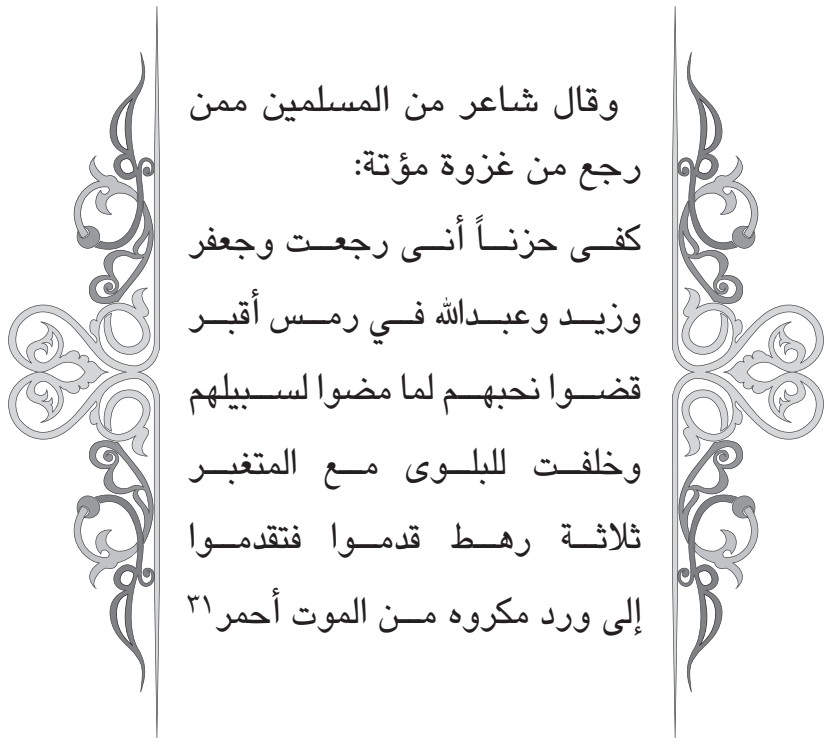

وقال شاعر من المسلمين ممن رجع من غزوة مؤتة:

كفى حزناً أنى رجعت وجعفر
وزيد وعبدالله في رمس أقبر
قضوا نحبهم لما مضوا لسبيلهم
وخلفت للبلوى مع المتغبر
ثلاثة رهط قدموا فتقدموا
إلى ورد مكروه من الموت أحمر[٣١]

الهوامش

١. الأحزاب : ٣٧.
٢. الطبقات الكبرى، لابن سعد ٤ : ٧٠ ، خلاصة روايتين بهذا الخصوص.
٣. أنظر مختصر تاريخ دمشق ٩ : ١٢٢ رقم ٥٦.
٤. أسد الغابة ٢ : ٢٢٤ ـ ٢٢٧.
٥. مختصر تاريخ دمشق ٩ : ١٢٧ وغيره.
٦. سورة الأحزاب :٥ .
٧. أنظر سيرة ابن هشام ١ : ٢٤٨ ؛ وكتاب صحابة النبي صلى الله عليه وآله للجميلي ؛ والقرطبي في تفسيره للآية.
٨ . حلية الأولياء، للحافظ أبي نعيم الأصفهاني ٢ : ٦٧ـ ٦٨.
٩ . كتاب الاحتجاج، للطبرسي.
١٠. حلية الأولياء، للحافظ أبي نعيم الأصفهاني ٢ : ٦٧ وغيره
١١. أنظر سنن النسائي ٤ :١٢ ؛ والمستدرك ٤ :٧٠؛ حلية الأولياء ٢: ٦٧.
١٢. أنظر ترجمتها في أُسد الغابة ٧ : ٣٠٣؛ والاستيعاب : ٧٦٥ رقم الترجمة: ٢ ؛ والاصابة ٤ : ٤١٥-٤١٧ الترجمة رقم: ١١٤٥؛ مستدرك الحاكم ٤ : ٧١ وعند ابن كثير.
١٣ . الأحزاب ٥٣.
١٤. أنظر التفاسير، ومنها مجمع البيان؛ وأسباب النزول، للواحدي.
١٥. الأحزاب : ٣٦ ـ ٤٠.
١٦. مجمع البيان، للطبرسي، الآية.
١٧. الأحزاب : ٤٠.
١٨. مجمع البيان، للطبرسي، الآية.
١٩. القلم: ٤.
٢٠. أنظر تفسير الميزان، السورة والآية.
٢١. أنظر تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن.
٢٢. أنظر تفسير الطبري ٢٢: ١٠ـ١١ ط. دار المعرفة، بيروت.
٢٣. الأحزاب : ٣٦.
٢٤. الأحزاب : ٣٦ ـ ٤٠.
٢٥. الأحزاب : ٤ ـ ٥.
٢٦. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ؛ مجمع البيان، للطبرسي.
٢٧. مختصر تاريخ دمشق.
٢٨. مجمع البيان، للطبرسي، الآية.
٢٩. آل عمران : ٩٢.
٣٠. أنظر كتاب صحابة النبي صلى الله عليه وآله : ٢٦٤.
٣١. أنظر كتاب صحابة النبي صلى الله عليه وآله : ٢٦٤؛ مجلة ميقات الحج العدد : ٦ و ١٧ ؛ السيرة النبوية، لابن هشام ٤ : ٢٩ـ٣٠.

حكم صلاة الطواف خلف المقام حيث ما كان

علي عندليب

من المسائل التي شغلت فكري ـ ولم أر من تعرّض لها ـ مسألة تحويل مقام إبراهيم عليه السلام من موضعه إلى مكان آخر، وإقامة صلاة الطواف خلفه في المكان الذي حوّل إليه، فإنّه لو جاز ذلك تكليفاً، وصحّ صلاة الطواف في ذلك الموضع، لارتفعت مشكلة صلاة الطواف خلف المقام.

وحيث كان الكلام في مقامين:

١ـ جواز تحويل المقام من موضعه الفعلي.

٢ـ صحّة إقامة صلاة الطواف خلفه في ذلك المكان.

لابدّ من تقديم اُمور:

الأول: حقيقة مقام إبراهيم عليه السلام:

إنّ المستفاد من الروايات هو أنّ مقام إبراهيم هو الصخرة التي عليها أثر قدميه عليه السلام وإليك تفاصيل الروايات:

١ـ محمّد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن الحسن بن محبوب، عن ابن سنان قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾.[١] ما هذه الآيات البينات؟ قال: مقام إبراهيم حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماه والحجر الأسود ومنزل إسماعيل عليه السلام.[٢]

٢ـ محمّد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن سعد بن عبدالله، عن أحمد وعلي ابني الحسن بن علي بن فضال، عن عمرو بن سعيد المدائني، عن موسى بن قيس ابن أخي عمار

بن موسى الساباطي، عن مصدق بن صدقة، عن عمار بن موسى، عن أبي عبدالله عليه السلام أو عن عمار، عن سليمان بن خالد، عن أبي عبدالله عليه السلام

بحيال الموضع الذي هو فيه اليوم، ثم قام عليه فنادى بأعلى صوته بما أمره الله تعالى به، فلمّا تكلّم بالكلام لم يحتمله الحجر فغرقت رجلاه فيه، فقلع

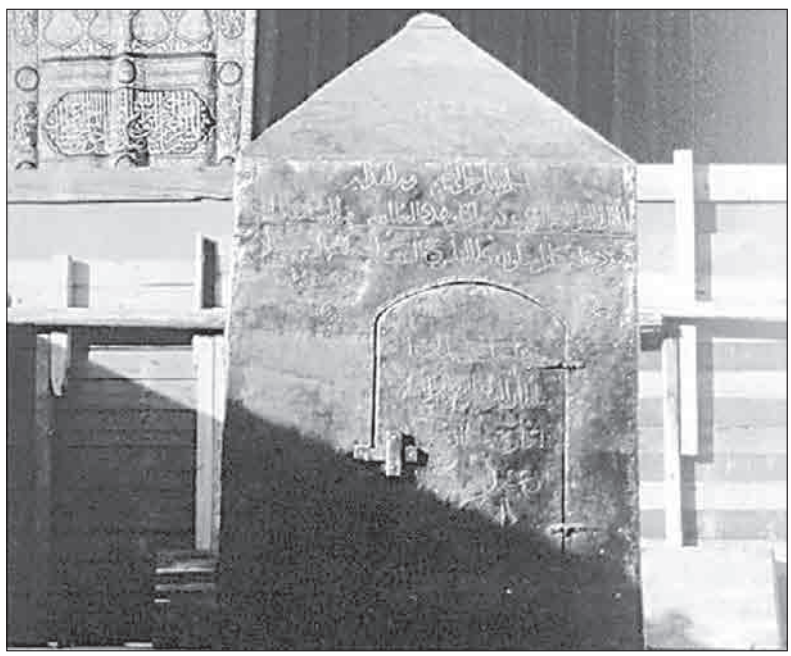

قال: «لما أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن أذّن في الناس بالحج، أخذ الحجر الذي فيه أثر قدميه وهو المقام، فوضعه بحذاء البيت لاصقاً بالبيت

إبراهيم عليه السلام رجليه من الحجر قلعاً...».[٣]

٣ـ محمّد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن سعد بن عبدالله، عن أحمد وعلي ابني الحسن

بن علي بن فضال، عن أبيهما، عن غالب بن عثمان، عن رجل من أصحابنا، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ الله عزّوجلّ لمّا أمر إبراهيم عليه السلام ينادي في الناس بالحج قام على المقام، فارتفع به حتى صار بإزاء أبي قبيس، فنادى في الناس بالحج، فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى أن تقوم الساعة».[٤]

هذا كلّه مضافاً إلى الروايات الواردة في تحويل المقام من موضعه الّذي كان في زمن الرسول صلى الله عليه وآله إلى الموضع الفعلي، فإنّها تدلّ على أنّ المقام كان شيئاً يقبل النقل والتحويل لا المكان الخاصّ من المسجد الحرام، فانّه غير قابل للتحويل والنقل، وحيث إنّ المشهور والمعروف بين المسلمين هو أنّ المقام هو الصخرة التي أثرت فيها قدما إبراهيم عليه السلام فالروايات الحاكية عن تحويل المقام تنطبق على الصخرة المذكورة.

وامّا ما رواه ابن إدريس من مسائل داود الصرمي من أنّه قال: وسألته عن الصلاة بمكة في أي موضع أفضل؟ فقال: عند مقام إبراهيم الأول، فإنّه مقام إبراهيم وإسماعيل ومحمّد «صلى الله عليهم».[٥]

فالجواب عنه أوّلاً: إنّ الرواية ضعيفة، لاشتمال طريق ابن إدريس إلى المسائل على أبي المفضّل محمّد بن عبدالله الّذي ضعّفه جماعة من الأصحاب،[٦] ومحمّد بن جعفر ابن بطّة الذي ضعّفه ابن الوليد.[٧]

وثانياً: إنّ التعبير بالأول في قوله عليه السلام «عند مقام إبراهيم

الأول» يشـــعر بل يدلّ على أنّ مقام إبراهيم عليه السلام متعدّد، فيكون الموضع الفعلي المقام الثاني، وحيث لـــم يقم إبراهيم عليه السلام في هـــذا الموضـــع، فالمـــراد من المقـــام فـــي الروايـــة موضع المقام، لانفسه، فلامنافاة بينها وبين الروايات المتقدّمة.

إلاّ أن يقـــال: إنّ دعوى عدم قيـــام إبراهيم عليه السلام في الموضع الثاني دعـــوى بلا دليل، ولعلّه قام فـــي هذا الموضـــع أيضاً كقيامـــه في الموضـــع الأول، أو إنّ التعبيـــر بالأول في قبال قـــول الذين قالوا بـــأنّ المقام هو الموضـــع الذي يصلّى فيه اليـــوم، ردّاً لهم بـــأنّ إبراهيم وإســـماعيل ومحمّد«صلّى الله عليهـــم» قاموا فـــي الموضع الأول فحسب.

الثاني: تحويل المقام

من حوّل المقام من الموضع الذي وضعه رسول‌الله صلى الله عليه وآله فيه إلى الموضع الفعلي؟

فقد وردت روايـــات عديدة في تحويل المقام عن موضعه الأصلي إلى حيث هو الساعة، وقد صرّح بعضها بأنّ عمربن الخطـــاب حوّله مـــن موضعه إلـــى الموضع الفعلـــي، وإليك تفاصيل الروايات:

١ـ محمّـــد بن يعقـــوب، عن محمد بـــن يحيى، عـــن أحمد بن محمد، عن ابن فضال، عن ابن بكير، عن زرارة قال: قلت لأبـــى جعفر عليه السلام : قـــد أدركت الحســـين عليه السلام؟ قال: «نعم أذكر وأنا معه في المســـجد الحرام، وقد دخل فيه الســـيل، والناس يقومـــون على المقـــام، يخرج الخـــارج يقـــول: قـــد ذهب به

السيل، ويخرج منه الخارج، فيقول: هو مكانه، قال: فقال لى: يا فلان ما صنع هؤلاء؟ فقلت: أصلحك الله يخافون أن يكون السيل قد ذهب بالمقام، فقال: ناد أنّ الله تعالى قد جعله علماً لم يكن ليذهب به فاستقروا، وكان موضع المقام الذى وضعه إبراهيم عليه السلام عند جدار البيت، فلم يزل هناك حتى حوّله أهل الجاهلية إلى المكان الذي هو فيه اليوم، فلمّا فتح النبىّ صلى الله عليه وآله مكة ردّه إلى الموضع الذي وضعه إبراهيم عليه السلام، فلم يزل هناك إلى أن ولي عمر بن الخطاب، فسأل الناس من منكم يعرف المكان الذى كان فيه المقام؟ فقال رجل: أنا قد كنت أخذت مقداره بنسع، فهو عندى، فقال: ائتنى به، فأتاه به فقاسه ثمّ ردّه إلى ذلك المكان».[8]

ورواه الصدوق بإسناده عن زرارة بن أعين.[9]

٢ـ محمّد بن علي بن الحسين عن أبيه، عن سعد بن عبدالله، عن أحمد وعلي ابني الحسن بن علي بن فضال، عن عمروبن سعيد المدائني، عن موسى بن قيس ابن أخي عمار بن موسى الساباطي، عن مصدق بن صدقة، عن عمار بن موسى، عن أبى عبدالله عليه السلام أو عن عمار، عن سليمان بن خالد، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «لمّا أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن أذّن في الناس بالحج أخذ الحجر الذي فيه أثر قدميه وهو المقام، فوضعه بحذاء البيت لاصقاً بالبيت بحيال الموضع الذى هو فيه اليوم، ثم قام عليه فنادى بأعلى

صوته بمـــا أمره الله تعالى به، فلمّا تكلّم بالـــكلام لم يحتمله الحجر فغرقت رجلاه فيه، فقلع إبراهيـــم عليه السلام رجليه من الحجر قلعاً، فلمّا كثر الناس، وصاروا إلى الشـــرّ والبـــلاء، ازدحموا عليه، فرأوا أن يضعوه في هذا الموضع الذي هـــو فيه اليوم، ليخلـــو المطاف لمـــن يطوف بالبيـــت، فلمّا بعـــث الله تعالى محمّـــداً صلى الله عليه وآله ردّه إلى الموضع الذي وضعه فيـــه إبراهيم عليه السلام فمـــا زال فيـــه حتـــى قبـــض رســـول الله صلى الله عليه وآله وفي زمن أبي بكـــر وأوّل ولاية عمر، ثم قال عمر: قد ازدحم الناس على هذا المقام فأيّكـــم يعرف موضعه في الجاهلية؟ فقال له رجل: أنا أخذت قدره بقدر، قال: والقدر عندك؟ قال: نعم، قال: فائت به، فجاء به فأمـــر بالمقام فحمل وردّ إلى الموضع الذي هو فيه الساعة».[١٠]

٣ـ محمد بن الحسن الطوسي بإســـناده، عن محمد بن علي بن محبوب، عن الحســـن بن علي، عن جعفر بن محمد، عن عبدالله بـــن ميمون، عن جعفر عن أبيـــه عليهما السلام قال: «كان المقام لازقاً بالبيت، فحوّله عمر».[١١]

٤ـ محمّـــد بن يعقـــوب، عن علي بـــن إبراهيم، عـــن أبيه، عـــن حماد بـــن عيســـى، عن إبراهيم بن عثمان، عن ســـليم بن قيس الهلالـــي قال: خطب أمير المؤمنيـــن عليه السلام فحمـــد الله وأثنـــى عليـــه ثم صلّـــى على النبي صلى الله عليه وآله ثم قال: «ألا إنّ أخوف ما أخاف عليكـــم خلتان: اتباع الهوى وطول الأمل... ثم أقبل بوجهه وحولـــه ناس من أهل بيته وخاصته وشـــيعته فقال:

قــد عملت الولاة قبلــي أعمالاً خالفــوا فيها رســول الله صلى الله عليه وآله متعمّديــن لخلافــه، ناقضين لعهــده، مغيرين لســنته، ولو حملــت النــاس علــى تركها وحوّلتهــا إلى مواضعها وإلى ما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لتفرق عنــي جندي حتى أبقى وحدي، أو قليل من شــيعتي الذين عرفــوا فضلي، وفرض إمامتي مــن كتاب الله عزّوجلّ وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، أرأيتم لو أمرت بمقام إبراهيم عليه السلام فرددته إلى الموضع الذي وضعه فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ورددت فدك إلى ورثة فاطمة عليها السلام ... إذاً لتفرقوا عني والله».[١٢]

٥ـ محمّــد بن يعقــوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمــد، عن إبراهيــم بن أبي محمود قــال: قلت للرضا عليه السلام: أصلي ركعتي طواف الفريضة خلف المقام حيث هو الســاعة أو حيــث كان علــى عهــد رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: «حيث هو الساعة».[١٣]

ورواه الشــيخ بإسناده عن محمد بن يعقوب...[١٤]

٦ـ محمّــد بن يعقــوب، عن محمد بن يحيــى، وغيره، عن محمد بن أحمد، عن محمد بن عيسى، عن ياســين الضرير عن حريز بن عبدالله، عن محمد بن مســلم قال: سألته عن حد الطواف بالبيت الذي من خرج منــه لم يكــن طائفــاً بالبيت، قــال: «كان النــاس على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يطوفون بالبيت والمقام، وأنتم اليوم تطوفون ما بين المقام وبين البيت، فكان الحد موضع المقام اليوم، فمن جازه فليس بطائف، والحد قبل

اليوم واليوم واحد قدر ما بين المقام وبين البيت من نواحى البيت كلهـا، فمن طاف فتباعد من نواحيه أبعد من مقدار ذلك كان طائفاً بغير البيت، بمنزلة من طاف بالمسجد، لأنه طاف في غير حد ولا طواف له».[١٥]

ورواه الشـيخ باسناده عن محمّد بن يعقـوب، عن محمّد بن يحيى، وغيره، عن أحمد بن محمّد بن عيسـى، عن ياسين الضرير.[١٦]

بل ادّعـي التواتر في تحويل المقام من موضعه؛[١٧]

فالحاصل أنّ الموضع الفعلي للمقام ليس موضعه الأصلي.

الثالـث: وجـوب ركعـتي الطواف خلف مقام ابراهيم عليه السلام :

إنّ مـن واجبـات الحـجّ والعمرة صـلاة الطواف، ففي الحـجّ تجب صـلاة الطواف لطواف عمـرة التمتّع وطواف الحـج وطواف النسـاء، وفي العمـرة المفردة صلاة طواف العمرة وطواف النسـاء على ماهو المحقّق في محله، وإنّما الكلام في مـكان تلك الصلاة، فإنّ كلمات الفقهاء«رضوان الله تعالـى عليهم» اختلفت في هذا المقام على أقوال:

١ـ وجـوب إتيانهـا خلـف المقام أو عنده:

هذا القول هو المشهور بين الأصحاب قديماً وحديثاً.

٢ـ كون المحلّ هو المسـجد الحرام.

قـال الشـيخ فـي الخلاف: يسـتحبّ أنّ يصلّي الركعتين خلف المقـام، فإن لـم يفعل وفعل في غيره أجزأه، وبه قال الشافعي.[١٨]

هذا، ولكنّــه يمكن أن يكون مــراده من قولــه: «وفعل في غيره» غير المقام، ســواء كان في المسجد الحرام أو خارجه، كمــا أنّه يؤيّده قوله: «وبه قال الشــافعي، حيث إنّ الشافعي قــال: يســتحبّ أن يصلّيهما خلف المقــام، فإن لــم يفعل ففي الحجر، فإن لم يفعل ففي المســجد، فإن لــم يفعل ففي أيّ موضع شــاء مــن الحرم وغيره».[١٩]

ويمكــن أن يكــون مــراده غير الخلف، يعنــي أنّه يجوز إتيانهــا خلف المقــام ويمينه ويســاره، بأن يكون الواجب هو كون الصــلاة عند المقام، ويؤيّــده قوله في الاســتدلال على وجــوب ركعتي الطواف: دليلنا قوله تعالــى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْراهيمَ مُصَلًّى﴾ وهذا أمر يقتضى الوجوب.[٢٠]

وقــال الحلبي: يجب على كلّ مــن طاف بالبيــت عند فراغه من اُسبوعه أن يصلي ركعتين عند مقــام إبراهيم عليه السلام ويجوز تأديتهمــا في غيــر المقام من المسجد الحرام.[٢١]

هذا، ولكنّه قــال في موضع آخر مــن الكافي: فإذا فرغ من أسبوعه فليأت مقام إبراهيم عليه السلام فيجعله أمامه، ويصلّي ركعتي الطواف.[٢٢]

ويمكــن الجمــع بينهما بأنّ الثاني ذكره في صلاة طواف عمــرة التمتّع، فيجــب إتيان صلاة طواف عمرة التمتّع عند المقام، وأمّــا الأوّل فقد ذكره في كتاب الصــلاة، ولعلّه كان المراد صلاة طــواف التطوّع، إلاّ أن يقــال: إنّ عمــوم قوله: «كلّ من طاف» يشمل الطواف

الواجب والمندوب.

٣ـ التفصيل بين صلاة طواف الحجّ والعمرة وبين صلاة طواف النساء.

قال علي بن بابويه على ما حكي عنه: لا يجوز أن يصلّى ركعتي طواف الحجّ والعمرة إلاّ خلف المقام حيث هو الساعة، ولا بأس أن تصلّي ركعتي طواف النساء وغيره حيث شئت من المسجد الحرام. [٢٣]

وقال الصدوق في صلاة طواف عمرة التمتّع: ثمّ ائت مقام إبراهيم عليه السلام فصلّ ركعتين.[٢٤]

وقال في صلاة طواف الحجّ: ثمّ صلّ ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام.[٢٥]

وقال في صلاة طواف النساء: ثمّ ارجع إلى البيت فطف به أُسبوعاً، وهو طواف النساء، ثمّ صلّ ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام أو حيث شئت من المسجد.[٢٦]

أدلّة القول الأول:

أ: قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهيمَ مُصَلًّى﴾.[٢٧]

إنَّ الآية الشريفة ظاهرة في وجوب اتّخاذ المصلّى من مقام إبراهيم عليه السلام والروايات المفسّرة فسّرت كيفيّة الاتّخاذ، وبيّنت المراد من الصلاة التي يجب اتّخاذ مصلاها من مقام إبراهيم عليه السلام بأنّه تجب صلاة طواف الفريضة خلف المقام؛ وإليك تفاصيل الروايات:

١ـ محمّد بن الحسن بإسناده عن موسى بن القاسم، عن صفوان بن يحيى، عمّن حدّثه، عن أبى عبدالله عليه السلام قال: ليس لأحد أن يصلي ركعتي طواف

الفريضة إلاّ خلف المقام لقول الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذوا مِنْ مَقامِ إِبْراهيمَ مُصَلًّى﴾.[٢٨]

٢ـ محمّد بن الحسن بإسناده عن موسى بن القاسم، عن محمّد بن سنان، عن عبدالله بن مسكان، عن أبي عبدالله الأبزاري قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن رجل نسي فصلى ركعتي طواف الفريضة في الحجر، قال: «يعيدهما

خلف المقام لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ يعني بذلك ركعتي

طواف الفريضة».[٢٩]

٣ـ محمّد بن الحسن بإسناده عن الحسين بن سعيد، عن محمّد بن سنان، عن ابن مسكان قال: حدّثني من سأله عن رجل نسي ركعتي طواف الفريضة حتى يخرج، فقال: «يوكّل».

قال ابن مسكان: وفي حديث آخر إن كان جاوز ميقات أهل أرضه، فليرجع وليصلهما فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْرَاهيمَ مُصَلًّى﴾.[٣٠]

٤ـ محمّد بن يعقوب، عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن محمّد بن إسماعيل، عن محمّد بن الفضيل، عن أبي الصباح الكناني، قال: سألت أباعبدالله عليه السلام عن رجل نسي أن يصلي الركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام في طواف الحج والعمرة، فقال: «إن كان بالبلد صلى ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْرَاهيمَ مُصَلًّى﴾ وإن كان قد ارتحل فلا آمره أن يرجع».[٣١]

ورواه الشيخ بإسناده عن محمّد بن يعقوب...[٣٢]

٥ـ محمّد بن الحسن بإسناده عن موسى بن القاسم، عن الحسن بن محبوب، عن علي بن رئاب، عن أبي بصير سألت أباعبدالله عليه السلام عن رجل نسي أن يصلي ركعتي الفريضة خلف المقام وقد قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْرَاهيمَ مُصَلًّى﴾ حتّى ارتحل، فقال: «إن كان ارتحل، فإنّي لا أشقّ عليه ولا آمره أن يرجع، ولكن يصلّي حيث يذكر».[٣٣]

فإنّ استدلال أبي بصير على

وجــوب إتيان صــلاة طواف الفريضة خلــف المقام بالآية الشريفة، وتقرير الإمام عليه السلام ذلك من دون ردعه يدلّ على دلالة الآية الشريفة على المدّعى.

والمتحصّل من هذه الروايات أنّ المراد من المقام هو الحَجَر، والمــراد من اتّخــاذه مصلّى جعلــه أمامه والصــلاة خلفه، والمراد من الصلاة هي صلاة طــواف الفريضــة، وطــواف الفريضــة مطلق، ســواء كان طــواف الحــجّ أو العمــرة أو طواف النساء، فالآية بضميمة تلك الروايات تدلّ على وجوب إتيان ركعتي طواف الفريضة خلف المقام كما هو المشهور بين الأصحاب.

نعم، إنّ روايــة أبي الصباح الكناني مختصّة بصلاة طواف الحــجّ والعمــرة، ولا تشــمل صلاة طواف النســاء، إلاّ أنّها لا تنافــي باقــي الروايات، إذ الاختصــاص إنمــا هو لأجل كون ســؤال الراوي عنهما، لا أنّ الإمــام عليه السلام خصّ الآية بهما فلا إشكال.

كمــا أنّ التعبيــر فــي تلك الرواية بالصلاة عنــد المقام لا تنافي الروايات الأُخر الدالّة على لزوم كونها خلف المقام، لأنّ النسبة بينهما هى الإطلاق والتقييــد، فتحمــل رواية أبي الصباح على خلف المقام؛ لأنّ الصــلاة خلف المقــام صلاة عند المقام، أو أنّ الرواية تدلّ على لزوم قيد آخر، وهو كون الصــلاة عند المقــام، كما أنّه يجب كونهــا خلفه، فلا تجزي الصــلاة خلف المقام من دون أن تكــون عنــده، كمــا أنّه لا تجزي الصلاة عنده إذا لم تكن

خلفه، فلابــدّ من كون الصلاة عند المقام وخلفه، دون اليمين واليســار والقدّام، هذا إذا كان الخلــف أعمّ من كونــه عنده أم لا، وإلاّ فالوجــه الأوّل هو المتعيّن.

ب: الروايات:

وهي على طائفتين:

الأُولــى: الروايات الدالة على إتيــان صلاة الطــواف خلف المقام:

١ـ محمّــد بن يعقــوب، عن علي بــن إبراهيم، عــن أبيه، عن ابن أبي عمير وعن محمّد بــن إســماعيل، عــن الفضل بن شــاذان، عــن صفوان بن يحيــى، وابن أبــي عمير، عن معاوية بــن عمّار قــال: قال أبوعبــدالله عليه السلام: «إذا فرغت من طوافك فائت مقام إبراهيم عليه السلام فصل ركعتيــن واجعله أماماً واقرء في الأولى منهما سورة التوحيد ﴿قل هو الله أحد﴾ وفي الثانية ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ ثم تشهد واحمد الله واثن عليه وصل على النبي صلى الله عليه وآله واسأله أن يتقبّل منــك، وهاتان الركعتان هما الفريضــة، ليس يكره لك أن تصليهما في أيّ الســاعات شئت، عند طلوع الشمس وعند غروبها، ولاتؤخّرهما ســاعة تطوف وتفرغ فصلهما».[٣٤]

ورواه الشــيخ بإسناده عن محمّد بن يعقوب...[٣٥]

ولكــن فــي دلالــة قوله عليه السلام «فائت مقام إبراهيم... واجعله أماماً» على وجوب كون صلاة الطــواف عند المقــام وخلفه تأمّل، إذ الرواية مشتملة على أوامر كلّها أوامر ندبية، كالأمر بالقرائــة بســورتي التوحيد والكافــرون والثنــاء على الله

والسؤال، فقرينة السياق توجب ظهور الأمر بإتيان مقام إبراهيم، وجعله أماماً في الاستحباب، ولا أقلّ من الاجمال.

مع أنّ الرواية ـ على ما هو المحقّق بالتتبّع في روايات معاوية بن عمّار ـ قطعة من رواية مفصّلة في باب الحج، فلم يعلم المقصود من قوله عليه السلام: «إذا فرغت من طوافك» هل هو طواف عمرة التمتّع أو طواف الحجّ أو طواف النساء؟ فلا يمكن الاستدلال بها على القول الأوّل.

٢ـ محمّد بن الحسن بإسناده عن موسى بن القاسم، عن ابن أبي عمير، عن حمّاد، عن الحلبي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّما نسك الذي يقرن بين الصفا والمروة مثل نسك المفرد وليس بأفضل منه إلا بسياق الهدي، وعليه طواف بالبيت وصلاة ركعتين خلف المقام، وسعي واحد بين الصفا والمروة، وطواف بالبيت بعد الحج...».[٣٦]

وهذه الرواية أيضاً أخصّ من المدّعى، إذ هي مختصّة بصلاة طواف الحجّ في حجّ القران والإفراد، فلا دلالة فيها على وجوب صلاة طواف العمرة وطواف النساء خلف المقام.

٣ـ محمّد بن علي بن الحسين بإسناده عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال في رجل طاف طواف الفريضة ونسي الركعتين حتّى طاف بين الصفا والمروة، ثمّ ذكر، قال: «يعلم ذلك المكان ثمّ يعود فيصلّي الركعتين ثمّ

يعود إلى مكانه».

وقد رخّص له أن يتمّ طوافه، ثمّ يرجع فيركع خلف المقام.

روى ذلك محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام.[٣٧]

وهذه أيضاً مختصّة بصلاة طواف الحجّ والعمرة، ولا تشمل صلاة طواف النساء، إذ لا سعي بعد صلاة طواف النساء، مع أنّ طريق الصدوق إلى محمّد بن مسلم ضعيف، لاشتماله على علي بن أحمد بن عبدالله بن أحمد بن أبي عبدالله البرقي وأبيه، وهما لم يوثّقا في الكتب الرجالية، وإن كان جهالة علي بن أحمد لاتضرّ باعتبار الطريق على هو المحقّق في محلّه، ولكنّه ضعيف؛ لجهالة أبيه أحمد بن عبدالله.

٤ـ محمّد بن الحسن بإسناده عن موسى بن القاسم، عن جميل، عن بعض أصحابنا، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «يصلّي الرّجل ركعتي طواف الفريضة خلف المقام بقل هو الله أحد وقل يا أيّها الكافرون».[٣٨]

وقد يناقش فيها أيضاً بالإرسال، وباشتمالها على قرائة التوحيد والكافرون، فلا يمكن استظهار الوجوب من قوله عليه السلام: «يصلّي الرجل خلف المقام بقل هو الله أحد».

٥ـ محمّد بن الحسن بإسناده عن موسى بن القاسم، عن صفوان بن يحيى، عن حمّاد بن عيسى، وابن أبي عمير، عن عمر بن أذينة، عن زرارة بن أعين قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الذي يلي المفرد للحج في الفضل، فقال: «المتعة، فقلت: وما المتعة؟ فقال: يهلّ بالحج

فـي أشـهر الحج فـإذا طاف بالبيت، وصلّى ركعتين خلف المقام، وسـعى بيـن الصفا والمروة، قصّر وأحلّ، فإذا كان يوم التروية أهلّ بالحج ونسك المناسك، وعليه الهدي...».[٣٩]

ولكن الرواية مختصّة بصلاة طواف عمرة التمتّع، ولا دلالة فيها على وجوب صلاة طواف الحـجّ وطواف النسـاء خلف المقام، إلاّ أن يقال: أنّ قوله عليه السلام «ونسك المناسـك» يدلّ على المدّعـى، لأنه مجمل ما فصّله فـي مناسـك عمـرة التمتّع، ولكنّـه أيضاً لايشـمل صلاة طواف النسـاء، مـع أنّ كون هذا الكلام مجمل ما فصّله في العمرة ممنوع، بل هو إشـارة إلى مناسك الحجّ المعلوم عند الامـام عليه السلام و زرارة، علـى ما يظهر من قـول زرارة: «الذي يلي المفرد للحجّ في الفضل».

الثانية: الروايات الدالة على إتيان صلاة الطواف عند المقام:

١ـ محمّـد بن يعقـوب، عن الحسـين بن محمّد، عن معلّى بن محمّد، عن بعض أصحابنا، عن أبـان بـن عثمـان، عن زرارة، عـن أحدهما عليهما السلام قال: «لاينبغـي أن تصلّـي ركعتي طـواف الفريضة إلاّ عند مقام إبراهيم عليه السلام فأمّا التطوّع فحيث شئت من المسجد».[٤٠]

ورواه الشـيخ بإسناده عن محمّد بن يعقوب...[٤١]

وقد يناقش فيها أولاً بضعف السند للإرسـال، وعدم ثبوت وثاقة معلّى بن محمّد.

وثانياً بأنّ قوله عليه السلام: «لاينبغي» كما يناسب مع الحرمة يناسب مـع الكراهـة، وظهـوره في

الحرمة ممنوع، نعم لو كان ظاهراً في الحرمة، فالمراد منها هي الحرمة الوضعية، أي بطلان صلاة الطواف في غير مقام إبراهيم عليه السلام.

٢ـ محمّد بن علي بن الحسين، عن أحمد بن محمّد بن الهيثم العجلي، وأحمد بن الحسن القطان، ومحمد بن أحمد السناني، والحسين بن إبراهيم بن أحمد بن هشام المكتب، وعبدالله بن محمد الصائغ، وعلي بن عبدالله الوراق، جميعاً عن أبي العباس أحمد بن يحيى بن زكريا القطان، عن بكر بن عبدالله بن حبيب، عن تميم بن بهلول، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن جعفر بن محمّد عليهما السلام قال: «هذه شرائع الدين... وحجّ البيت واجب ... ولا يجوز الحجّ إلاّ تمتّعاً... وفرائض الحج الإحرام والتلبية الأربع: وهي لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، والطواف بالبيت للعمرة فريضة، وركعتاه عند مقام إبراهيم عليه السلام فريضة، والسعي بين الصفا والمروة فريضة، وطواف الحج فريضة، وركعتاه عند المقام فريضة، وبعده السعي بين الصفا والمروة فريضة، وطواف النساء فريضة، وركعتاه عند المقام فريضة...».[٤٢]

الرواية تدلّ على وجوب إتيان صلاة طواف عمرة التمتّع والحجّ وطواف النساء عند المقام، ولكنّه لاتشمل صلاة طواف العمرة المفردة إلاّ بإلغاء الخصوصية، ومع ذلك فالرواية ضعيفة، لاشتمال

سـندها على مجاهيـل، مثل أحمد بن يحيى وبكر بن عبدالله وتميم بن بهلول.

٣ـ محمّـد بن يعقـوب، عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن فضّال، عن ابن بكير، عن عبيد بن زرارة، عن أبـي عبدالله عليه السلام في رجل طاف طـواف الفريضة ولـم يصلّ الركعتين حتى طاف بين الصفا والمروة، ثم طاف طواف النساء ولم يصل الركعتين حتى ذكر بالأبطح، فصلى أربع ركعات، قال: «يرجع فيصلي عند المقام أربعاً».[٤٣]

وروى الشـيخ بإسـناده عن موسـى بن القاسـم، عن صفوان، عـن عبدالله بن بكير، عن عبيد بن زرارة، نحوه.[٤٤]

والرواية إنّما تدلّ على وجوب صلاة طواف الحـج والعمرة المفردة وطواف النسـاء عند المقام، ولا دلالة فيها على لزوم كون صلاة طواف عمرة التمتّع عنده، حيث قال الراوي، وكذلك الإمام عليه السلام بإتيان أربع ركعات، ولـو كان طـواف الفريضـة شـاملاً لطواف عمـرة التمتّع أيضـاً، فلابدّ من إتيان سـتّ ركعات، نعـم لا بأس بإطلاق الرواية بالنسـبة إلـى العمرة المفردة، حيث إنّ الإمام عليه السلام لم يستفصل عن الراوي بأنّه هل كان ذلك في الحجّ أو العمرة؟ وترك الاسـتفصال دليل على الإطـلاق، فالرواية تـدلّ على وجـوب إتيان صـلاة طواف العمرة المفردة وطواف الحج وطواف النساء عند المقام.

ثـمّ إنّه يمكن المناقشـة في جميـع الروايـات الدالة على وجـوب إتيان صـلاة طواف

الفريضة خلف المقام أو عنده، من جهة شمولها لصلاة طواف النساء، للمقابلة الواقعة في رواية عبيد بن زرارة بين طواف الفريضة وطواف النساء، فإنّه يظهر منها أنّ طواف الفريضة غير طواف النساء، فتأمّل.

٤ـ محمّد بن يعقوب، عن محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن محمّد بن إسماعيل، عن محمّد بن الفضيل، عن أبي الصباح الكناني قال: سألت أباعبدالله عليه السلام عن امرأة طافت بالبيت في حج أو عمرة ثم حاضت قبل أن تصلّي الركعتين، قال: «إذا طهرت فلتصلّ ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام وقد قضت طوافها».[٤٥]

ورواه الشيخ بإسناده عن محمّد بن يعقوب...[٤٦]

إنّ ترك الاستفصال عن كون الطواف الحجّ أو العمرة أو طواف النساء في الحجّ أو العمرة، وكذلك عن كون العمرة عمرة التمتّع أو المفردة دليل على الإطلاق، فالرواية تدلّ على وجوب كون صلاة الطواف الواجب عند المقام.

٥ـ محمّد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، وعن محمّد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن ابن أبي عمير، وصفوان جميعاً، عن معاوية بن عمار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «على المتمتع بالعمرة إلى الحج ثلاثة أطواف بالبيت، وسعيان بين الصفا والمروة، وعليه إذا قدم مكة طواف بالبيت وركعتان عند مقام إبراهيم عليه السلام وسعي

بين الصفا والمروة، ثم يقصر وقد أحلّ هـذا للعمرة، وعليه للحـج طوافـان وسـعي بين الصفا والمـروة ويصلي عند كل طواف بالبيت ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام ».[٤٧]

ورواه الشـيخ بإسناده عن محمّد بن يعقوب...[٤٨]

والروايـة مختصّـة بعمرة التمتّع وحج التمتع، فلاتشـمل العمـرة المفـردة وحـجّ القـران والإفـراد، إلاّ بإلغاء الخصوصية.

٦ـ محمّد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن ابن أبي عمير، عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «القارن لايكون إلاّ بسياق الهدي، وعليه طواف بالبيـت وركعتان عنـد مقام إبراهيم عليه السلام وسعي بين الصفا والمروة، وطـواف بعد الحج وهو طواف النساء».[٤٩]

ورواه الشـيخ بإسناده عن سـعد بن عبدالله، عن العبّاس والحسن، عن علي، عن فضالة، عن معاوية، وعـن محمّد بن الحسـين، عن صفـوان، عن معاوية، عن أبي عبدالله عليه السلام.[٥٠]

الروايـة مختصـة بصلاة طواف القران.

٧ـ محمّـد بن يعقـوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «المفـرد بالحـج عليه طواف بالبيـت، وركعتـان عند مقام إبراهيم عليه السلام وسعي بين الصفا والمروة، وطواف الزيارة وهو طواف النسـاء، وليـس عليه هدي ولا أضحية...».[٥١]

ورواه الشـيخ بإسناده عن محمّد بن يعقوب...[٥٢]

الروايــة مختصّــة بصلاة طواف حجّ الإفراد.

عبدالله عليه السلام قال: «...طف بالبيت ســبعاً، وصل ركعتيــن عند

٨ـ محمّد بن الحسن بإسناده عن موســى بن القاســم، عن عبد الصمد بن بشير، عن أبي

مقــام إبراهيم عليه السلام واسْــعَ بين الصفــا والمــروة، وقصّر من شعرك، فإذا كان يوم التروية

فاغتسل وأهلّ بالحج، واصنع كما يصنع الناس».[٥٣]

٩ـ محمّد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه عن إسماعيل بن مرار، عن يونس، عن سماعة، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «...يطوف بالبيت ويصلي الركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام ثم يخرج إلى الصفا والمروة فيطوف بينهما، ثم يقصّر ويحلّ، ثم يعقد التلبية يوم التروية».[٥٤]

ورواه الشيخ بإسناده عن محمّد بن يعقوب...[٥٥]

١٠ـ سعد بن عبدالله عن القاسم بن الربيع ومحمّد بن الحسين بن أبي الخطاب ومحمّد بن سنان جميعاً عن ميساح المدائني، عن المفضل بن عمر، عن أبي عبدالله عليه السلام في كتابه إليه: «...فإذا أردت المتعة في الحج، فأحرم من العقيق، واجعلها متعة، فمتى ما قدمت مكة طفت بالبيت، واستلمت الحجر الأسود فتحت به، وختمت سبعة أشواط، ثم تصلي ركعتين عند مقام إبراهيم، ثم اخرج من المسجد، فاسعَ بين الصفا والمروة، تفتتح بالصفا وتختتم بالمروة، فإذا فعلت ذلك قصرت، وإذا كان يوم التروية صنعت كما صنعت في العقيق».[٥٦]

وهذه الرويات الثلاثة الأخيرة مختصّة بصلاة طواف عمرة التمتّع.

ويلحق بتلك الطائفة ما ورد بعنوان الرجوع إلى المقام لإتيان صلاة الطواف:

١ـ محمّد بن يعقوب، عن محمّد بن يحيى، عن محمّد بن الحسين، عن صفوان بن

يحيى، عن العلاء بن رزين، عن محمّد بن مسلم، عن أحدهما عليهما السلام قال: سئل عن رجل طاف طواف الفريضة، ولم يصل الركعتين حتى طاف بين الصفا والمروة، وطاف بعد ذلك طواف النساء ولم يصل أيضاً لذلك الطواف، حتى ذكر بالأبطح، قال: «يرجع إلى مقام إبراهيم عليه السلام فيصلي».[٥٧]

ورواه الشيخ بإسناده عن موسى بن القاسم عن صفوان ين يحيى...[٥٨]

والرواية تدلّ على وجوب إتيان صلاة طواف الحجّ والعمرة وطواف النساء عند المقام، لأنّ الأمر برجوعه إلى المقام ظاهر في إتيان الصلاة عنده.

٢ـ محمّد بن الحسن بإسناده عن موسى بن القاسم، عن أحمد بن عمر الحلاّل قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن رجل نسي أن يصلي ركعتي طواف الفريضة، فلم يذكر حتّى أتى منى، قال: «يرجع إلى مقام إبراهيم عليه السلام فيصليهما».[٥٩]

ورواه الصدوق بإسناده عن الحسين بن سعيد عن أحمد بن عمر...[٦٠]

فالمتحصّل من تلك الروايات أنّ شرط صحّة صلاة الطواف، سواء كان طواف العمرة المفردة أو طواف الحج، متعة كان أو قراناً أو إفراداً، أو طواف عمرة التمتع، أو طواف النساء، هو أن تقع عند مقام إبراهيم عليه السلام وفيها روايات صحيحة، كالرواية الثلاثة لمعاوية بن عمّار الواردة في طواف حجّ القران والإفراد والتمتّع وعمرته

وطــواف النســاء، وصحيحة الحلبي الواردة في طواف حجّ القران والإفــراد، وصحيحتي زرارة وعبدالصمد الواردتين فــي طــواف عمــرة التمتّع، وصحيحتي محمّد بن مســلم وأحمد بــن عمــر الواردتين في طــواف الفريضة، إلى غير ذلك مــن الروايــات الموثّقة والمســتفيضة، فالحقّ هو أنّه يجب إتيــان صــلاة الطواف الواجب عند المقام وخلفه.

وقــد ظهر ممّا ذكــر بطلان سائر الأقوال.

تنبيه:

وردت روايــات مســتفيضة في وجوب إتيان صلاة طواف الفريضة عنــد المقام أو خلفه، كمرســلتي صفــوان وجميل، وروايات أبي عبدالله الأبزاري وأبي بصير ومحمّد بن مسلم وزرارة وعبيــد بــن زرارة، والظاهر منها أنّ طواف الفريضة مطلق، سواء كان طواف الحجّ أو العمــرة، بل طواف النســاء أيضــاً إلاّ أنّ في بعضها قرينة داخليــة توجب عدم شــموله لطواف النساء، كروايتي محمّد بن مســلم وعبيد بــن زرارة، لذكر طواف النســاء مســقلاً بعد طواف الفريضة، فلايمكن التمسّك بإطلاقهما على وجوب إتيان صلاة طواف النساء عند المقــام، وإن كان موثّقة عبيد بن زرارة، بل وصحيحة محمّد بن مســلم دالّتين على ذلك من حيث ذكره مستقلاً، إلاّ أنّ ذلك التقابل فيهما يوجب الوهن في إطلاق باقــي الروايات الواردة في صــلاة طــواف الفريضة، فتأمّل.

الرابع: وجوب إتيان صلاة الطواف الواجب عند المقام حيث هو اليوم:

لا إشكال في أنّه يجب إتيان صلاة الطواف الواجب عند المقام حيث هو الساعة؛ ويدلّ على ذلك طوائف من الروايات:

الأولى: رواية إبراهيم بن أبي محمود:

محمّد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن إبراهيم بن أبي محمود قال: قلت للرضا عليه السلام: أصلي ركعتي طواف الفريضة خلف المقام حيث هو الساعة أو حيث كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قال: «حيث هو الساعة».[٦١]

ورواه الشيخ بإسناده عن محمّد بن يعقوب...[٦٢]

والرواية صحيحة من حيث السند، ودلالتها على المدّعى واضحة.

الثانية: الروايات الآمرة بإعادة صلاة طواف الفريضة خلف المقام، إذا أُتي بها في غيره، كرواية أبي عبدالله الأبزاري، فإنّ الظاهر منها هو الإعادة خلف المقام حيث هو في زمن صدور الحديث.

الثالثة: الروايات الآمرة بالرجوع إلى خلف مقام إبراهيم عليه السلام والصلاة عنده، إذا نسي ركعتي الطواف، وهي مستفيضة، والظاهر منها أيضاً الآمرة بالرجوع إلى المقام في موضعه الذي كان في زمن صدور تلك الروايات.

إلى غير ذلك من الروايات المتقدّمة في الأمر الثالث.

إنّما الكلام في أنّ هذا الحكم هل هو الحكم الأوّلي، أو هو حكم ثانوي من جهة التقية

ونحوها؟

الظاهر من الروايات سيّما الروايات التي استدلّ فيها على وجوب الرجوع إلى ابن مسكان، هو أنّ ذلك مستفاد من الآية الشريفة، وأنّ ذلك حكم أوّلي إلهي، فالظاهر من الروايات هو أنّ

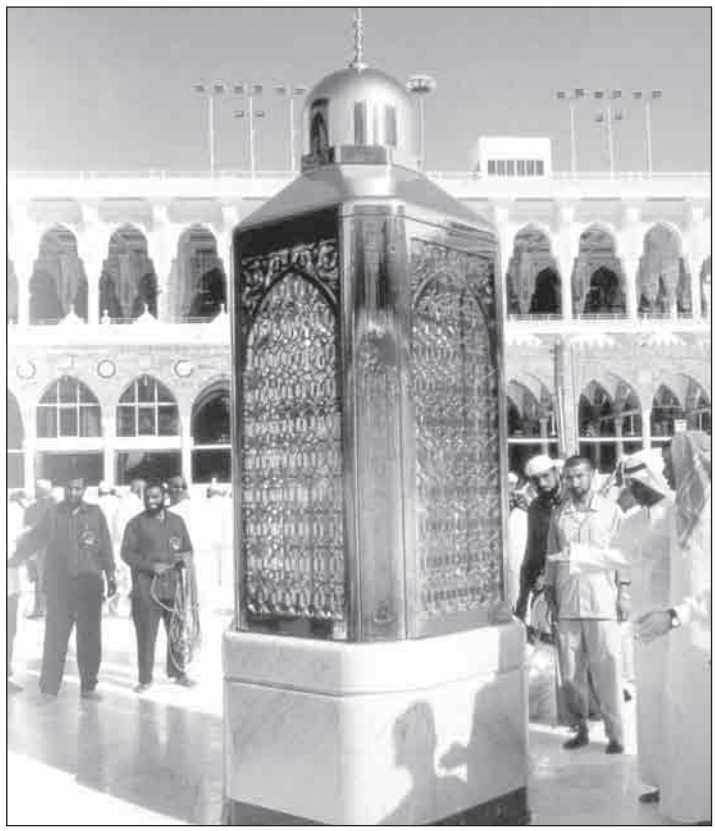

المقام والصلاة عنده أو خلفه بالآية الشريفة، كرواية أبي عبدالله الأبزاري، وأبي الصباح الكناني، وأبي بصير، ومرسلة

الآية الشريفة تدلّ على وجوب إتيان صلاة الطواف عند المقام حيث ما كان، فكان الواجب في زمان رسول‌الله صلى الله عليه وآله إلى زمن

ولاية عمر هــو إتيان الصلاة عنــد المقام حيث كان في ذلك العهد، ومن زمــن ولاية عمر إلى زماننا هذا يجب أن تصلّى عنده في موضعه الذي وضعه عمر.

المقام الأول: حكـم تحويل المقام إلى موضع آخر:

قد تقــدّم أنّ المقام هو حَجَر عليه أثــر قدمَــي إبراهيم عليه السلام وكان موضعــه الذي وضعه فيــه إبراهيــم عليه السلام وبعــده رســول الله صلى الله عليه وآله قريباً من البيت عند جــداره، وحوّله عمر إلى الموضع الذي هــو فيه اليوم، فالموضع الــذي هو فيه اليوم ليس موضعــه الأصلي، فعلى هذا هل يجوز تحويله من ذلك الموضع إلــى موضع آخر أم لا؟

تفصيــل ذلــك: أنّ الموضع الذي يراد تحويــل المقام إليه يتصوّر على أقسام:

١ـ الموضــع الأول بمعنــى تحويــل المقام مــن الموضع الذي فيه اليــوم إلى الموضع الذي وضعه فيه رسول الله صلى الله عليه وآله أي إلى الموضــع الأول الذي كان فيه في عهد إبراهيم عليه السلام.

لا إشــكال في أنّه يجوز بل يجب تحويله إليه، فإنّ تحويله إحياء لسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

ويدلّ علــى ذلك ما تقدّم في صحيحة سليم بن قيس الهلإلي مــن أنّ أمير المؤمنيــن عليه السلام لم يقــدم على ذلك خوفــاً لتفرّق جنده عنه بحيث لولا ذلك لردّه إلى موضعه الذي وضعه فيه رسول الله صلى الله عليه وآله.

٢ـ موضع ثالث من المسجد بمعنــى تحويــل المقــام إلى

موضــع آخــر من المســجد الحرام غير الموضع الأول.

إنّ تحويل المقام إلى موضع آخر من المسجد الحرام تارةً يكون مــع التمكّن من تحويله إلى الموضع الأول، واُخرى مع عــدم التمكّن منه؛ فعلى الأول، الظاهر أنّه لايجوز، إذ في هذا الحال يجب ردّه إلى الموضع الأول، فلايجــوز تحويله إلى الموضع الآخر.

وعلى الثاني: أنّه لا إشــكال في تحويله، لأنّ الموضع الذي هو فيه اليوم ليس موضعاً له، فلا دليل علــى حرمة تحويله إلى الموضــع الآخر، والأصل هو الجواز مع صدق كونه عند البيت.

٣ـ خــارج المســجد بمعنى تحويــل المقــام إلــى خارج المســجد الحرام، ســواء كان داخل الحرم أو خارجه:

هذه الصــورة أيضــاً على قسمين:

١ـ تحويله إلــى الخارج مع التمكّن مــن ردّه إلى الموضع الأول، فحكمــه قد ظهــر ممّا تقدّم، وهو الحرمة.

٢ـ تحويله إلى الخارج مع عدم التمكّن مــن ردّه إلى الموضع الأول، والظاهــر أنّــه لايجوز نقله إلى خارج المسجدالحرام، لقوله تعالى: ﴿فِيــهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَــامُ إِبْرَاهِيــمَ﴾ الظاهر منه أنّ موضعه المســجدالحرام عند البيت، فتأمّل.

المقام الثانــي: حكم صــلاة الطواف عند المقام إذا حوّل إلى موضع آخر:

بعد ما ثبت من أنّ من شروط صحّة صلاة الطواف الواجب وقوعهــا عند مقام إبراهيم عليه السلام

وأنّ مقام إبراهيم عليه السلام ممّا يمكن تحويله من موضع إلى موضع آخر، كما أنّه حوّل من موضعه الأول إلى الموضع الذي هو فيه اليوم، فلو حوّل من موضعه الذي هو فيه اليوم إلى موضع آخر، سواء كان هذا التحويل جايزاً أو لا، فما هو وظيفة الحاجّ أو المعتمر؟

تفصيل الكلام في هذا المقام يقتضي الكلام في الصور التي تقدّمت في المقام الأول:

١ـ حكم صلاة الطواف إذا حوّل المقام إلى الموضع الأول

لا إشكال في أنّه يجب إتيان صلاة الطواف خلف المقام في الموضع الأول أي الموضع الذي كان المقام فيه في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وحوّل المقام إليه جديداً، لأنّ القدر المتيقّن من قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ هو ذلك، إذ في زمن نزول الآية كان المقام في هذا الموضع، فيصحّ الصلاة فيه بلا ريب ولا إشكال، مضافاً إلى أنّ إطلاق الآية والروايات يقتضي ذلك كما يأتي إن شاء الله تعالى.

ويمكن الاستدلال على ذلك بصحيحة سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث إنّ الأمر بردّه إلى الموضع الأوّل إنّما كان لأجل التحفّظ بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله والتحفّظ بها مستلزم لوقوع صلاة الطواف في ذلك الموضع، فتأمّل.

وأمّا ما تقدّم من رواية إبراهيم بن أبي محمود عن الرضا عليه السلام حيث أوجب إتيان صلاة الطواف خلف

المقام حيث هو الساعة، دون الموضع الذي كان فيه في عهد رسول‌الله صلى الله عليه وآله فهو في قياس الموضع الذي فيه المقام إلى الموضع الذي كان فيه، فأوجب إتيانها في الموضع الذي هو فيه لا الموضع الذي كان فيه، والكلام في هذه الصورة بعكس ذلك، إذ الفرض أنّ المقام يكون في الموضع الذي كان فيه في عهد رسول‌الله صلى الله عليه وآله فالرواية لاتمت بصلة إلى هذه الصورة، بل يمكن أن يقال: إنّ مقضى تلك الرواية أيضاً وجوب الصلاة في الموضع الذي حوّل إليه، إذ الظاهر من الرواية أنّ المعيار وقوع الصلاة خلف المقام حيث ما كان.

والحاصل أنّه لو حوّل المقام من الموضع الذي يكون فيه اليوم إلى الموضع الذي كان فيه في عهد رسول‌الله صلى الله عليه وآله كان الواجب إتيان صلاة الطواف خلف المقام في الموضع الذي كان فيه في عهد رسول‌الله صلى الله عليه وآله وحوّل إليه ثانياً.

٢ـ حكم صلاة الطواف إذا حوّل المقام إلى موضع آخر من المسجدالحرام دون الموضع الأول

الظاهر أنّه يجب إتيان صلاة الطواف خلف المقام حيث ما كان في المسجد الحرام، فلو حوّل المقام إلى الحِجْر فلابدّ من إتيان صلاة الطواف في الحج خلف المقام، وكذا لو حوّل إلى موضع آخر من نواحي المسجد فيجب إتيانها خلفه، وذلك لإطلاق الأدّلة الحاكمة بأنّ شرط صحّة صلاة الطواف وقوعها خلف

المقام أو عنــده حيث ما كان، وإليــك تفاصيــل الروايــات المطلقة:

أ: الروايات المفسّرة الكاشفة عن إطلاق الآية:

١ـ مرسلة صفوان بن يحيى عمّن حدّثه عن أبي عبدالله عليه السلام قــال: «ليس لأحــد أن يصلي ركعتــي طــواف الفريضة إلاّ خلف المقام لقول الله عزّوجلّ: ﴿وَاتَّخِـذُوا مِـنْ مَقـامِ إِبْراهيـمَ مُصَلًّى﴾. ».[٦٣]

فإنّ استدلال الإمام عليه السلام بالآية الشــريفة على وجــوب إتيان صلاة طــواف الفريضة خلف المقام مع كونــه في الموضع الــذي وضعه فيه عمــر، يدلّ على إطلاق الآية الشريفة، وأنّ مقتضاها هــو وجوب صلاة الطــواف خلف المقــام حيث ما كان مــن دون اختصاصه بموضع دون موضع.

والرواية صحيحة من حيث الســند، ولايضرّها الإرسال، لأنّ المُرسِــل هو صفوان بن يحيى الذي لايروي ولايرسل إلاّ عن ثقة.

٢ـ رواية أبي عبدالله الأبزاري عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن رجل نسي فصلّى ركعتي طواف الفريضة فــي الحجر، قــال: «يعيدهما خلــف المقام لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَاتَّخِذُوا مِـنْ مَقـامِ إِبْراهيـمَ مُصَلًّـى﴾، يعنــي بذلــك ركعتــي طواف الفريضة».[٦٤]

وتقريــب الدلالة مثل تقريب دلالة مرسلة صفوان، إلاّ أنّها ضعيفة سنداً، لجهالة داود بن سعيد أبي عبدالله الأبزاري.

٣ـ مرسلة ابن مسكان: «إن كان جــاوز ميقات أهل أرضه

فليرجع وليصلهما فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهيمَ مُصَلًّى﴾ ». [٦٥]

والرواية كالروايتي المتقدّمتين تقريباً، إلاّ أنّها ضعيفة للإرسال والإضمار.

٤ـ رواية أبي الصباح الكناني عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن رجل نسي أن يصلي الركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام في طواف الحج والعمرة، فقال: «إن كان بالبلد صلى ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام فإنّ الله عزّوجلّ يقول: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهيمَ مُصَلًّى﴾...». [٦٦]

دلالة الرواية على المدّعى تامّة كالروايات المتقدّمة، إلاّ أنّها ضعيفة سنداً، لتردّد محمّد بن الفضيل بين الضبيّ الثقة والأزدي الضعيف.

٥ـ رواية أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن رجل نسي أن يصلي ركعتي طواف الفريضة خلف المقام وقد قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهيمَ مُصَلًّى﴾ حتّى ارتحل، فقال: «إن كان ارتحل، فإنّي لا أشقّ عليه ولا آمره أن يرجع، ولكن يصلّي حيث يذكر». [٦٧]

فإنّ أبا بصير استدل على وجوب إتيان صلاة طواف الفريضة خلاف المقام بالآية الشريفة، وهو بمعنى استظهاره إطلاق الآية، بحيث تدلّ على وجوب إتيان الصلاة خلف المقام، الذي كان في غير موضعه الذي وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله وهذا مع تقرير الإمام عليه السلام ذلك الاستدلال، يدلّ على أنّ الآية مطلقة، والرواية صحيحة سنداً، فيتمّ المطلوب.

ب : الروايات الآمرة بإتيان صلاة الطواف عند المقام:

١ـ صحيحة معاوية بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «على المتمتع بالعمرة إلى الحج ثلاثة أطواف بالبيت، وسعيان بين الصفا والمروة، وعليه إذا قدم مكة طواف بالبيت وركعتان عند مقام إبراهيم عليه السلام وسعي بين الصفا والمروة، ثم يقصر وقد أحلّ هذا للعمرة؛ وعليه للحج طوافان وسعي بين الصفا والمروة، ويصلي عند كل طواف بالبيت ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام».[٦٨]

فإنّ الرواية مطلقة، أوجبت إتيان صلاة الطواف عند

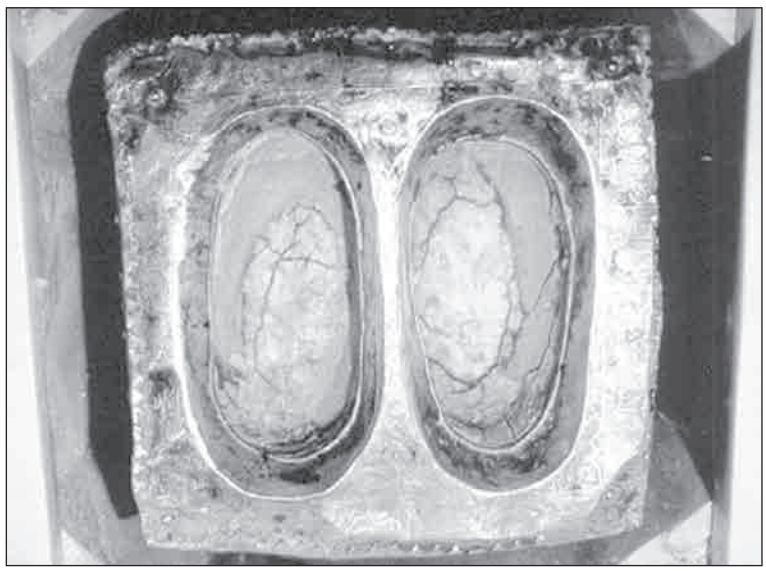

المقام في كلّ زمان، سواء كان المقام ثابتاً في الموضع الذي هو فيه في زمان صدور الحديث أم لا.

٢ـ صحيحة الحلبي عن أبي

عبدالله عليه السلام قال: «إنّما نسك الذي يقرن بين الصفا والمروة مثل نسك المفرد، وليس بأفضل منه إلاّ بسياق الهدي، وعليه طواف بالبيت وصلاة ركعتين خلف المقام وسعي واحد بين الصفا والمروة...».[٦٩]

٣ـ صحيحة معاوية بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «المفرد بالحج عليه طواف بالبيت وركعتان عند مقام إبراهيم عليه السلام...».[٧٠]

إلى غير ذلك من الروايات المتقدّمة في الأمر الثالث.

فإنّها مطلقة تدلّ على وجوب إتيان صلاة الطواف خلف المقام أو عنده حيث ما كان.

ودعوى أنّ تلك الروايات ناظرة إلى القضيّة الخارجيّة، وهي إتيان صلاة الطواف خلف المقام الذي هو فيه اليوم، فلا إطلاق لها، ممنوعة؛ لأنها قضايا حقيقيّة، تبيّن وظيفة الحاج أو المعتمر في كلّ زمان، وليست مختصّة بوظيفة الحاجّ أو المعتمر في زمان صدور الروايات، فالإطلاق محكّم.

وقد يناقش بأنّ رواية إبراهيم بن أبي محمود،[٧١] ـ الدالّة على وجوب إتيان صلاة الطواف خلف المقام في الموضع الذى هو فيه يوم صدور الرواية ـ تقيّد إطلاق الآية والروايات المطلقة.

ولكنّ الجواب عنها أنّ رواية إبراهيم بن أبي محمود أوجبت إتيان صلاة الطواف في ذلك الموضع دون الموضع الأول حيث كان المقام فيه، فتعيّن ذلك الموضع بالقياس إلى الموضع الأول، لا أنّ ذلك الموضع متعيّن لابدّ من إتيان الصلاة

فيه وإن حــوّل المقام منه إلى موضع آخر، فلا إطلاق لرواية إبراهيم بــن أبي محمود حتّى ينافي إطلاق الآية والروايات، فتحتاج إلى الجمع بينهما.

تنبيه:

تحويــل المقــام فــي المســجدالحرام من موضعه الذي هو فيه اليوم إلى موضع آخر من المســجد، تــارةً يقع في داخل المسجدالحرام الذى كان فــي عهد رســول‌الله صلى الله عليه وآله أو الأئمــة عليهم السلام واُخــرى فــي المسجدالحرام الذي صار من المســجد بعد زمان الأئمة عليهم السلام بأن يحوّل مــن موضعه إلى موضع آخر من المســجد، إلاّ أنّ ذلــك الموضــع كان واقعاً في خارج المســجد الذي كان في زمــان الأئمّة عليهم السلام فإن كان الأول، فحكمــه ما تقــدّم من وجوب إتيــان صلاة الطواف خلفــه، وإن كان الثانــي، فإن قلنا بعدم اشتراط كون صلاة الطواف في المســجد الحرام ـ مضافاً إلى اشــتراط كونها خلف المقام كمــا يأتي الكلام فيه في الصــورة الثالثة ـ فلا إشــكال، وإن قلنا بأنّ صحّة الصــلاة مشــروطة بأمرين: أحدهما كونها خلــف المقام، وثانيهما كونها في المســجد الحرام، فلابدّ مــن الكلام في هذا الشرط الثاني من جهة أنّ الشــرط هل هو وقوع الصلاة فــي المســجدالحرام القديــم أو الأعــم منه ومــن الجديد؟ والظاهــر من الأدلــة الواردة في أحكام المسجدالحرام هو ترتّبهــا على المســجدالحرام مطلقاً، فلا إشــكال، وتفصيل

الــكلام في ذلك موكــول إلى محلّ آخر.

٣ـ حكم صلاة الطواف إذا حوّل المقام إلى خارج المسجد الحرام

الظاهر مــن إطــلاق الأدلة الدالــة علــى وجــوب إتيان صلاة الطــواف عند المقام أو خلفه هــو وجوب إتيانها عنده حيث مــا كان، ولو كان خارج المســجدالحرام، إلاّ أن يكون المقام خارج المســجدالحرام وكان الوصــول إليه حرجيّاً، فلا يجب أداؤها عنــد المقام، لقاعــدة نفي الحــرج المؤيّدة بالروايــات الخاصّــة، التــي تجوّز إتيان صلاة الطواف في غير المقام،[٧٢] فعلى هذا يجوز إتيانها في المسجدالحرام في أيّ موضع شــاء، وأمّا إتيانها خارج المسجدالحرام في غير المقــام، فهو مبنــي على عدم اشتراط صلاة الطواف بكونها فــي المســجدالحرام، ويأتي الكلام فيه.

وقد يناقش فيــه بأنّ إطلاق الأدلة، وإن كان يقتضي وجوب إتيان صلاة الطواف عند المقام في خــارج المســجدالحرام، ولكــنّ الأدلــة على اشــتراط صــلاة الطــواف بكونها في المسجدالحرام تقتضي وجوب إتيانها في المسجدالحرام، فيقع التزاحم بينهما، فلابدّ من إعمال مرجّحات باب التزاحم إن كان مرجّح فــي البين، وإلاّ فالحكم هــو التخيير بيــن إتيانها عند المقام أو في المســجد الحرام أو الجمــع بينهمــا بالاحتياط على ما هو المقرّر في محلّه.

والجواب عنها أنّ اشــتراط إتيــان صــلاة الطــواف في

المسجدالحرام لا دليل عليه، والشكّ في شرطيّته من الأقلّ والأكثر، فالأصل عدمه، فيجوز إتيانها في غير المسجد الحرام، وإذا كان المقام في خارج المسجدالحرام فيجب إتيانها عنده، لما تقدّم من إطلاق الأدلة الآمرة.

وأمّا ما يمكن أن يستدلّ به على وجوب إتيانها في المسجدالحرام من الأدلة فليست بتامّة، وإليك تفصيل الأدلّة تقريراً ومناقشة:

أ: ما ورد في إتيان صلاة طواف التطوع في المسجدالحرام

١ـ محمّد بن يعقوب، عن الحسين بن محمّد، عن معلّى بن محمّد، عن بعض أصحابنا، عن أبان بن عثمان، عن زرارة، عن أحدهما عليهما السلام قال: «لاينبغي أن تصلّي ركعتي طواف الفريضة إلاّ عند مقام إبراهيم عليه السلام فأمّا التطوّع فحيث شئت من المسجد.[٧٣]

٢ـ عبدالله بن جعفر، عن عبدالله بن الحسن، عن جدّه عليّ بن جعفر، عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: سألته عن الرجل يطوف بعد الفجر، فيصلّي الركعتين خارجاً من المسجد، قال: «يصلّي بمكة لايخرج منها، إلاّ أن ينسى فيخرج فيصلّي إذا رجع إلى المسجد أي ساعة أحبّ ركعتي ذلك الطواف».[٧٤]

فإنّ اشتراط صلاة طواف التطوّع بكونها في المسجد يدلّ بالأولويّة على اشتراط صلاة الطواف الواجب به.

ولكنّه يناقش فيه:

أوّلاً بضعف السند في الروايتين للإرسال، وعدم

وثاقة معلّى بن محمّد في الأولى، وعدم وثاقة عبدالله بن الحسن في الثانية، كما أنّ طريق صاحب الوسائل إلى كتاب علي بن جعفر ليس طريقاً واقعيّاً.

ثانياً بأنّ الرواية الثانية تجوّز إتيان الصلاة خارج المسجد في مكّة، وإنّما أمر بالرجوع إلى المسجد من خرج من مكة ناسياً لصلاة الطواف المندوب، فالجمع بين الروايتين هو استحباب إتيانها في المسجدالحرام.

وثالثاً بمنع الأولويّة، فإنّ اشتراط صلاة الطواف الواجب بكونها عند المقام مع عدم اشتراط صلاة الطواف المندوب بكونها عنده يمنع عن الأولويّة كما لا يخفى.

ب: وجوب إتيان صلاة الطواف في المسجدالحرام كان من مرتكزات المسلمين

قد يقال: إنّ وجوب إتيان صلاة الطواف الواجب في المسجد الحرام، وعدم جوازه في خارج المسجد الحرام من مرتكزات المسلمين، ومن المسلّمات بينهم، وهذا يدلّ على أنّ ذلك مأخوذ من الشرع، فالصلاة في المسجد الحرام أمر مسلّم لايحتاج إلى دليل آخر.

وقد يناقش فيه بأنّ الأمر وإن كان كذلك، ولكنّه لا من جهة كون الصلاة في المسجد الحرام شرطاً مستقلاً في قبال اشتراط كونها عند المقام، بل حيث كان الواجب إتيانها عند المقام، والمقام كان في المسجدالحرام، فلايجوز

إتيانها خارج المسجدالحرام، فالارتكاز لايدلّ على شرط آخر مستقل قبال اشتراط كونها عند المقام.

فالحاصل أنّ الواجب هو كون صلاة الطواف الواجب عند المقام حيث ما كان، فلو حوّل المقام إلى خارج المسجدالحرام فلابدّ من إتيانها عنده، إلاّ أن يكون حرجيّاً، فيجوز إتيانها في غير المقام، سواء كان في المسجد الحرام أو خارجه.

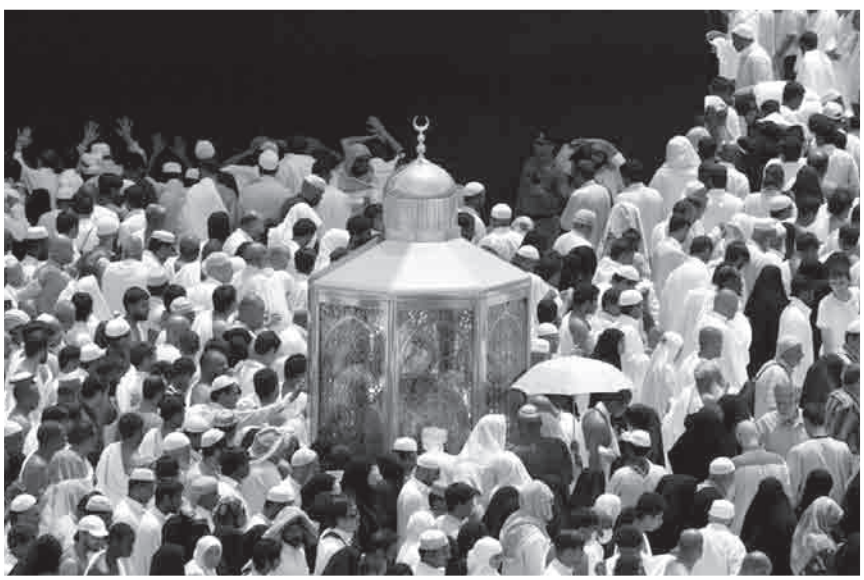

الهوامش

١. آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧.
٢. الكافي، ٤ : ٢٢٣، كتاب الحج، باب في قوله تعالى ﴿فيه آيات بينات﴾، ح١.
٣. علل الشرائع :٤٢٣، الباب ١٦٠، ح١.
٤. المصدر السابق :٤١٩، الباب ١٥٨، ح٢.
٥. السرائر٣ : ٥٨٢، المستطرفات.
٦. راجع الفهرست :٣١٦؛ رجال الشيخ : ٤٤٧، باب من لم يرو عن واحد من الائمة عليهم السلام؛ رجال النجاشي : ٣٩٦.
٧. رجال النجاشي: ٣٧٣.
٨. الكافي ٤ : ٢٢٣، كتاب الحج، باب في قوله تعالى ﴿فيه آيات بينات﴾، ح٢.
٩. الفقيه ٢ : ١٥٨، باب ابتداء الكعبة وفضلها، ح١٢.
١٠. علل الشرايع : ٤٢٣، الباب ١٦، ح١.
١١. التهذيب ٥ : ٥٠١ ، باب الزيادات في فقه الحج، ح٢٣٢.
١٢. روضة الكافي :٥٨ ـ ٦٢، ح٢١.
١٣. الكافي٤: ٤٢٣ ـ ٤٢٤، باب ركعتي الطواف ووقتهما، ح٤.
١٤. التهذيب٥: ١٥٩، باب الطواف، ح١٢٥.
١٥. الكافي٤: ٤١٣، باب حد موضع الطواف، ح١.
١٦. التهذيب٥: ١٢٦، باب الطواف، ح٢٣.
١٧. خلاصة الايجاز، للشيخ المفيد : ٢٥.
١٨. الخلاف٢: ٣٢٧، كتاب الحج، مسألة ١٣٩.
١٩. التذكرة، العلامة الحلي٨: ٩٦ ـ ٩٧، كتاب الحج، مسألة ٤٦٢.
٢٠. الخلاف٢: ٣٢٧، كتاب الحج، مسألة ١٣٨.
٢١. الكافي :١٥٧ ـ ١٥٨.
٢٢. الكافي : ٢١١.
٢٣. المختلف٤: ٢٠١، كتاب الحج، الفصل الثاني في الطواف.
٢٤. المقنع :٢٥٧.
٢٥. المقنع :٢٨٧.
٢٦. المصدر السابق.
٢٧. البقرة: ١٢٥.
٢٨. التهذيب٥ : ١٥٨، باب الطواف، ح١٢٣؛ و :٣٢١، باب تفصيل فرائض الحجّ، ح٦.
٢٩. التهذيب ٥ : ١٥٩، باب الطواف، ح١٥٩.
٣٠. التهذيب ٥ : ١٦١ ـ ١٦٢، باب الطواف، ح١٣٥ـ ١٣٦ ؛ الاستبصار ٢ : ٢٣٤، باب من نسي ركعتي الطواف، ح٤.
٣١. الكافي ٤ : ٤٢٥، باب السهو في ركعتي الطواف، ح١.
٣٢. التهذيب ٥ : ١٦٠، باب الطواف، ح ١٣٠ ؛ الاستبصار ٢ : ٢٣٥، باب من نسي ركعتي الطواف، ح٦.

٣٣. التهذيب ٥ : ١٦١، باب الطواف، ح١٣٣؛ الإستبصار ٢ : ٢٣٥، باب من نسي ركعتي الطواف حتى يخرج، ح٩.
٣٤. الكافي ٤ : ٤٢٣، باب ركعتي الطواف ووقتهما، ح١.
٣٥. التهذيب ٥ : ١٥٨ باب الطواف، ح١٢٢.
٣٦. التهذيب٥: ٥٢، باب ضروب الحج، ح٥٣.
٣٧. الفقيه٢: ٢٥٣، باب السهو في ركعتي الطواف، ح١ـ ٢.
٣٨. التهذيب٥: ٣٢٠، باب تفصيل فرائض الحجّ، ح٥.
٣٩. التهذيب٥: ٤٤، باب ضروب الحج، ح٣٦.
٤٠. الكافي٤: ٤٢٤، باب ركعتي الطواف ووقتهما، ح٨ .
٤١. التهذيب ٥ : ١٥٨، باب الطواف، ح١٢٤.
٤٢. الخصال :٦٠٣ـ ٦٠٦، أبواب المأة وما فوقه، ح٩.
٤٣. الكافي ٤: ٤٢٥، باب السهو في ركعتي الطواف، ح٣.
٤٤. التهذيب٥: ١٥٩باب الطواف ح١٢٨ ؛ الاستبصار٢: ٢٣٤، من نسي ركعتي الطواف ح٢.
٤٥. الكافي ٤ : ٤٤٨، باب المرأة تحيض بعد ما دخلت في الطواف، ح١.
٤٦. التهذيب ٥ : ٤٣٩، باب الزيادات في فقه الحجّ، ح٢٧.
٤٧. الكافي ٤ : ٢٩٥، باب ما على المتمتّع من الطواف والسعي، ح١.
٤٨. التهذيب ٥ : ٤٣، باب ضروب الحجّ، ح٣٣.
٤٩. الكافي ٤ : ٢٩٦، باب صفة الإفراد وما يجب على القارن، ح٢.
٥٠. التهذيب ٥ : ٥١، باب ضروب الحجّ، ح٥١.
٥١. الكافي ٤ : ٢٩٨، باب الإفراد، ح١.
٥٢. التهذيب ٥ : ٥٤، باب ضروب الحج، ح٦٠.
٥٣. التهذيب ٥ : ٨٥ ، باب صفة الإحرام، ح٤٧.
٥٤. الكافي ٤ : ٣٠٢، باب حجّ المجاورين، ح١٠.
٥٥. التهذيب ٥ : ٧٢، باب المواقيت، ح٣٦.
٥٦. الوسائل ٨ : ١٦٧، الباب٢، من أبواب أقسام الحجّ، ح٣٠، نقلاً من بصائر الدرجات.
٥٧. الكافي ٤ : ٤٢٦، باب السهو في ركعتي الطواف، ح٦.
٥٨. التهذيب٥: ١٥٩، باب الطواف ح١٢٧؛ الاستبصار٢: ٢٣٤، باب من نسي ركعتي الطواف، ح١.
٥٩. التهذيب ٥ : ١٦١، باب الطواف، ح١٣٤.

٦٠. الفقيه ٢ : ٢٥٤، باب السهو في ركعتي الطواف، ح٥.
٦١. الكافي ٤ : ٤٢٣ ـ ٤٢٤، باب ركعتي الطواف ووقتهما، ح٤.
٦٢. التهذيب ٥ : ١٥٩، باب الطواف، ح١٢٥.
٦٣. المصدر السابق ٥ : ١٣٧.
٦٤. المصدر السابق.
٦٥. المصدر السابق.
٦٦. المصدر السابق.
٦٧. وسائل الشيعة ١٣ :٤٣٠.
٦٨. الكافي ٤ : ٢٩٥، باب ما على المتمتّع من الطواف والسعي، ح١.
٦٩. وسائل الشيعة١١ :٢١٨.
٧٠. الكافي ٤ : ٢٩٨.
٧١. الكافي ٤ : ٤٢٣ ـ ٤٢٤، باب ركعتي الطواف ووقتهما، ح٤.
٧٢. قرب الإسناد : ٩٧.
٧٣. وسائل الشيعة ١٣ : ٤٢٦.
٧٤. قرب الإسناد :٩٧.

قراءة في كتاب «حقيقة الحج»

محسن الأسدي

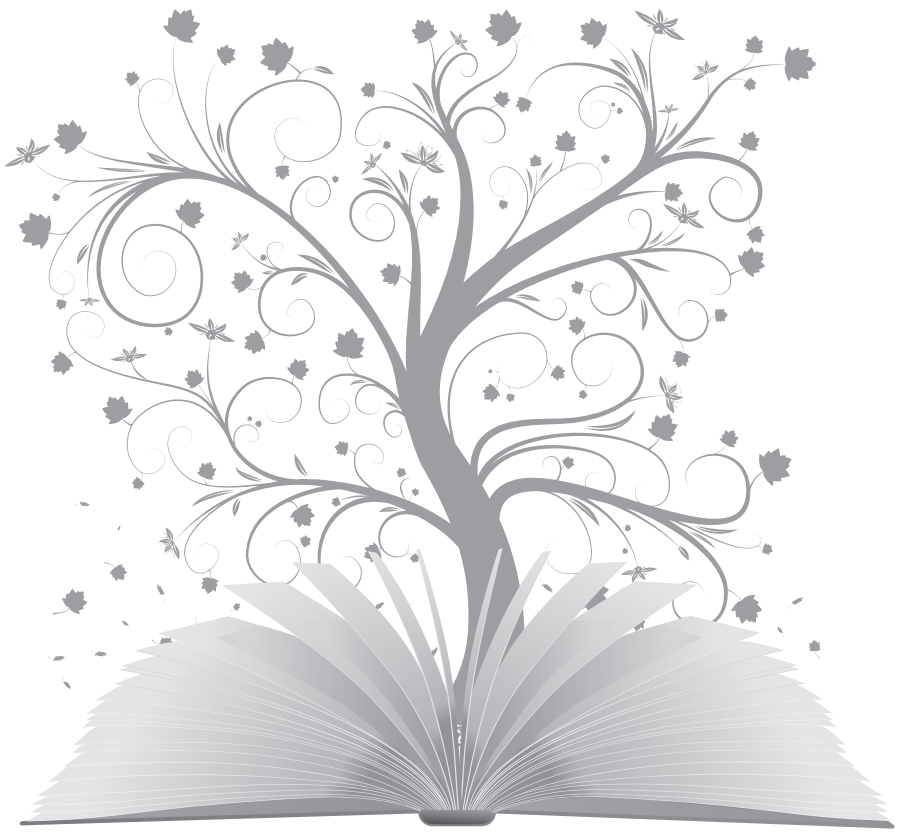

كثيرة هي الكتب والمقالات، التي ألفت وهي تتحدث عن فريضة الحج أحكاماً ومفاهيم وآداباً ومنافع ومناسك ومواقيت .. ومع كل ما كتب عنها قديماً وحديثاً ، فما زالت هذه الفريضة وما يتعلق بها تثري المكتبة الإسلامية وذهن الإنسان المسلم وقلمه بالمادة العلمية والمعرفية والتاريخية والثقافية ، وكأنها كتبت على نفسها ألا ينضب معينها ، وأن يبقى ثرّاً معطاءً لكل من يريد أن يتبرك بالكتابة عنها في جميع مفاصلها ، ولا أظنها إلا ثمرة عظيمة من ثمرات ذلك الدعاء الخالد:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[1]

فزيادةً في رحمته تعالى لعباده، ولطفاً بهم، وامتناناً عليهم، شرع لهم العبادات والشعائر التي منها منسك الحج؛ لحكم عظيمة، ومصالح عديدة، وأهداف جليلة، بعيدةً عن التضييق عليهم، فلا حرج فيها ولاتعسير ولا تضييق، بل هي يسر لهم وتيسير وتسهيل، وفوائد لهم في الحياتين: الدنيا والآخرة.

ففريضة الحج واحدة من تلك العبادات والشعائر، جاءت تزكية للنفوس، وترويضاً لها على الفضائل، وتطهيراً لها من النقائص، وتصفيةً لها مما يُكدرها، ويخالطها من شوائب، وتحريراً لها من رق الشهوات، وإعداداً لها للكمال الإنساني، وتقريباً من الملإ الأعلى، لتحظى برضاه تعالى.

إذن لكل عبادة في الإسلام حكم بالغة، ومنافع كبيرة، ومصالح للعباد جليلة، يظهر بعضها بالنص عليها، وقد يجدها بعض بأدنى تدبر وتأمل، فيما يخفى بعضها الآخر إلا على المتأملين الموفقين في الاستجلاء والاستنباط، بعد أن يعملوا فكرهم وجهدهم، والمؤلف الكبير «وحيد الدين خان» واحد من أولئك الذين بذلوا وسعهم لاستجلاء ما يمكنه، ليُدوّنه فقرات ضمّها كتابه القيم هذا، وعبر ذكريات رحلته للحج، التي أفرد لها جانباً من كتابه، وليته توسّع فيها؛ فقد توفرت رحلته على آراء جميلة، وصور رائعة، واقتراحات حسنة، ونقود بنّاءة.

وهذه قراءتي: فالكتاب «حقيقة الحج» الذي رأيت أن نقرأ سويةً شيئاً منه، هو بقلم وحيد الدين خان ، المفكر الإسلامي المعروف من مواليد أزمغار من بلاد الهند لسنة ١٩٢٥م، له أنشطة علمية وثقافية نافعة.

فعلى مستوى الكتابة والتأليف، له مؤلفات كثيرة باللغة الانجليزية، والأوردية، والهندية، جاءت بأسلوب فكري وعلمي متحضر يجمع بين البساطة والعمق، ترجم له العديد منها، ومن كتبه: الإسلام يتحدى، الدين في مواجهة العلم، حكمة الدين، تجديد علوم الدين، المسلمون بين الماضي والحاضر والمستقبل، دراسة لمأساة كربلاء، خواطر وعبر... وغيرها.

وله إنجازات عديدة،

منهـا إنشـاء مركز السـلام والروحانية بنيودلهي، وكذلك «المركـز الإسـلامي للبحوث والدعـوة» والـذي من خلاله يلقي دروسه ومحاضراته.

وعلـى مسـتوى اللقـاآت والحـوارات سـجل حضوراً متميـزاً، شـهدت بذلـك كله المكتبـات العلميـة، وقاعات المؤتمرات والندوات في العديد من بلدان العالم، بعد أن عرفته باحثاً مفكـراً فيما يطرحه من كتـب وبحـوث، ومحاضـراً نافعاً فيمـا يقدمه من دروس ومواضيع.

وكتاب: «حقيقة الحج» واحد مـن كتبـه، ترجمـه للعربية: ظفرالإسلام خان؛ دار الصحوة للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هجريـة ، ١٩٨٧م ، صفحاته: ١٢٠، يتضمن: مقدمة للمترجم: ظفرالإسـلام خان، وثمانية فصول:

الفصـل الأول، فقراتـه: روح الحـج: مسـيرة نحو الله، سـيد العبادات، رسالة الحج، بعض الجوانـب، حج مبرور، قضية في حاجة إلى نظر.

الفصل الثانـي: الحج صانع التاريخ.

الفصل الثالث، فقراته: أهمية الحج في الدعوة، تاريخ الحج، الحج مؤسسـة دعوية، الحج عمل حـيّ، تنظيم جديد للحج، شرط ضروري.

الفصل الرابع، فقراته: الجانب العاطفي في الحج، شهادة علم الإنسان المعاصر، شعائر الله، علاقة بالله، الراحة في المعاناة، رحلة غير عادية، العطاء بقدر الكفايـة، بعـض الانطباعات، تجديد الإيمان.

الفصل الخامس، فقراته: الحج والوحدة، المركز العالمي للتوحيد، إعلان عام، أسلوب فطري، اجتماعية الحج، تاريخ الحج، مركز الوحدة.

الفصل السادس، فقراته: دروس التقوى والعفة، مزيد من الاهتمام، الحذر في الكلام، اجتناب العنف، حياة الانضباط، إنكار الذات.

الفصل السابع، فقراته: حج رسول الله ﷺ ، دروس، خطبة حجة الوداع.

الفصل الثامن، فقراته: مسائل الحج، زيارة المدينة المنورة، محظورات الحج، ترتيب مناسك الحج، مصطلحات الحج، آثار إسلامية ذات معان تاريخية.

ومما جاء في مقدمة المترجم: فهذا كتاب في «حقيقة الحج» كتبه كاتب هندي مسلم كبير عرفه العالم العربي من خلال بعض أعماله التي قوبلت باستحسان، وعلى رأسها كتابه المعروف «الإسلام يتحدى» أما المسلمون في شبه القارة الهندية فيعرفونه جميعاً، ومعظمهم يقرأون له مجلته الذائعة «الرسالة» سواء اتفقوا أم اختلفوا معه، واليوم يقدم المؤلف الكبير الأستاذ «وحيد الدين خان» كتابه «حقيقة الحج» للمشتغلين بالدعوة الإسلامية، والثقافة الإسلامية، وللباحثين عن فهم عميق للحقائق الإسلامية.

وألخص ما يستوحى من فصول الكتاب ومقدمته بالنقاط التالية:

فالكتاب يعدُّ وقفة عميقة متأنية عن الحج الركن الخامس

من أركان الإسلام، تبدأ من أول سطر من الفصل الأول، وأنّ التقوى هي روح الحج الأصلية، وهدفه هو وصول كل عبد من عباد الله إلى مقامات الحج مرةً واحدةً في حياته، إن استطاع إلى ذلك سبيلاً ـ يستند المؤلف في قوله هذا إلى أن وجوبه مرة في العمر ـ فيقدم هناك دليلاً على عبوديته الكاملة لله بمختلف الأعمال والشعائر، وبالتالي يحاول أن يصبغ ظاهره وباطنه بالصبغة الإبراهيمية الحنيفية السمحة.

ورحلة الحج تلبية لنداء إبراهيم عليه السلام وأصوات «لبيك اللهم لبيك» التي نسمعها في الحج هي ردنا على ذلك النداء، فهي تعني أن الحاج قد لبى النداء الإبراهيمي فجاء يحج لله مؤكداً بعمله هذا أنه مستعد استعداداً كاملاً لتنفيذ كل أحكام الله.

وأنّ الحج عبادة جامعة، ففيه إنفاق المال، ومشقة الجسد، وذكر الله، والتضحية في سبيله، فالحج عبادة تشمله روح كل العبادات الأخرى بصورة أو أخرى.

ولم يكن الكتاب دراسة فقهية، أو تأريخاً موسوعياً للحج منذ إبراهيم عليه السلام وحتى اليوم، وإن عالج المعنى التأريخي للحج عبر مناسك الحج حين يقوم المسلمون بأدائها، فإنهم يعيدون بطريقة عملية حيّة التأريخ الإيماني الإبراهيمي على الأرض، فيفارقون أوطانهم كما فارق إبراهيم الخليل وطنه، ويمرون بكل ما مرَّ به إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام إلى أن ينتهوا

إلى التلبيــة «لبيك اللهم لبيك» في اجتماع عرفات الأعظم، ثم يرجمون الشــيطان كما رجم إســماعيل عليه السلام فكأنمــا الحاج يقول من خلال هذه الشــعائر «الأشــياء الرمزيــة»: إنــه لو اقتضت الضرورة مرة أخرى، فإنه مســتعد لكي يسير على نفس خطوات إبراهيم عليه السلام حتى ولو ذبح ابنه.

لكنه يعدّ دراسة لا تقل أهمية عن الدراسة الفقهية والتأريخية والاجتماعيــة، تناولــت جانباً يفتقده المســلمون، إنه: روح الحــج أوحقيقــة الحــج، وما الجوانب الأخرى إلا وســائل لكشــف هذه الروح، أو لعلها لا تزيد عن كونها عناصر من عناصر هــذه الروح؛ ومن هذا المنطلــق، ووصــولاً إلى هذه الغاية، عالج الباحث «رســالة الحــج» ونظــر إليه علــى أنه «صانــع التاريــخ» وعلى أنه «مؤسســة دعوية» و «وسيلة للوحدة» و «رحلة غير عادية» قادرة على «تجديد الإيمان!!».

ودعــا الباحث إلــى تحقيق الوحــدة الدعويــة والفكريــة والشــعورية للمســلمين أو حســب تعبيره: «تنظيم جديد للحج» ومن ســبله تســخير الحج كمركز للتخطيط العالمي للدعوة الإسلامية بحيث يعرض الناس من مختلف البلاد أحوال الدعوة فــي بلدانهــم، فيطلع الناس على تجــارب المناطق الأخــرى ويســتفيدون منها، ويدور الحوار حول الإمكانات الجديدة للدعوة، فقوة الإسلام مرتبطة بقــوة الدعوة؛ والحج والبيت الحــرام علامتان على خطة دعوية عظيمة، فإنما بنيت

الكعبة في الصحراء لتكون مركزاً دائماً للهداية الإلهية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ﴾

ويمكن استخدام إمكانيات الثورة العلمية ومؤتمر الحاج العالمي للتخطيط للدعوة على مستوى العالم، شرط أن يتم تحويل مؤسسة الحج ـ حسب تعبير المؤلف ـ إلى مؤسسة عالمية للدعوة الإسلامية.

التكبير في الحج يجعل الحاج يعي أنّ العظمة لله وحده، والطواف محور جهوده في دائرة الحنيفية السمحة كما تطوف كل سيارات النظام الشمسي حول مركز واحد هو الشمس.

والسعي بين الصفا والمروة يعلمنا أن لا نتجاوز دائرة إخواننا المؤمنين.

وكم هو رائع حين يسمي الحج بأنه «سيد العبادات» وحين يصف الكعبة بأنها علامة من علامات الله على وجه الأرض، تأتيها الأرواح البشرية الضالة لتسكن في رحاب ربها، تتفجر عندها عيون العبودية من الصدور المتحجرة، وهناك تشاهد العيون المظلمة تجليات الله، ولكن هذا كله يحدث للذي يذهب مستعداً وباحثاً، أما الذين لم يستعدوا، فحجهم لن يعدو أن يكون أكثر من سياحة، فهم لا يذهبون هناك إلا لكي يعودوا كما ذهبوا.

والكعبة، القبلة، لا للذين يصلّون في المسجد الحرام فقط، بل للمسلمين جميعاً، وهم يقفون خمس مرات يومياً يؤدون صلواتهم في

دائرةٍ، الكعبة مركزها؛ وهم بهذا يشكلون هيئة اجتماعية عالمية عظيمة، لا مثيل لها في أية جماعة دينية أو غير دينية، ولو كان في المسلمين شعور حقيقي لهذا الدرس، لابتعدوا عن عوامل التمزق، وانضموا إلى هذه الهيئة؛ فالكعبة بحق هي رمز توحيد الله على الأرض، وهي رمز وحدة المسلمين وهيئتهم الاجتماعية.

وهكذا يدور المعنيان معاً: المعنى التاريخي والمعنى الاجتماعي مع كل الشعائر يرافقهما معنى الوحدة؛ وقد أحسن المؤلف تصوير هذه المعاني، وهي تسير جنباً إلى جنب حين يؤدي المسلمون شعائر الحج.

والحج علاقة بالله تعالى، وشعائر تصل ما بين الخالق والمخلوق، ورحلة إلى الله تعالى، لاستئناف المسيرة على هدى وبصيرة؛ وهو عطاء بقدر عفو الله، لا بقدر عمل الناس، وهو تجديد للإيمان، وهو تحقيق للتقوى والعفة والأخلاق الفاضلة، وتدريب على تجنب الثرثرة والرفث والمراء والعنف، وتعويد على الانضباط وإنكار الذات، والاندماج في الجماعة!

فحقيقة الحج حقيقة عظمى بلا ريب! ونجح في تجلية جوانب من حقيقة الحج بأسلوب رائع وثقافة عميقة، وجسد معاني عديدة تشعرنا بأنّ الحج رحلة العمر، وأنه من أفضل العبادات على عظمتها وفضلها وجلالتها، ففيه يتجلى التوحيد، والحنيفية السمحة، والأمة الوسط، والشهيدة على الناس،

والآمــرة بالمعروف، والناهية عــن المنكــر، والداعيــة لقيم الوحدة والتقدم والحضارة.

وفــي فقرة: إعــلان عام من الفصل الخامس، يبين المؤلف أهميــة البــراءة مــن الكفار والمشــركين، وأنّ مكــة هي المكان المناسب، لمنزلتها في القلوب، كما أنّ موســم الحج هو الوقت الملائم لإعلان مثل هذه البــراءة، فيميز بين نزول الأمــر بالتبليــغ فــي المدينة المنــورة، وبين الأمر بإعلانها على المسلمين وأن يكون في مكة، فيقول:

لقد نــزل حكم البــراءة من مشــركي الجزيــرة العربيــة وكفارهــا في المدينــة، إلا أنه أعلن بمكة خلال موسم الحج، وهذا دليــل واضــح على أنّ موســم الحج بمكة هو المكان الصحيح لإعــلان كل القررات الإسلامية الهامة.

فالحج هو المركز الاجتماعي لــكل مســلمي العالــم، وهم يجتمعون هنا وعليهم أن يعلنوا هنا قراراتهم الكبرى، وعليهم أن يضعوا هنا الخطط العالمية للأعمال التي تجب عليهم تنفيذاً لأوامر الله ورسوله صلى الله عليه وآله.

ومن أســباب مناســبة مكة والحج لهذا الإعلان ما يتحدث عنه في فقرة «أسلوب فطري» حيث يقول: ومن فوائد الإعلان الاجتماعي عنــد الحج أنّ مثل هذا الإعلان يكتسب نوعاً من القدسية؛ فإنّ الحج هو أقدس مــكان في نظــر المســلمين، والإعلان الــذي يتم عند الحج يكتســب نوعاً من القدســية والاحترام في أنظار الناس.

فهو في هذا كله وكما نراه في

حديثه الآتي يشير إلى الأسباب التي دعت رسول الله صلى الله عليه وآله إلى إلقاء خطبته في حجة الوداع في موسم الحج من حيث الزمان، وفي مكة من حيث المكان، وأنها والموسم المبارك للحج أفضل ميقات مؤثر لإعلان ذلك، ولما يقرره المسلمون ونخبه.

وفي الفصل السابع تحدث تفصيلاً عن حج رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن أشار إلى الدور الذي قام به النبيّان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في نظام الحج، ومع تعرضه للفساد كان الحج قائماً مع ما طرأ عليه من زيف حين ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وأنه ليس هناك معلومات قطعية عن عدد حجّاته صلى الله عليه وآله قبل الهجرة، فيما توفرت معلومات كاملة عن حجه بعدها؛ وأنه حج مرة واحدة وهي حجة الوداع، وإن وجدت روايات أنه أدى الحج قبل الهجرة مرتين، كما في سنن الترمذي، وابن ماجة، بينما لا يذكر صحيح مسلم إلا واحدة.

فيما قال بعض المحدثين: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يحج كل عام وفق عادة أهل مكة؛ وفي طبقات ابن سعد أنه صلى الله عليه وآله لم يحج إلا مرة واحدة قبل الهجرة، بينما هناك كم وافر من الروايات حول حجة الوداع، لدرجة أنه يمكن وضع يوميات كاملة من بدء مسيرته للحج إلى نهايتها، وعن هذا الفرق بين هاتين الحالتين يقول: الفرق يكمن في الفارق الزمني، فإنّ حجة الوداع وقعت في أواخر حياته صلى الله عليه وآله وقد أصبح فاتحاً وحاكماً على الجزيرة العربية،

فلم يسجل لنا التاريخ حجاته الأولى بينما سجل الأخيرة بتفاصيلها، وقد ذكر عدداً من المصادر التي توفرت عليها، ثم دوّن لنا مختصراً لوقائع حجة الوداع سنة ١٠ هجرية قبل وفاته صلى الله عليه وآله بشهرين، وذكر أهميتها وأسماءها، وأنه وصل إلى مكة عصر الرابع من ذي الحجة وقطع هذا السفر من المدينة إلى مكة في تسعة أيام، وعندما وقع بصره على بيت الله قال:

«اللهم زد بيتك تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابةً» ثم أخذ يرفع يده مكبراً:

«اللهم أنت السلام ومنك السلام، حيّنا ربنا بالسلام».

واستمر بعرض تفاصيل حجته صلى الله عليه وآله وذكر دروساً مهمة مما استوحاه من حجه صلى الله عليه وآله.

وأخيراً لم يغفل المؤلف عن الجوانب العاطفية في الحج، فقد ذكرها في الفصل الرابع للكتاب، وهي جوانب مهمة جداً، لم أجد من تطرق إليها أو على الأقل باختيار عنوان مستقل واضح لها، وهي ما نختاره من فقرات كتابه، بعد فقرات من الفصل الثالث تبدأ من «الحج مؤسسة دعوية» ثم ننتقل بعد الجوانب العاطفية إلى ذكرياته عن رحلته للحج، دونها بوصف بسيط مملوء بالموعظة، وعن قصة براءة وحجة الوداع، فحديثه عن الوحدة ومركز التوحيد، وكلها وهناك غيرها توفر عليها كتابه، تجلّى فيها فكره، وصاغها قلمه، أرى أن فيها منافع تدعوني لقراءة أخرى، فقد حال بيني وبينها ضيق مساحة المجلة

عن استيعابها في عدد واحد، إذن نترك المؤلف يحدثنا عن هذه الفقرات التي اخترتها من بين فصول كتابه الجميل هذا:

الحج مؤسسة دعوية

الحج إعادة للتاريخ الإبراهيمي عليه السلام فالحاج يقلد بصورة رمزية مختلف مراحل الخطة العالمية، التي نفذت بواسطة إبراهيم عليه السلام معاهداً ربه بأنه سيسخر نفسه للرسالة الإلهية، التي سخّر إبراهيم نفسه من أجلها، وأنه سيظل يقوم بالعمل الدعوي الذي قام به رسول الله صلى الله عليه وآله خاتمًا للأنبياء.

وكان إبراهيم عليه السلام قد خرج من وطنه لتنفيذ خطة إلهية دعوية، وهكذا يقول الحاج بلسان حاله إنه مستعد هو الآخر ليترك وطنه من أجل الدين، وكان إبراهيم عليه السلام قانعاً راضياً بحياة بسيطة، وهكذا يعلن الحاج بواسطة الإحرام أنه سيكتفي بالحاجات الضرورية؛ ليركّز نظره على الهدف الأصلي؛ وكان إبراهيم عليه السلام قد أعلن ولاءه لله تعالى بالطواف حول البيت الحرام، وهكذا يعلن الحاج ولاءه لله تعالى بالطواف حول الكعبة المعظمة.

وكانت زوج إبراهيم قد سعت بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء، وهكذا يُظهر الحاج بسعيه بين هذين الجبلين أنه مستعد للذهاب في سبيل الله إلى آخر الحدود، ولو يحدث لأهل بيته ما حدث لهاجر وإسماعيل.

وقد رمى إبراهيم الشيطان بالجمرات حين حاول أن يثنيه عن عمل الله تعالى، وهكذا يعلن

الحـــاج برميه الجمـــار بغضه للشـــيطان، وبأنه هـــو الآخر ســـيعامل الشـــيطان معاملة مماثلـــة، لو حـــاول أن يغويه مثلمـــا حاول إغـــواء إبراهيم؛ وكان إبراهيـــم قـــد اســـتعد ليضحي بحيـــاة ابنـــه ابتغاء مرضاة الله، وهكذا يعلن الحاج بتقديم الأضحية بأنه مســـتعد للذهـــاب إلـــى أقصـــى حدود التضحية من أجل الدين.

وكانت رســـالة الدعوة التي قام بها إبراهيم عليه السلام تهدف إلى تذكير البشـــر بيـــوم الآخرة، وهكـــذا يتجمـــع الحجـــاج في أرض عرفـــات، ليذكروا يوم الحشر، ويجعلوا هذه الحقيقة الكبـــرى جـــزءاً مـــن وعيهم؛ وليخبـــروا الآخريـــن بأمرها، وكلمـــا نـــادى الله إبراهيـــم، وجده مســـتعدّاً لتلبية دعوته، وهكـــذا يقول الحـــاج عند أداء كل شـــعائر الحج: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شـــريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والمُلك» وبهذا يعلن الحاج أنه مســـتعد لتلبية نداء ربه في كل آن.

والحقيقـــة أنّ بيت الله الحرام مركز الدعوة الإسلامية، وأنّ الحج هو المؤتمر العالمي لدعاة الإســـلام، والأفعال التي نقوم بها في الحج هي كلها علامات على مراحل من حياة إبراهيم في ســـبيل الدعوة، ومناســـك الحج إعادة رمزية لكل الوقائع التـــي وقعـــت لإبراهيم عليه السلام في مختلـــف مراحل نشـــاطه من أجل الدعوة، ويقلد الحاج هذه الوقائـــع «شـــعاراً» أي رمزًا وعلامة في أيـــام الحج؛ فيعقد العزم على أنه ســـيعيش داعياً كما كان إبراهيم عليه السلام داعياً إلى

الرسالة الإلهية، وبعض هذه الأفعال مراحل مباشرة لحياة الدعوة، بينما يعتبر البعض الآخر من هذه الأفعال مراحل غير مباشرة.

وتخبرنا حياة إبراهيم أنّ مناسك الحج كانت جزءاً من

المسلمين شعور بالدعوة وروح التبليغ؛ لاكتسب الحج تلقائيّاً أهمية دعوية، ولتحول إلى مؤتمر سنوي للدعوة، ولكن حين تنعدم روح الدعوة بين المسلمين يتحول الحج إلى عمل بلا روح، مثلما هو

حياته لأجل الدعوة، أو كانت محطات على مسيرته من أجل الله، ولكن الحج وزيارة الكعبة قد أصبحا نوعاً من نسك ديني سنوي لدى مسلمي العصر الحاضر، ولو قام في

عليه الآن في الغالب؛ إنهم يرمون الشيطان الحجري بالجمرات، ولكنهم لا يقومون بشيء لهزيمة الشيطان الحي؛ إنهم يقلدون أعمالاً رمزية، ولكن تكاد تنعدم فيهم رُوح

أداء الأعمال الحقيقية.

الحج وسيلة للوحدة:

إنّ أهم ما يميز مسلمي العصر الحاضر هو اختلافهم وانتشارهم؛ فما السبب في انعدام الوحدة الداخلية بينهم، بينما توجد لديهم مؤسسة اجتماعية نادرة كالحج؟!

وكان ينبغي أن يكون الحج ـ بمؤتمره السنوي العالمي ـ وسيلة قوية لاتحاد المسلمين، تذيب كل الخلافات الأخرى؛ ويعود السبب في هذا إلى أنّ الحج قد أصبح تجمعاً تقليديّاً بدلاً من أن يكون مؤتمراً حيّاً لحملة رسالة عظيمة.

وتتطلب الوحدة أن يُوجَد بين الناس هدف مشترك يركِّز أنظارهم وتوجهاتهم نحو الهدف الأعلى، فتوجهات الناس تتشتت في قضايا تافهة عندما يختفي الهدف الأعلى عن الأنظار، وهم لن يتحدوا فيما بينهم مهما عُقِدَت المؤتمرات الكبرى؛ والدعوة هي الهدف الأعلى للأمة المسلمة، وستتجه الأمة كلها إلى هدف أعلى لو برزت فيهم هذه العاطفة الدعوية، وعندئذٍ سيصبح مؤتمر الحج وسيلة لتحقيق الوحدة العالمية بين المسلمين، وبالتالي سيصبح الحج مركز الدعوة الإسلامية العالمية.

الحج عمل حيٌّ

وكان رسول الله ﷺ قد أدى حجة الوداع سنة ١٠هـ، وألقى في التاسع من ذي الحجة خطبة تفصيلية في وادي عرفات أمام أكثر من مائة ألف

من المسلمين؛ وتُعرَف هذه الخطبة بخطبة حجة الوداع، كما أنّ حجه هذا يعرف بحجة البلاغ؛ لأنه صلى الله عليه وآله أبلغ أمته كل التعاليم الإسلامية الأساسية في هذه الخطبة، وأخذ منهم عهداً بإبلاغها إلى الآخرين؛ وقال في آخر الخطبة: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب، فرُب مبلغ أوعى من سامع؛ وأنتم تُسألون عني، ماذا أنتم قائلون؟» قالوا: «نشهد أنك قد أديت الأمانة وبلغت الرسالة ونصحت، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد».

وتُوفي رسول الله صلى الله عليه وآله بعد شهرين من هذا وكان الإسلام قد انتشر في بلاد العرب وحدهم في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وخرج أصحابه الكرام إلى خارج بلاد العرب، وجعلوا رسالة حياتهم تبليغ الإسلام، وسخَّروا أنفسهم بكل ما يملكونه لأجل نشر الدين الإلهي، وكانت النتيجة أن انتشر الإسلام في جزء كبير من العالم القديم خلال خمسين سنة من وفاته صلى الله عليه وآله والناس لايزالون يؤدون وبدون انقطاع فريضة الحج بصورة منتظمة، ويردد الإمام كل سنة كلمات مماثلة لما قاله رسول الإسلام قبل أربعة عشر قرناً، ولكن كلمات هؤلاء الأئمة لا تؤدي إلى نتيجة ما هذه الأيام فما الفرق بين الحالتين؟!

إنّ الفرق يعود إلى أنّ الحج كان عملاً حيّاً في الماضي، وقد تحول اليوم إلى عمل تقليدي، والذين كان رسول الإسلام

يخاطبهم في حجة الوداع كانوا قد تجمعوا هناك لكي يسمعوا ويطيعوا، أمـا جموع الحجاج التي تتوجه إلى مكة والمدينة هـذه الأيام فلا يهمهـا إلا أن تؤدي بعـض الطقوس لتعود مرة أخرى إلى بلدانها؛ فتعيش كما كانت تعيش من قبل.

ومن هنـا نـدرك أنّ إحياء الحج كفاعـل مؤثر في الحياة الإسلامية اليوم يقتضي إحياء الحجاج؛ وما لم نُحي شـعور الحجاج، وبكلمة أخرى شعور المسلمين، فستظل عبادة الحج بدون أثر تماماً كبندقية فاسدة لا تطلـق النـار عندما يُضغط على زنادها.

تنظيم جديد للحج

وإحيـاء الحـج بروحـه الأصليـة يقتضـي إحيـاءه كمؤسسـة للدعـوة؛ فينبغي تسخير الحج كمركز للتخطيط العالمـي للدعوة الإسـلامية، وينبغي أن يعرض الناس من مختلف البـلاد أحوال الدعوة في بلدانهم في هذه المناسـبة العالميـة، فينبغـي أن يطلـع الناس على تجـارب المناطق الأخرى ويستفيدوا بها، ويجب على خطب الحج أن تركز على بيـان أهمية الدعوة وتشـرح إمكاناتها الجديـدة، وأن تُعدَّ مؤسسـة الحج مكتبة دعوية بمختلف اللغات؛ ليتم نشـرها على المستوى العالمي.

وينبغي أن ندرك أنّ توجيه الحـج علـى هـذه الخطوط الجديـدة لن يتم بدون توجيه حياة المسـلمين على خطوط جديدة، فمسـؤولية المسلمين الأساسـية هـي الشـهادة

على النـــاس، وعلاقاتهم مع الشـــعوب الأخرى هي علاقة الداعي والمدعـــو، ولكن هذه الحقيقة قد غابت عن مســـلمي العصر الحاضر؛ ويجب إحياء المسلمين كجماعة داعية؛ لكي يتم إحيـــاء الحج كمؤسســـة للدعوة، ويجب إقناع المسلمين بأن يُنهوا أنشـــطتهم القومية في كل أنحاء العالم التي تحول دون قيام جو الداعي والمدعو بينهم وبين الشعوب الأخرى؛ ولـــو لم يتوفر مثـــل هذا الجو بينك وبين الشـــعوب الأخرى، فمن ســـتدعو ومن سينصت إلى دعوتك؟

ثم يقتضي هذا الهدف أن نقيم جامعات من الطـــراز الأعلى، وتكـــون مناهجهـــا وأنظمتها موجهة للدعوة بصورة كلية، وأن تقـــام مؤسســـات تربي الدعاة تربية دعوية صحيحة، وأن تنشـــأ مكتبـــة تخلـــق بين النـــاس العقليـــة الدعوية وتسلحهم بمعلومات الدعوة، بـــل ويقتضـــي هـــذا الهدف أن ننشـــئ من جديـــد المكتبة الإسلامية الأساسية؛ لأن كتب التفسير والسيرة التي ألفت في العصر الحاضر قد كتبت بدافع رد الفعل على وجـــه العموم، فقد ظهـــرت هذه الكتـــب ردّاً على حملات الشعوب الأخرى الفكرية والعمليـــة، ولم تظهر لأجل الدعـــوة إلى الإســـلام بصورة إيجابية.

ولو عدتَ بمخيلتك إلى الوراء، إلى بدء العصر المكي؛ فسترى رسول الإســـلام يطوف حول الكعبة وحيداً؛ فكان للإســـلام تابع واحد فـــي العالم كله، أما اليوم فستشاهد جموعاً غفيرة

كل يوم تطــوف حول الكعبة، ثم ترى الجمــوع تتقاطر إلى مكة من كل أنحــاء العالم في أيام الحج؛ لدرجة أنّ المسجد الحــرام يضيق بهم كل ســنة على توسعته المستمرة، فكيف تحققت هذه الكثرة؟! والرد هو أنّ هذا تحقق بالدعوة.

فالحقيقــة هــي أنّ مؤتمــر الحج العالمي مظاهرة سنوية لقوة الدعوة الإســلامية، وهو يخبرنا بأنّ الله تعالى قد أودع أسرار كل الرقي والعظمة في قوة الدعوة الإســلامية؛ فنجاة أهل الإسلام دنيويّاً وأخرويّاً رهــن بقيامهم بهــذا الواجب، ونعرف مــن دروس التاريخ أنّ قوة الإسلام كانت دائماً في دعوته؛ صحيح أنّ الإسلام لم يتمكن في بدايتــه من التأثير فــي عوام النــاس بمكة إلا أن كل الأفراد ذوي القيمة، الذين أصبحــوا فيمــا بعــد أعمدة التاريخ الإســلامي هم أولئك الذين وجدهم الإسلام في بداية العصر المكي، وهذا يعود إلى الدعوة الإسلامية وحدها؛ لأنّ الإسلام لم يكن يمتلك قوة ما غيرها حينذاك.

ورجال مكة الذين أســلموا فيمــا بعد هــم أيضــاً تأثروا بأحقيــة الإســلام الفكريــة؛ واســتحكم أمر الإســلام في المرحلة الثانية، أي في العصر المدني بواسطة الدعوة نفسها، فلم يغزها الرسول ولم يفتحها عســكريّاً؛ بل آمن البعض من أهل المدينة بالإسلام ورجعوا دعاة إلــى الإســلام؛ فبدءوا يدعون الناس بأسلوب بسيط، بالإضافة إلى جهــود الداعية مصعب بن عميــر، ونتج عن

هــذا دخــول النــاس أفواجاً إلى الإســلام إلى أن أصبحت المدينة المركز الفكري والعملي للإسلام.

والحج وبيت الله علامتان على خطة دعوية عظيمــة، فعندما لم يســمع صوت إبراهيم عليه السلام في مناطــق العراق والشــام ومصر «المتحضرة» أســكن أسرته ـ بأمر الله ـ بمكة وبنى بها الكعبة؛ لتكون مركزاً دائماً للهداية الإلهية:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾.[2]

ويروي عمــرو بن عوف أنّ رســول الله صلى الله عليه وآله قال: «إن الدين ليأزر إلى الحجــاز كما تأزر الحيــة إلى جحرهــا وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبــل إن الدين بدأ غريباً ويرجــع غريباً، فطوبى للغربــاء، الذيــن يصلحون ما أفســد الناس مــن بعدي من سنتي».[3]

وهــذا يعنــي أنه كمــا كان الحجاز مركز الدعوة الإسلامية في حياة الرســول صلى الله عليه وآله فكذلك سيصبح الحجاز مركز إحياء الدين الإلهي، حين يختفي أثره من حياة النــاس؛ فالحج مقام العبادة الإلهيــة كما هو مركز الدعوة إلــى دين الله وتجديده. وتقتضــي الحاجــة أن نحيي الحج ومركز الحج مرة أخرى من هذه الناحية.

وقــد فتحت الثــورة العلمية كثيراً مــن الإمكانات الجديدة؛ ويمكــن نتيجة لهذه الإمكانات أن نســتخدم مؤتمــر الحــج العالمي لأجل التخطيط للدعوة على مســتوى أعظــم من أي

وقت مضى؛ فنجعل منهج الفكر الإسلامي هو المنهج الفكري الغالب على العالم مرة أخرى تماماً كما كان في العصور الماضية؛ هذا هو المعنى الذي يعبِّر عنه القرآن الكريم بكلمات «إظهار الدين» و «إعلاء كلمة الله» ولا يتحقق هذا الهدف إلا بإحياء أهمية الحج الدعوية مرة أخرى.

الجانب العاطفي في الحج

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾.[٤]

ونعرف من هذا أنّ عاطفة عبادة الله قد أودعت في النفس الإنسانية بصورة جبلية، فليس على الإنسان أن يعبدالله مراعاة للواقع فقط؛ بل فطرته هي الأخرى تطالبه بذلك؛ لأن عبادة الله هي من صميم الطبيعة البشرية، هذا هو السبب في أنه لا يوجد شيء يبعث في الإنسان الطمأنينة والسكينة الحقيقية مثل عبادة الله: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.[٥]

فكما أنّ الطفل الصغير يلجأ إلى أمه بصورة جِبِلِيَّة؛ فكذلك تقتضي جِبِلَّة الإنسان أن يلجأ إلى ربه، وليس بمقدور الإنسان أن يغير من شخصيته الداخلية، وكذلك ليس بمقدوره كذلك أن يطرد فكرة الله من قلبه ومخه، شهادة علم الإنسان المعاصر: وقد أثبت علم الإنسان المعاصر هذه الحقيقة بصورة علمية، وقد درس خبراء علم الاجتماع الحديث المجتمع البشري بعمق، ومن أهم الحقائق التي ظهرت عقب دراسة المجتمعات البشرية من

العصور الغابرة إلى اليوم أنّ الإنسان ظل مؤمنًا بالله بالرغم من كل التطـورات والتغيرات التي مـر بها؛ فالإيمـان بالله والديـن جـزء لا يتجـزأ من الفطرة البشـرية، وننقل فيما يلي فقرة مـن دائرة المعارف الأمريكية.

دائرة المعـارف الأمريكية ٢٣ :٣٥٤ ، ط. ١٩٦١حـول بحوث علم الإنسان المعاصر:

كان الإنسـان مؤمنًا بالدين بدرجـات متفاوتـة منذ بداية التاريخ البشـري، فكان دائماً يؤمـن بإلـه أو بعـدة آلهـة طالبـاً الحمايـة، وكانت هذه الآلهـة مصنوعة فـي بعض الأحايين من خشـب أو حجر، كمـا أنها اتخذت فـي أحايين أخـرى أشـكال حيوانات أو زواحف أو حيوانـات مخيفة تسـعى إلى مصّ دماء الذين يعبدونها، ولكن أيّاً كانت هذه الآلهة فقـد عبدها الإنسـان؛ لأنّ الدين ـ المتمثل في عبادة قوة خارقـة للطبيعـة ـ جزء لا يتجـزأ من نسـيج الطبيعة البشرية؛ والحقيقة أنّ الشعور بالله كامن بصـورة جِبِلِيَّة في الفطرة الإنسانية، ولكنه شعور إجمالي.

وعندما لا يهتدي الإنسـان إلى الإله الحقيقـي؛ فهو يتجه إلى عبادة الآلهة التي تصنعها أوهامـه؛ وسـتجد الفطـرة البشرية سـكينة لهذه العاطفة الفياضة في عبـادة الله وحده الذي لا شـريك له لو تيسـر لهـا الاهتداء إلى رسـالة نبي من أنبياء الله، أمـا لو لم تظفر بالهداية النبوية؛ فستعبد آلهة باطلين لتسـكين هذه العاطفة

بصورة اصطناعية.

والمقصود الأصلي للإنسان واحد لا غير، وهو خالقه ومالكه؛ وهذا المقصود الأصلي جزء عميق من فطرة الإنسان، ولو أنصت الإنسان إلى طبيعته؛ فإنه سيهتدي إلى الله، وهو سيشعر به في نبضات قلبه، فهذه الفطرة «لا شعور» الإنسان، والرسول ينقل الإنسان من هذا اللاشعور إلى مستوى «الشعور».

ولكن الإنسان مخلوق من نوع معين؛ فلا تكفيه المعرفة الغيبية؛ بل هو يريد أن يكتشف الله بصورة حسيَّة أيضاً؛ فيدرك الله إدراكاً محسوساً؛ ولكن العائق هنا هو أنه لا يمكن للإنسان أن يدرك الله إدراكاً محسوساً حقيقيّاً ... واختلفت أفهام وأقوال علماء المسلمين فيها:

١. لا يرى سبحانه وتعالى بالأبصار لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهو محل اتفاق العدلية.

٢. تجوز رؤيته في الدنيا والآخرة، ومنهم المجسمة الذين يصفونه سبحانه بالجسم ويثبتون له الجهة.

٣. وأهل الحديث والأشاعرة، مع أنهم يعدون أنفسهم من أهل التنزيه، ولا يثبتون الجسمية والجهة لله سبحانه، قالوا برؤيته يوم القيامة، وأنه ينكشف للمؤمنين انكشاف القمر ليلة البدر.

سورة البقرة، آية شعائر الله

كيف يمكن تلبية هذه الرغبة البشرية في هذه الدنيا؟! وقد هيأ الله تعالى إجابة على هذا

السؤال في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.[٦]

لقد جعل الله بعض الأشياء ـ لأهميتها التاريخية ـ «شعيرة» أي علامة عليه؛ وقد وفر الله تعالى حول هذه العلامات حالة معينة بحيث تعتبر مشاهدتها هي مشاهدة الحقائق العليا؛ لكي يجد الإنسان بصورة غير مباشرة الحقيقة العليا التي لا يمكنه أن يجدها بصورة مباشرة في هذا العالم؛ فالإنسان لا يستطيع أن يجد الله في هذه الدنيا، إلا أنه يستطيع أن يشاهد شعائر الله، وليس بإمكان الإنسان أن يجد الله في هذه الدنيا؛ فيلمسه أو يشعر بقربه إلا أنه يستطيع أن يلمس شعائر الله؛ فيحصل على التجربة الحسية للقربة الإلهية.

والشعيرة، وجمعها شعائر، تعني علامة أو تذكاراً، فهي ليست أصلاً في ذاتها؛ بل هي تذكِّرنا بالأصل بناء على علاقة ما، ومن أمثلته جبلا الصفا والمروة اللذان قال عنهما القرآن: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ والصفا والمروة جبلان بمكة بالقرب من بيت الله، والمسافة التي تفصل بينهما نحو ٥٠٠ قدم، ولم يكن بهذه المنطقة سكان أو مياه حين أسكن إبراهيم عليه السلام زوجه هاجر وابنه الرضيع إسماعيل؛ وحين انتهى ما كان لدى السيدة هاجر من ماء، سعت سبع مرات بين هذين الجبلين بحثاً عن الماء، واليوم يسعى

الحجاج سبع مرات بين هذين الجبلين تخليداً لذلك السعي.

وقد أحب الله تعالى هذه الواقعة؛ فجعل الصفا والمروة شعيرتين لله؛ أي أنهما تذكاران أصيلان للعبودية لله، فنتذكر تاريخًا كاملاً برؤية الصفا والمروة، حين هجر عبد من عباد الله وطنه الخصيب «العراق» وأسكن زوجه وابنه في منطقة جدباء ابتغاء مرضاة الله وحده، وهذا مثال كامل للاعتماد على الله والثقة به.

وهكذا الكعبة، والحجر الأسود، ومقامات الحج الأخرى، هي كلها من شعائر الله وهي علامات على حياة العبودية الخالصة التي عاشها الموحد الكامل إبراهيم عليه السلام فنتذكر حياة إبراهيم التوحيدية برؤية هذه الشعائر، وتتجسد للناظر إليها عظمة الله وجلاله، ويشعر الإنسان وهو في بيئة هذه الشعائر كأنه في بيئة الله.

ومن آثار لمس الحجر الأسود استيقاظ العواطف الروحية في نفس الإنسان؛ لتسكن هذه العاطفة الجياشة في الصدور، وليظفر الإنسان بسكينة هذه العواطف بلمس الحجر الأسود، وهكذا يتوق الإنسان إلى أن يطوف حوله؛ ليسكن هذه العاطفة بالطواف حول بيت الله المقدس.

ويريد الإنسان أن يسعى ويجري في سبيل ربه وهو يحصل على سكينة لهذه العواطف حين يسعى بين الصفا والمروة، وهكذا تسكن كل مراسم الحج بصورة أو أخرى العواطف الكامنة في

النفس البشرية، وهي وسيلته لإقامة علاقة حسية مع ربه في هذا العالم.

وعاطفة العبودية لله وحده كامنة في فطرة الإنسان؛ وما الشرك وعبادة الأصنام إلا إساءة لهذه العاطفة الفطرية؛ أما عقيدة التوحيد فتوجه هذه العاطفة الفطرية وجهة صحيحة، وهكذا مراسم الحج؛ فالحج من إحدى النواحي إصلاح لخطإ بشري، وهو يمنع الإنسان من السير في الاتجاه الخاطئ، ويوجهه الاتجاه الصحيح، فالحج شكل صحيح لتسكين عاطفة بشرية يبحث الإنسان عن سكينتها بأساليب باطلة.

ويريد الإنسان المنحرف الضال أن «يشاهد» ربه في الدنيا، وأن «يجده» بصورة حسية؛ لكي يؤدي أمامه مراسم العبودية، ولكي يسكن الإنسان هذه العاطفة نحت صوراً مرئية أو أصناماً وتماثيل وأخذ يعبدها ظنّاً منه أنها على صورة الله، ولكن هذا السلوك «إلحاد» أي انحراف في تعبير القرآن؛ وشعائر الله إجابة أصح وأفضل للبحث البشري الضال لتسكين عاطفة فطرية في صورة الأصنام؛ وأن تصنع صنماً لله ليس كأن تصنع تمثالاً لأحد البشر، فالذي يصنع تمثالاً لشخص ما يكون قد رأى ذلك الشخص، أو اطلع على صورة له على الأقل؛ ولكن لا يمكن لأي صانع تماثيل أو أصنام أن يدعي أنه قد شاهد الله.

والذي يصنع صنماً لله فهو يحدد ويحجم ذلك الوجود الذي

لاحدود له، وهو يضع وجوداً أعلى وأعظم في قالب أشـياء أدنى؛ وكل عمل من هذا النوع مخالف للواقـع، وهو مرادف للخروج والتمرد على الخالق؛ والحج في ناحية من النواحي إصلاح لهذه العقلية البشـرية؛ ورسالة الحج هي: لا تحاولوا أن تهبطوا بإله إلى مسـتوى التماثيل؛ بـل انظروا إليه على مسـتوى شـعائره، فليـس بوسـعكم أن تجدوه في هذه الدنيا على مستوى ذاته الإلهية، ولكـن يمكنكم أن تجدوه على مستوى آثار تلك الذات العليا، وهـي «الشـعائر» التي قامت نتيجة أعمال عباد الله العظام، وهي الاعتبار، والتأسـي بتلك اللمحات التاريخيـة التي قام خلالها اتصال بين الله ورسوله الصالح إبراهيم عليه السلام وشعائر الله هي آثار أولئـك العظام الذين اختاروا العبودية لله بصورتها العليـا المعياريـة، وآثارهم هي التي تُوصَف بشـعائر الله، وتُؤدَّى جميع مناسـك الحج عنـد هـذه الشـعائر، والبعد عنها بعد عن الله،

والعلاقة بها علاقة بالله.

علاقة بالله

ومن أهم جوانب الحج أنه لقاء العبد بالحقيقة العليا، وتغشى العبد كيفيات ربانية من نوع خاص؛ فيشعر بأنه قد خرج من «دنياه» إلى «دنيا الله» وأنه يلمس ربه ويطوف حوله ويسعى نحوه ويسير هنا وهناك من أجله، ويقدم الهدي لمرضاته، ويرمي أعداءه بالجمرات، ويسأله كلما أراد أن يسأله، ويجد منه كل ما رغب فيه.

وميدان عرفات منظر عجيب فترى عباد الله يأتون فوجاً بعد فوج من كل النواحي، وعلى جسد كل واحد منهم لباس بسيط من نوع واحد، وقد فقد الكل صفته المميزة، وعلى لسان الكل شعار واحد «لبيك اللهم لبيك، لبيك اللهم لبيك».

وإنه حين ترى هذا المنظر تتذكر الآية القرآنية: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾.[٧]

والحقيقة أنّ اجتماع عرفات خبر مقدم لاجتماع يوم الحشر، بحيث ترى في هذه الدنيا صورة من صورة الآخرة، وقد جاء في الحديث: «الحج عرفة» ويخبرنا هذا الحديث بأهم أهداف الحج، وهو أن يتذكر العبد مثوله أمام الله في ميدان الحشر، وأن يجري على نفسه رمزيّاً وذهنيّاً ما سيجري عليه غداً فعلاً وحقيقة.

والكعبة هي بيت الله الواحد الأحد، وقد بناها نبيان جليلان هما إبراهيم، وإسماعيل عليهما السلام وذكريات حياتهما العليا، ووقائع تضحياتهما المدهشة مرتبطة بهذا البيت، وعبير حياة رسول آخر الزمان، وأنشطته الربانية يعطر أجواءه.

والمسلم يقرأ عن وقائع هذا التاريخ المثالي للعبودية والتضحية من أجله في الكتب، هو يسمع منذ صباه ـ وحتى خروجه للحج ـ وقائع هذا التاريخ لدرجة أنها تصبح جزءاً لا يتجزأ من ذاكرته، وتحيا كل هذه الذكريات فجأةً حين يصل الإنسان بعد وعثاء السفر، ويقف وجهاً لوجه أمام الكعبة، فهو يجد نفسه واقفاً أمام تاريخ كامل، تاريخ خشية الله، وحبه، والتضحية من أجله، واختياره معبوداً بدون شريك، والاعتراف به قادراً مطلقاً، ومحو النفس من أجله ولمرضاته، إنك تجد تاريخاً ربانيّاً عظيماً كهذا مُجسَّداً في صورة الكعبة، فترى هذا التاريخ مكتوباً على الأحجار والرمال، ويهتز عقلك بهذه التجربة التي تذيب قلبك، وتحولك إلى إنسان جديد تماماً.

رحلة للحج

ويختم هــذا بقوله: وكنت قد كتبت في رحلتي للحج ســنة ١٩٨٢ كنا نقيم بشارع إبراهيم الخليل القريب جدّاً من الحرم، ولذلك كنتُ أقضي معظم وقتي داخــل الحرم ما عــدا أوقات الأكل، وفترات النوم القصيرة، وكانــت وتيرتــي كل يوم أن أتوضأ بماء زمــزم عند باب الهجــرة، ثم أشــرب من مائه حتى أرتوي، ثم أدخل الحرم، وكنتُ أذهب في معظم الأوقات إلى الجــزء العلوي من الحرم؛ لأنه كان أكثر ســكوناً لخلوه النســبي من الزحــام، وكنتُ أصلــي هناك، وأتلــو القرآن، وأنظر إلى الكعبة، وأتذكر الله، وكانت الساعات تلو الساعات تمــر هكــذا بدون أن أشــعر بمــرور الوقــت، ومهما كان الوقــت متأخــراً إلا أنني كنتُ أشعر ـ عند العودة من الحرم ـ أن نفسي لم ترتوِ بعد، والكيفية التــي تمر على قلب الإنســان وهو جالــس أمــام الكعبة لا يمكن بيانها بالكلمات.

الراحة في المعاناة:

يتجمع أناس مــن كل أنحاء العالــم خلال الحــج، ويتأذى النــاس بعضهم مــن البعض الآخر مرة بعــد أخرى خلال الحج، ويجد المرء نفســه في مواقف تشــق على نفسه؛ ولو توجه المرء في موقع كهذا إلى ربه؛ لتغيرت حاله، وستتحول أمرُّ التجارب إلى أحلاها عنده، والشــيء الذي يعطيه الرزق النفســاني في الأحوال العادية ســيتحول إلى الرزق الرباني في مثل هذه الحالة.

وعلى سبيل المثال: أنت واقف تصلي في المسجد الحرام، فإذا بطوفان من الناس يزحف ولا يجد متسعاً من المكان، فيقف الناس أمامك يصلون، وأنت لا تجد متسعاً حتى للركوع والسجود بصورة سليمة؛ ولو توجهت ببصرك إلى أولئك الناس، فلن تجد في نفسك إلا مشاعر الغضب والبغضاء، ولكن أمرك سيتحول إلى شيء آخر تماماً لو بدأت تحاسب نفسك في هذه الحالة، فقلت: يا رب تقبل مني هذه الصلاة على ما فيها من نقص؛ لأنّ صلواتي الأخرى التي أظنها صحيحة في ظاهر الأمر هي ضعيفة وناقصة كصلاتي هذه؛ ولو حول الإنسان ذهنه على هذا النحو فستختلف حاله تماماً، والحدث الذي يغذّي عامة الناس بالغضب والبغضاء سيعطيهم غذاء القرب الإلهي في مثل هذه الحالة.

وهكذا تحدث مختلف التجارب المريرة خلال الحج، مثل زحام البشر عند رمي الجمرات، وغيره من المناسبات، وشدة الحر بمنى وعرفات، وتدافع الناس لأجل الماء، وتقع أحداث وتجارب كثيرة خلال رحلة الحج، ولو ركّزت بنظرك على ذلك الحادث وحده، فستثور في نفسك نوبات الغضب والتوتر؛ أما لو بدأت تفكر في أنه لو كانت مشكلات هذه الدنيا الصغيرة مزعجة إلى هذا الحد، فكيف ستكون مشكلات يوم القيامة؟ فستجد من فورك أنّ الشيء الذي كان يزعجك هو عينه مبعث الراحة في نفسك

ورحمة من ربك تظللك.

رحلة غير عادية:

وقد كتبت في رحلتي المذكورة للحج في معرض انطباعاتي: خرجت زائراً بعض البلدان سنة ١٩٨٢، ولم يكن الحج في برنامج زيارتي، ولم يكن حتى يجول في خاطري حينئذ أن أتوجه إلى الحجاز، لتأدية الحج تلك السنة؛ وحين ذهبت إلى بلد أفريقي، وجدت هناك صديقاً كريماً، وفجأةً توفرت أسباب سفر الحج، وحدث لي في هذه القضية ما يصوّره أحد شعراء الأردية في بيت شعر له يمكن ترجمته كالآتي:

أسأل موسى عن أحوال عطايا الرب.

فهو يذهب باحثاً عن نار، ويفوز بالنبوة.

وكان من باب الحرمان أنني لم أكن قد خططتُ بعد لرحلة الحج، لقد خرجت من أرض الوطن في سفر آخر، ولكن الله تعالى أوصلني بصورة غريبة ـ عبر رحلة في آسيا وأوروبا وإفريقيا ـ إلى أرض الحرم لأنعم بالحج، كنت حاجاً ولكن الله تعالى وحده الذي هيّأ لي أسباب الحج؛ فليس لأحد آخر يد في هذا السفر، ووصلت في نهاية الأمر إلى الحرم، ووقع بصري على الكعبة، فكان منظراً لا يمكن للكلمات أن تعبر عنه، فأن تنظر إلى الكعبة وتجد نفسك في رحاب تجربة يعجز قلمي عن التعبير عنها، ومرت بقلبي كيفية عجيبة بهذه النعمة، التي لم أكن أتوقعها، فخرج من

لســاني: يا رب، لم أخطط في حياتي إلى اليوم لرحلة الحج، أي أنني كنت راضياً أن أموت بدون الحج، فما أعظم إحسانك أن أنقذتني مــن هذا الحرمان الذي لا يوصف بكلمات.

وهــذه الانطباعات في ظاهر الأمر هــي انطباعات حاج في لحظات خاصــة، ولكن ينبغي أن تكون هــذه انطباعات كل حاج، فعليه أن يدرك أنّ حجه إنما هو تدبير مــن الله تعالى، وعليــه عندما يجد نفســه في رحاب الحرم أن يشعر بأنّ الله وحــده أوصله إلــى هنا، فقد خــرج كمســافر عــادي من وطنــه، والآن هــو ضيف الله فــي بيته ولم يقطــع الحاج إلا المســافات المادية، ولكنه حلّ فــي بيئــة تفيــض بالبركات الإلهية الربانية، ولم يكن لديه إلا الحرمــان، لكــن الله تعالى برحمته الخاصة حول حرمانه إلى إنعام.

العطاء بقدر الكفاية:

الكعبة علامة من علامات الله على وجه الأرض، لقد وفّر الله هنا أســباباً تاريخية، فلا يبقى زائر لها بــدون أن يتأثر بها، وهو المكان الــذي تعانق فيه الأرواح الضالــة ربَّها، وهناك تفيــض عيــون العبودية من القلــوب المتحجرة، وتشــاهد العيون العميــاء تجليات ربها؛ ولكــن مبــدأ «العطــاء بقدر الكفاية» يجري في هذا العالم، ولا يظفر بالعطاء إلا من يحمل الكفايــة لتلقيــه، أمــا عديمو الكفايــة فلا يعــدوا أن يكون حجهم ســياحة، فهم يذهبون إلى هناك ليرجعوا كما كانوا.

وكتبت في رحلتي المذكورة: المناظر الربانية التي شاهدتها هناك لا سبيل إلى بيانها، والمناظر البشرية التي رأيتها هناك، لا سبيل إلى وصفها كذلك، فقد رأيت الناس مشغولين في شراء الحاجات الدنيوية، بينما وجدت البعض الآخر منهم وهو يقوم بإظهار عاطفته الدينية الجياشة بدفع الآخرين؛ ليخلو له المكان بينما مثل هذا السلوك لا يجوز أصلاً في الحج.

والمناظر الربانية تملأ الجو لكي ينهمك فيها الإنسان؛ ولكن معظم البشر المجتمعين هنا منهمكون في المناظر البشرية، والملائكة تنزل هنا لكي يناجيهم البشر، ولكن الناس يناجون بعضهم البعض، والآخرة معروضة هنا للبيع، ولكن الناس يتساقطون ليشتروا الدنيا، وحيث كان ينبغي أن يبقى الإنسان في الخلف خشية من الله، يتدافع الناس إلى الأمام ليظهروا مهارتهم في سبق الآخرين.

بعض الناس يفهم حث الرسول صلى الله عليه وآله على الصلاة في الصف الأول، على أنها معركة يجب أن يسبق فيها، لكن الحقيقة أنّ المراد الذهاب للصلاة مبكراً بدون سباق وتخط للرقاب وتكدير للآخرين.

بعض الانطباعات:

وكتبت كذلك في رحلتي هذه للحج: قمنا بأداء طواف الوداع مساء ٤أكتوبر ١٩٨٢، وتوجهنا إلى المدينة ليلاً؛ وكانت كيفية عجيبة تنتابني عندما خرجت

من الحرم بعد هـذا الطواف، فكنت ألتفت إلـى الخلف مرة بعد أخرى؛ لألقي نظرة أخرى على بيـت الله الحـرام، كانت قدماي تسـيران إلـى الأمام، ولكن قلبي كان مشـدوداً إلى الخلف، وكنت أشعر أنني أخرج من وطنـي الحقيقي إلى وطن غريب؛ وبهذه الكيفيات غادرت المسـجد الحرام متوجهاً إلى المدينة ليلة ٤ أكتوبر.

وكان دخولنـا إلـى الحرم المدنـي مؤثراً غايـة التأثر، فقد مـرَّ أمامي التاريخ الكامل للإسـلام ورسـول الإسلام، وخـرج الدعـاء الآتـي مـن شـفتيّ: يا رب أصلي وأسلم علـى رسـولك، اكتبنـي في أمة رسـولك، واجعلني فيمن سيشفع لهم يوم القيامة ممن ستقبل فيهم الشفاعة، وتنجيهم من عذاب الجحيـم وتدخلهم الجنة.

وكنـا في فنـدق بالقرب من المسجد النبوي، وكان صوت الأذان والتكبيـر يصـل إلـى داخل غرفتنا، ووفّقت إلى أداء الصلوات عدة أيام في المسجد النبوي، ولكن هجوم المصلين لم يكن يسـمح لنـا أن نؤدي الصلوات في سـكون، وكنت أعاني من هذا في الحرم المكي خلال الأيـام الأولـى إلى أن بدأت أصلي في طابقه العلوي حيث كنت أتمتع بسكون كبير، ولا نعرف لماذا لم يبنوا دوراً علوياً للمسـجد النبوي أيضاً؛ لكي يلجـأ إليه الإنسـان من الزحام.[٨]

والمسجد النبوي واسع وفخم بصـورة غير عاديـة، ولكنه على سـعته لا يكفـي للأعداد

المتزايدة من الزوار، ولم يكن منظراً سعيداً لشخص مثلي أن يرى الدكاكين والفنادق تحيط بالمسجد ما عدا جانباً واحداً أقاموا عليه بناءً أشبه بالخيام لأداء الصلاة، وليت المسجد النبوي كان محاطاً بالميادين المفتوحة من كل جانب لتظهر عظمته، وهذا هو عين ما يجده المرء حول الحرم المكي؛ وقد هيأت الحكومة، الكثير من أفضل التدابير لتسهيل المناسك، الأمر الذي سهل الحج كثيراً في العصر الحاضر، ولكن هناك شيء يبدو أنه لا حلّ له، وهو هجوم الحجاج، وخصوصاً تدافع الناس على بعضهم البعض عند رمي الجمرات، الذي يعتبر أمراً مؤسفاً للغاية؛ وكثير من الناس يهجمون في وقت واحد لرمي الشيطان بالجمرات، ولكن يبدو أنهم توّاقون إلى تحطيم الإنسان الحقيقي أكثر منه إلى رجم الشيطان الرمزي، ولم أرَ في حياتي مثالاً أسوأ من هذا التجاهل لأمر إلهي في سبيل تأدية أمر إلهي آخر، وقد رأيت عدداً من الناس بالجبس حول أيديهم وأقدامهم لإصابتهم، ثم شاهدت حاجاً يتساقط أمام تدافع الحجاج ويموت تحت أقدامهم، وأخبرني الناس أنّ وقائع كهذه تحدث كل سنة، فما أعجب هذا الحج الذي يتدافع فيه الناس لرمي عدو رمزي فيقتلون إنساناً حقيقياً!

تجديد الإيمان:

ويمكن اعتبار الحج تجديداً للإيمان، فكأن الحاج يبايع ربَّه مباشرةً عندما يصل إلى مكة،

ويطوف حول الكعبة مردداً «لبيك اللهم لبيك»، وسقوط الذنوب السابقة على الحج يقع طبقاً لنفس القانون الذي يُسقط الذنوب التي يرتكبها المرء قبل إسلامه؛ وتبدأ هذه المعاملة الإلهية مع العباد عند إيمانهم الأول، وتكتمل بعد الإيمان الثاني المتمثل في الحج، فإذا كان الإيمان الأول إيماناً بصورة غير مباشرة، فالإيمان الثاني إيمان مباشر؛ ويكفي الإيمان الأول لتطهير العبد من تبعات ذنوبه السابقة، ولكنه يكتمل بالإيمان الثاني لو كان العبد مستطيعاً رحلة الحج، ولعله لهذا ورد في الحديث: «من استطاع أن يحج ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً».[٩]

الوحدة الإسلامية

وعن الحج والوحدة الإسلامية، والعلاقة بينهما، وآثار الحج في المشروع الوحدوي للأمة، يقول لمؤلف:

الوحدة الإسلامية جانب من جوانب الحج، فالمسلمون من كل أنحاء العالم يجتمعون في مكان واحد، ويؤدون معاً مناسك الحج، فالحج هو الاجتماع الديني العالمي للمسلمين، ولنتدبر معاً الآيات القرآنية التالية:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأمناً﴾.[١٠]

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ﴾.[١١]

﴿جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾.[١٢]

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾.[١٣]

﴿وَأَذِّنْ فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.[١٤]

المركز العالمي للتوحيد:

نعرف من خلال هذه الآيات أنّ الهدف الإلهي وراء بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة، كان إعداد مركز لأهل التوحيد، يؤمه الناس من قريب وبعيد، وهيّأ الله أسباباً تاريخية حول الكعبة؛ لتنجذب إليها قلوب الناس، فيقصدوها جماعات وأفواجاً، فبيت الله هو المركز الإسلامي العالمي إلى يوم القيامة، وهو مقر الاجتماع العالمي السنوي لكل مسلمي العالم، ولذا تقول الروايات: إنّ الله تعالى أمر إبراهيم بأن ينادي في الناس بأن يأتوا هذا البيت زائرين، فقال: يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا يصل إليهم؟!

فقال: نادِ وعلينا البلاغ.

فقام على الحجر وقال: يا أيها الناس، إنّ ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوا إليه.

فيقال: إنّ الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك.[١٥]

وهذا لا يعني أنّ كل الناس على وجه الأرض ممن كانوا موجودين في ذلك الوقت، وممن ولدوا في المستقبل، سمعوا صوت إبراهيم في نفس ذلك الوقت، بل كان صوت إبراهيم نداءً رمزياً،

لقد سمع الناس كلهم هذا الصوت بدون شك، ولكنه كان سمعاً بصورة رمزية وليس بصورة فعلية، فقد كان النداء الإبراهيمي بدءاً لواقعة مستمرة لا تنقطع، فأطلق إبراهيم نداءه في عصره، وأخذه الآخرون من بعده فأسمعوه لمن في عصرهم، وهكذا استمر هذا العمل جيلاً بعد جيل، وعندما جاء عصر الصحافة والإذاعة، انتشر هذا الصوت على مدى أكبر، فجاوز الجبال والبحار حتى تلاشى الخوف من أن يوجد على وجه البسيطة من لم يصله هذا النداء الإبراهيمي.

إعلان عام:

والحج هو المقام الطبيعي لإعلان القضايا الاجتماعية، ولذلك أعلنت أهم أمور الإسلام في مناسبات الحج، ومن أمثلته إعلان البراءة من الكفار والمشركين، والذي تمَّ بعد نزول سورة التوبة.

وكانت مكة قد فتحت في رمضان سنة ٨ هجرية، ووقعت ثلاث حجّات بعد ذلك في حياة الرسول صلى الله عليه وآله ولم يقم رسول الله صلى الله عليه وآله بالحج خلال السنتين الأوليين، بل أدى في السنة العاشرة حجته المعروفة عموماً بحجة الوداع، ثم توفي إلى رحمة الله.

لما نزلت براءة على رسول الله صلى الله عليه وآله ... قال: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي» ثم دعا علياً عليه السلام فقال: «اذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج

بعد العام مشـــرك، ولا يطوف بالبيت عريان».

ويقـــول علي عليه السلام أنـــه طاف بمكـــة معلنـــاً إعـــلان البراءة بين الجمـــوع إلى أن «صحل» صوته.[١٦]

لقد نـــزل حكم البـــراءة من مشـــركي الجزيـــرة العربيـــة وكفارهـــا في المدينـــة إلا أنه أعلن بمكة خلال موسم الحج، وهذا دليـــل واضـــح على أنّ موســـم الحج بمكة هو المكان الصحيح لإعـــلان كل القرارات الإسلامية الهامة.

فالحج هو المركز الاجتماعي لـــكل مســـلمي العالـــم ، وهم يجتمعون هنا وعليهم أن يعلنوا هنا قراراتهم الكبرى، وعليهم أن يضعوا هنا الخطط العالمية للأعمال التي تجب عليهم تنفيذاً لأوامر الله ورسوله.

والمثـــال الواضـــح الثانـــي لهـــذا هو خطبة حجـــة الوداع، التي هي أهـــم خطبة في حياة الرســـول صلى الله عليه وآله فمن خلالها أراد أن يعرِّف النـــاس بمقتضيات الديـــن الأساســـية بصـــورة نهائية قبيل وفاته، ولم يعلنها الرسول صلى الله عليه وآله في أي مكان آخر، بل أخّرها إلـــى أن حان الحج ســـنة ١٠ هجرية؛ ولذلك قال في مستهل الخطبة:

«أيها الناس، اســـمعوا قولي، فإنـــي لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف».

ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله الناس بكل أمور الدين الأساسية، ثم سألهم في نهاية الخطبة:

ألا هل بلغـــتُ، ألا هل بلغتُ؟

فشهد الناس بنعم، قد بلغتَ.

وكانت الجزيـــرة العربية قد دانت لـــه بعد فتح مكة ســـنة

٨ هجرية، وكان بإمكان رسول‌الله صلى الله عليه وآله أن يتوجه إلى أي مكان غير مكة ليذيع هذا الإعلان، وكانت المدينة مركز الإسلام السياسي حينئذ، وكان بإمكان رسول‌الله صلى الله عليه وآله أن يستقدم الناس إلى المدينة؛ ليقوم بهذا الإعلان أمامهم، ولكنه لم يسلك هذه الطرق بل انتظر الحج، فأعلنها بعد وصوله إلى مكة؛ وهكذا تبين سنة رسول‌الله صلى الله عليه وآله أنّ الحج هو المكان الأنسب لإعلان كل الأمور والقرارات الهامة في الإسلام.

أسلوب فطري:

ويعود السبب في هذا الاختيار إلى أنّ الإسلام يفضل الأسلوب البسيط والطبيعي لكل الأمور؛ وعلى سبيل المثال: فإنّ من أعمال الحج السعي بين الصفا والمروة، وهنا ثار سؤال «الترتيب» أي هل يبدأ السعي من الصفا أو من المروة؟

وحين قام رسول‌الله بالسعي قال: «أبدأ بما بدأ الله به».

وكان يشير بذلك إلى الآية القرآنية التالية: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

وهي الآية التي تأمر الحاج بالسعي بين الصفا والمروة، وهي تقدم الصفا على المروة، فجعل رسول‌الله ترتيب العمل على غرار الترتيب القرآني البياني؛ لكي لا يضطر الإنسان إلى حفظ ترتيبين:

أحدهما في القرآن وآخرهما في مناسك الحج.

وقد جعل الحج مكان الإعلان مراعاةً لهذه الحكمة الطبيعية،

فيجتمع المسلمون من كل أنحاء العالم لأداء شعائر الحج كل سنة، وسيظلون يجتمعون لكي يكفي اجتماع واحد؛ لتحقيق هدفين في آن واحد.

ومن فوائد الإعلان الاجتماعي عند الحج أنّ مثل هذا الإعلان يكتسب نوعاً من القدسية، فإنّ الحج هو أقدس مكان في نظر المسلمين، والإعلان الذي يتم عند الحج يكتسب نوعاً من القدسية والاحترام في أنظار الناس.

وفي الفصل الثامن: راح المؤلف يدون مسائل الحج وأحكامه والمواقيت، ومحظورات الحج، وترتيب مناسكه، ومصطلحات الحج ذاكراً ٣٦ مصطلحاً، منها: الآفاقي، والإحرام، والاستلام، والاضطباع، والإفراد، وأهل الحرم، وأهل الحِل، والحلق، والتقصير، والتلبية، والتمتع، والجمرات، والحجر الأسود، والسعي، ومقام إبراهيم.

ثم ينتقل إلى فقرة آثار إسلامية ذات معان تاريخية، فيذكر ٣٢ أثراً كأحد، وبدر، وجبل ثور، وجنة البقيع، والصفا، وعرفات، وقرن المنازل...

ثم ينتقل إلى ذكر المساجد الخمسة في المدينة، يقال: إنها تقع في المكان الذي حفر فيه الخندق، مسجد الخيف، ومسجد قبا، ومسجد القبلتين، ومسجد نمرة.

وكل هذه الفقرات يذكرها، ويضع مقابل كل واحدة تعريفاً مختصراً لها.

وفي هذا الفصل يذكر زيارة المدينة المنورة، ويفرد لها مساحة أربع صفحات تقريباً،

يتحدث فيها عن زيارة ضريح رسول الله ﷺ وأهميتها، وآدابها، وآثارها.

وأختم كلامي بما ذكره ظفر الإسلام خان: إنّ «حقيقة الحج» حقيقة عظمى بلا ريب، ولقد نجح المفكر الكبير «وحيد الدين خان» في تجلية كثير من جوانب هذه الحقيقة بأسلوبه الرائع، وبثقافته العميقة الأصيلة والعصرية في سياق واحد. والحمد لله رب العالمين.

هوامش

١. البقرة : ١٢٦.
٢. آل عمران : ٩٦.
٣. أخرجه الترمذي: أبواب الإيمان، باب بدأ الإسلام غريباً.
٤. سورة الذاريات: ٥٦ .
٥. سورة الرعد: ٢٨.
٦. سورة البقرة : ١٥٨.
٧. سورة يس : ٥١.
٨. كتب هذا قبل التوسعة الهائلة للمسجد النبوي.
٩. رواه الترمذي في أبواب الحج، باب في التغليظ في ترك الحج.
١٠. سورة البقرة : ١٢٥.
١١. سورةآل عمران : ٩٦.
١٢. سورة المائدة : ٩٧.
١٣. سورة إبراهيم :٣٧.
١٤. سورة الحج : ٢٧.
١٥. تفسير ابن كثير، الآية: ٢٧ من سورةالبقرة.
١٦. وصَحِلَ فلان يصحَل صحلاً: كان في صوته بُحَّة؛ المعجم الوسيط: ٥٠٨ .

جولة حول الصحافة في السعودية

وفاة آية الله الشيخ العَمْري

أبرز رجال الدين الشيعة في المدينة المنورة

توفي يوم الاثنين(٢٠/صفر/ عام ١٤٣٢هـ) آية الله الشيخ محمدعلي العمري قدس سره أبرز رجال الدين الشيعة في المدينة المنورة عن عمر ناهز المائة عام بعد صراع طويل مع المرض.

وقضى الراحل العمري سنواته الأخيرة طريح الفراش في الوقت ظل ينظر إليه باستمرار بمثابة الأب الروحي للسعوديين الشيعة في المدينة المنورة.

وكان الشيخ قد دخل قبل نحو أسبوعين في غيبوبة اثر تدهور حالته الصحية، وظل يرقد في قسم العناية المركزة بإحدى مستشفيات المدينة إلى حين إعلان وفاته.

وعرف الشيخ على نطاق واسع باعتباره علماً من أعلام الشيعة البارزين في المملكة.

وولد الفقيد في العام ١٩١١ وفي سن السادسة عشر اصطحبه والده الشيخ علي بن أحمد العمري، لدراسة العلوم الدينية في الحوزة العلمية بالنجف الأشرف.

وتلقى علومه على عدد من أساتذة الحوزة ومنهم آية الله السيد أبوالحسن الأصفهاني، الشيخ محمد رضا المظفر، الشيخ

محمد حسين المظفر، الشيخ محمد جواد مغنية، السيد مسلم الحلي، السيد باقر الشخص، الشيخ محمد تقي آل صادق، والسيد علي مدد، و...

وظل الفقيد حتى آخر لحظات حياته قطب الرحى في أوساط أبناء الطائفة في المنطقة الغربية من المملكة، ويعزى إليه الفضل في تعزيز خطاب التعايش والاعتدال الديني في المنطقة.

ويحفظ الأهالي للشيخ الراحل خدماته الجليلة على الصعيد الديني والاجتماعي على مدى ستين عاماً.

ومثلت مزرعته التي حملت إسمه مركزاً دينياً يقصده الزوار الشيعة القادمين لزيارة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من مختلف البلدان.

آية الله الشيخ محمدعلي العمري دام عزه مع كل ما عاناه من بلاءات رافقته مع امتداد عمره الطويل، ومن تحديات وصراعات من أجل المبدأ والرسالة التي آمن بها وكرّس عمره الشريف لها، تلك الرسالة المتمثلة في حفظ مدرسة أهل البيت عليهم السلام من الاندثار والتغييب والتهميش، ومع كل ألوان الأذى التي كابدها من القريب والبعيد، ومع معاناته لاعتلال الجسد بالأمراض، مع كل ذلك إلا أنه أظهر صبراً عجيباً وصموداً متيناً أمام ذلك كله، فلم يتضجّر ولم يتبرّم ولم يشتكِ لأحدٍ أبداً شيئاً مما يعانيه، بل إنك لاتشعر على وجهه ـ مهما عايشته ـ شعوراً بالضعف أو الانهزام أمام ضغوط الحياة ومشاكلها، فهو الرجل الصامد، والجبل الشامخ، والمجاهد الصبور، وعنده دام عزه مع ذلك قدرة فائقة على امتصاص الألم وإظهار القوّة والتماسك.

وكان كثيراً ما يدعو في قنوته بهذا الدعاء: «أللهم مُنَّ عَلَيْنَا بِالتَّوَكُلِ عَلَيْكَ، وَالتَّفْوِيضِ إِلَيْكَ، وَالرِّضَا بِقَدَرِكَ، وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِكَ، حَتَّى لَانُحِبَّ تَعْجِيلَ مَا أَخَّرْتَ، وَلَاتَأْخِيرَ مَاعَجَّلْتَ».

ولم تتغيّر فيه هذه السمة حتى أواخر حياته الحافلة بالآلام، حين كان يعاني من ضعف البنية الجسدية، وتراكم الأمراض، بل ظلّ يحافظ على بهجته وتماسكه وإشراق روحه.

وكانت له استقبالات دائمة للكثير من العلماء ووكلاء المرجعيات الدينية والشخصيات الشيعية البارزة ومنهم الشيخ علي أكبر هاشمي رفسنجاني رئيس تشخيص مصلحة النظام في إيران، ابان زيارته المملكة عام ٢٠٠٨.

وخلف الشيخ العمري قدس سره عدداً من الأولاد وأبرزهم نجله سماحة الشيخ كاظم العمري الذي ينظر إليه منذ أمد بعيد كأحد رجال الدين الشيعة البارزين في المدينة المنورة.

بعد كلّ تلك الحياة الحافلة بالعطاء والجهاد في سبيل الله، وضعت حياة هذا العالم الرباني والأب الروحي الكبير لمدينة النور والصلاة، أرض الرسالة والنبوة، وضعت آخر نقاط النبض في جسد الشيخ العلامة العمري قدس سره فلحق بربّه الكريم في ضحى يوم الاثنين العشرين من صفر من عام ألف وأربعمائة واثنين وثلاثين للهجرة النبوية الشريفة، الموافق لأربعينية أبي الأحرار وسيد الشهداء أبي عبدالله الحسين عليه السلام عن عمر زاد على مائة عام بقليل، قضاها في العلم والزهد والتقى والورع والعمل على رفعة كلمة الله

وعزة أوليائه.

وتــمّ دفنه فــي مقبــرة البقيع الطاهــرة يوم الخميــس، الثالث والعشــرين من صفر، وخرجت المدينة بجملتها في تشــييعه مع حشــد هائل من أهالــي القطيف والأحساء والبحرين ولبنان، قُدّر بعشــرات الآلاف من المشيعين، وفي سابقة لانظير لها في العصر للمدينة المنورة.

العلامــة القرضاوي يهاجم شــيوخ الوهابية

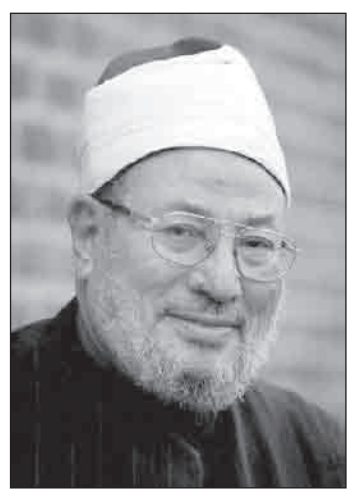

ويصفهم بالمنافقين

موقع رحماء الإسلامي

انتقد العلامة الدكتور يوســف القرضاوي شيوخ الوهابية الذين أفتوا بحرمانية الثورات والتظاهر، واتهمهــم بالنفاق والحرص على إرضاء الحاكم.

وأفــادت رحمــاء نقــلاً عــن العالــم أنّ القرضــاوي قال في خطبة الجمعة في قطر: إنّ هؤلاء المشــايخ ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿إِشْـتَرَوْا بِآيَـاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾.

قــال القرضــاوي، إنّ هــؤلاء المشايخ أفســدوا الدين، وكادت فتاواهــم الآثمة تفشــل الثورات العظيمة للشــعوب العربية التي حررتهــم من العبوديــة والظلم والبطش.

واســتنكر القرضاوي فتاوى هؤلاء المشايخ بإعتبار الثورات

خروجاً على ولي الأمر، وتساءل باستنكار: أي ولي أمر؟ وهو الذي أشاع الظلم والاستبداد والقهر.

وقال: إذا كانت المفسدة صغيرة، والمصلحة كبيرة فيجوز تقديم المصلحة على المفسدة.

وأكد القرضاوي أنّ هذه الثورات نعمة كبرى من الله، وآية من آيات الله، ودعا القرضاوي لكل الثورات العربية بالنصر.

يذكر، أنّ القرضاوي، كان قد وصف في تصريح سابق له، الثورة البحرينية بأنها ثورة طائفية، متجاهلاً المطالبات المشروعة للمحتجين، واحتلال البحرين من قبل القوات السعودية الغازية، وشن حملة طائفية من قبل سلطات البحرين على المواطنين في هذا البلد.

رجال دين سعوديون ينتقدون موقف المفتي العام من المظاهرات

شبكة الملتقى الإخبارية

أثار الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ المفتي العام للمملكة حفيظة المجتمع السعودي بعد تصريحاته الأخيرة بشأن المظاهرات المصرية المطالبة برحيل الرئيس حسني مبارك.

ففي الوقت الذي تضامن فيه المواطنون مع الشعب المصري من خلال مواقع التواصل الاجتماعية «فيسبوك» «تويتر»، صرح بعض رجال الدين بآرائهم التي تظهر تأييدهم لمطالب المصريين وعلى رأسها تنحّي مبارك عن الرئاسة.

أبرز هؤلاء الشيخ صالح اللحيدان الرئيس السابق لمجلس القضاء الذي قال: إنّ سماع مطالبهم كاف ليحقن الدماء

ويحفظ الأمن فضلاً عن ممارسة الناس في مصر حياتهم الطبيعية بعيداً عن الزعزعة التي تشق الرأي العام وتولد الفوضى، مطالباً بتنحي الرئيس مبارك، لأنه المطلب الوحيد لآلاف المتظاهرين الذين يغص بهم ميدان التحرير وطرقات المدن المصرية.

بدوره أجاز الشيخ محمد العلي خبير السياسة الشرعية في حديثه لـ: «الجزيرة. نت» مظاهرات المصريين كونها سلمية على حد تعبيره، مضيفاً أنها أداة تعبيرية لتغيير المنكر، تجيزها وتشرعها الأنظمة الديمقراطية الجمهورية، مبيناً أنّ رأي سماحة المفتي يعدّ رأياً اجتهادياً شرعياً سابقاً في المظاهرات عموماً.

أما الشيخ عوض القرني فدافع عن مظاهرات الشعب المصري بقوله: أنّ الرئيس مبارك ظلم الخلق، وعطل شرائع الله، وتعاون مع الصهاينة ومن يدعمهم ضد الشعب الفلسطيني، ونشر الفساد في الأرض، مضيفاً أنّ ما يحدث في مصر من مظاهرات سلمية بشهادة العالم، ووسائله الإعلامية أنها تجنبت سفك الدماء، والإضرار بالممتلكات العامة، وكانت تنادي بدفع الظلم والظالمين، وإيصال الحقوق لأهلها، وذلك وفق الدستور الذي تعاقد عليه الحاكم والشعب سابقاً.

وكان الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ صرح في خطبة الجمعة، أنّ التظاهرات التي تشاهدها بعض الدول في حقيقتها لاهدف لها، بل هي أمور لضرب الأمة في صميمها لتقسيم البلاد العربية والإسلامية، والسيطرة على خبراتها، مضيفاً أنّ هذه

التظاهـــرات ليســـت إلا مثيـــرة للفوضـــى، ولـــن ينتـــج عنها إلا تفرقة الأمـــة! وتحقيـــق أهداف الأعداء! قائلاً أنّ نتائجها ستكون سيئة، وعواقبها وخيمة، من سفك للدماء، وانتهاك للأعراض، وتعدٍ على الحرمات!!!

الهلباوي يدين الموقف السـعودي من الثورة المصرية

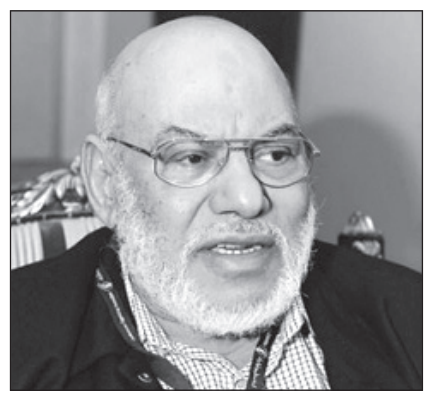

شبكة الملتقى الإخبارية[1]

أدان المتحدث الســـابق باسم جماعة الاخوان المسلمين، كمال الهلبـــاوي، الموقف الســـعودي الســـلبي من الثـــورة المصرية، واعتبـــر هذا الموقف ليس بالأمر الجديد، وإنّ السلطات السعودية سواء السياســـية أو الدينية التي تصـــدر الفتاوى لديهـــا مواقف متناقضة.

وقال الهلباوي في مقابلة مع قناة «العالم» الإخبارية مساء الاثنين: إنّ اســـتضافة الســـعودية لزين العابدين بن علي هي اســـتضافة مجرم هارب مـــن العدالة ولص، وكيـــف لدولة تقـــول: إنها تدافع عن الإسلام أن تحتضن مثل هذا المجـــرم؟! كما أننا اليوم نرى أنّ الملك عبـــدالله يطلب من الولايات المتحـــدة أن تبحـــث عن مخرج مشرف لحسني مبارك.

وتابع: ماهو الموقف المشرف لإنسان مجرم مثل حسني مبارك؟ إنه حكم بالحديد والنار ٣٠ سنة، وسرق هو وأولاده من ٤٠ إلى ٧٠

مليـــار دولار، وتـــرك البلاد في التخلـــف، وكان عميـــلاً واضحاً للأمريكيين، والحركة الصهيونية، ووقف ضد إخوانه الفلسطينيين في غـــزة، وضـــد الأنفـــاق التي حفروها لكي يقتاتوا منها؛ وكذلك ملأ السجون من الشرفاء، وهاجم المتظاهرين المسالمين في ميدان الحريـــة، فكيف يتـــم البحث عن موقف مشرف له؟!!!

وطالب الهلبـــاوي جميع دول المنطقـــة بـــأن «تلفظ» حســـني مبـــارك، وقال: لاينبغي أن يذهب هذا الإنســـان إلا إلى «إسرائيل» حتى يعلم الجميع أنّ مبارك كان عميلاً لإســـرائيل، وإنّ نهاية كل عميل هو هذا.

وحول اتهامات النظام المصري بوجـــود دور خارجي في الثورة المصرية، قال الهلباوي: إن كان هنـــاك دور خارجـــي فهو الدور الإسرائيلي، ليس هناك من يقبل اتهـــام إيران بأنها تـــؤدي دوراً تخريبياً في مصر أو غير مصر، نحن نفخر بالدولة التي رئيســـها صاحب همة وشـــجاعة ورؤية، إن كان في الأمم المتحدة، أو في جنيف، أو فـــي أي مكان، ونفخر بالدولة التي لها حكومة راشدة، ونفخـــر بالدولة التـــي تقف ضد الهيمنـــة الغربيـــة، وتتقدم علمياً وتقنياً.

وأضـــاف: أنّ هـــذه الصفات للأسف الشـــديد لاتوجد إلا في إيران، وأنا أتمنى أن تكون مصر، والسعودية، وتونس، والجزاير، كذلك وتنفـــق أموالها على التقدم العلمي، وتربية جيش يستطيع ردّ كيد المعتدين، لكن بلادنا تنقصها الحريـــة، للأســـف الشـــديد في مصر مثال واضح للديكتاتورية، والفســـاد، والســـرقة، وضرب

الشعب، وتزوير إرادته، وتهريب الأمـــوال، واســـتغلال المـــوارد لخدمـــة «إســـرائيل» وســـيطرة رجال الأعمال.

الأوقاف المصرية:

علمـاء المسـلمين أجمعـوا في كل العصورعلى حرمة هدم الأضرحة

قالت وزارة الأوقاف المصرية في بيـــان أنّ الرســـول صلى الله عليه وآله دفن في حجرة مبنيـــة، ولو كان ذلك خاصاً به لما دفن بجواره أبوبكر وعمـــر، ولو كان البناء غير جائز لهدموه قبل دفنه، أو لما جددوه بعد الانهدام.

وأكد البيـــان أنّ بناء الأضرحة أمر مشروع دلت عليه النصوص لقـــول الله تعالـــى: ﴿قَـالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَـى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْـجِداً﴾ وعن ســـعد بـــن أبي وقاص قال في مرضه الذي هلك فيه: الحدوا لي لحداً وانصبوا على اللبن نصباً كما صنع برسول الله.

وأضاف البيان: أنّ علماء الدين الإسلامي أجمعوا في كل عصر على حرمة الاعتداء على أضرحة الصالحين، بالإســـاءة أو الهدم، لمخالفـــة ذلـــك لروح الشـــريعة الإســـلامية، وقالت: إنّ من يفعل ذلك يســـعى في الأرض فســـاداً ويحـــاول إشـــاعة الفوضى في المجتمع، وزعزعـــة أمن الوطن واستقراره.

وأكدت الأوقـــاف على وقوفها ضـــد هـــؤلاء بتنظيـــم لقـــاءات موسعة مع مجموعات من أئمتها المميزيـــن، لتبصيرهم بخطورة هذه التصرفـــات، وتنبيههم على ضـــرورة التصـــدي لأصحابها بالفكـــر، والحجـــة، والبرهـــان، وهي في الوقت نفســـه تؤكد بأنّ الدفاع عن أهل البيـــت والأولياء

والصالحين من أوجب الواجبات التي فرضها الإسلام.

المملكة بذلت جهوداً غير مسبوقة لخدمة «الماء المقدس»

«مياه زمزم» .. النتائج سليمة ومذهلة للعالم!

مكة المكرمة - أحمد صالح، تركي السويهري

«زمزم» حرفان مكرران لأنقى ماء وأعذبه، نبع بوادي غير ذي زرع عند المسجد الحرام من تحت أقدام الرضيع اسماعيل عليه السلام؛ يوم وضعه والده الخليل إبراهيم عليه السلام بصحبة والدته، وتركهما فارتفعت صيحات العطش منه باحثة عن رشقة ماء تطفىء عطشه، وهو ما أشارت اليه العديد من المراجع التارخية والتي أجمعت في مجملها على أنّ أول من أظهر ماء زمزم جبريل عليه السلام لسقيا إسماعيل عليه السلام عندما ظمئ، ثم حفر البئر الخليل إبراهيم عليه السلام وذلك بأمر من الله عزّوجل.

وبئر زمزم دفنت ثم ظهرت مرة أخرى على يد عبدالمطلب بن هاشم، حيث حفر البئر بعد رؤيا رآها في المنام؛ ولذلك عدة روايات، وظهر بئر زمزم من جديد، وظل عبد المطلب يسقي الحجاج.

موقع البئر

ويقع بئر زمزم بالقرب من الكعبة المشرفة، ولكن فتحة البئر الآن واقعة تحت سطح المطاف على عمق ١/٥٦ متراً، وفى أرض المطاف خلف المقام إلى اليسار وأنت تنظر إلى الكعبة المشرفة، وضع هناك حجر مستدير مكتوب عليه: «بئر زمزم» يتعامد

مع فتحة البئر الموجودة في أسفل سطح المطاف، وقد جعل في آخر المطاف خلف المقام درج يؤدى إلى فتحة البئر وينقسم إلى قسمين:

الأول: جزء مبنى عمقه ١٢/٨٠ متراً عن فتحة البئر، والثاني: جزء منقور في صخر الجبل وطوله ١٧/٢٠ متراً.

ويبلغ عمق مستوى الماء عن فتحة البئر حوالي أربعة أمتار، وعمق العيون التي تغذى البئر عن فتحة البئر ١٣ متراً، ومن العيون إلى قعر البئر ١٧ متراً، وقطر البئر يختلف باختلاف العمق، وهو يتراوح بين ١/٥متر و٢/٥ متر.

أما العيون التي تغذى بئر زمزم فهي ثلاث عيون: عين حذاء الركن الأسود، وعين حذاء جبل أبى قبيس والصفا، وعين حذاء المروة، وكانت زمزم من أعلاها إلى أسفلها ستين ذراعاً.

ولماء زمزم أسماء عدة منها: بركة، ومباركة، برة، بشرى، زمته، حرمية، سالمة، سيدة السيد، شباعة، ظبية، مضنونة، عونة، نافعة، طاهرة، سالمة، ميمونة، كافية.

قبة زمزم

وكان لزمزم قديماً حوضان، حوض بينها وبين الركن يشرب منه الماء، وحوض من ورائها للوضوء، له سرب يذهب فيه الماء من باب وضوئهم، يعني باب الصفا، ولم يكن عليها شباك حينئذ، وكانت مجرد بئر محاطة بسور من الحجارة بسيط البناء، وظل الحال كذلك حتى عصر أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي الذي يعد أول من شيد قبة فوق

زمـــزم، وكان ذلـــك ســـنة مائة وخمس وأربعين.

سبيل الملك عبدالعزيز

وفي العصـــر الحديـــث أُعيدَ بناء زمـــزم من جديد بعيداً عن مكانها الأصلي؛ نظراً لأن المبنى القديم بالقرب من الكعبة يعوق الطواف؛ لكثـــرة أعداد الحجيج، وقد تـــم توصيل ميـــاه زمزم إلـــى مكانها الجديـــد من الجزء الشـــرقي من الحرم عن طريق (مواتير) رفع ومواسير، كما تم تخصيص مكان للرجال وآخر للنساء.

وعلى الرغم مـــن مرور آلاف السنين على بئر زمزم؛ فقد بقي ماؤها للنقاء والطهارة والشفاء، وبرزت جهـــود الملك عبدالعزيز للحفاظ على ماء زمزم وتوفيرها، حيث تم في عام ١٣٤٥هـ إنشاء ســـبيل الملك عبدالعزيز لســـقيا زمزم، ثم في العـــام التالي أمر بتوســـعته وزيـــادة طاقته، كما اهتم مـــن بعده أبنـــاؤه الملوك سعود، وفيصل، وخالد، وفهد.

مشروع الملك عبدالله يضمن نقاوة المياه بأحدث الطرق العالمية وتعبئته وتوزيعه آلياً.

مشروع سقيا زمزم

وفـــي عهـــد خـــادم الحرمين الشـــريفين الملـــك عبـــدالله بن عبدالعزيز تم اطلاق مشروع الملك عبدالله بن عبدالعزيز لسقيا زمزم في منطقة كدي بمكـــة المكرمة؛ لضمان نقاوة مياه زمزم بأحدث

الطرق العالمية، إلى جانب تعبئته وتوزيعه آلياً، بتكلفة قدرت بـ ٧٠٠ مليون ريال، إضافة إلى مشروعين آخرين تابعين لهذا المشروع الأول يختص بتحسين وتطوير عملية توزيع مياه زمزم داخل الحرمين الشريفين، والمشروع الثاني تركيب أجهزة ومعدات لغسيل وتنظيم وتعقيم الحاويات.

الطاقة التخزينية للمشروع يومياً تبلغ (٢٠٠) ألف عبوة

ويتكون مصنع التعبئة من عدة مبانٍ منها مبنى ضواغط الهواء، ومستودع عبوات المياه الخام، ومبنى خطوط الإنتاج، ومبنى مستودع العبوات المنتجة بطاقة تخزينية يومية تبلغ (٢٠٠) ألف عبوة.

ويعمل مستودع التخزين بشكل آلي بواسطة نظام تقني متقدم دون تدخل بشري؛ للوفاء باحتياجات المواطنين والمقيمين وقاصدي بيت الله الحرام في أوقات الذروة، حيث يتم تخزين واستخراج العبوات آلياً من خطوط الإنتاج بمصنع التعبئة عبر سيور ناقلة آلية تصل بين خطوط الإنتاج والجسر الناقل الذي يصل بدوره بين مصنع التعبئة والمستودع المركزي سعة ١ر٥ مليون عبوة، وتستخدم فيه أحدث أنظمة التخزين العالمية المعروفة باسم التخزين الآلي والاسترجاع الآلي (AS/RS)، حيث تدخل العبوات المنقولة عبر الجسر الناقل إلى المستودع المركزي بواسطة رافعات رأسية

حمولة كل منها (٢٠٠٠ كيلوجرام) تُخــزن هذه العبــوات في أماكن محــددة، ويُتحكم فيها وتدار عن طريق برنامج تخزين متطور يتم من خلاله التخزين حسب تاريخ الإنتاج وخــط الإنتاج، ويتيح هذا البرنامج المتطور تحديد أولويات التوزيع حســب تاريخ التخزين ونتائــج الاختبــارات الخاصــة بالمياه المنتجة التي تتم بمختبر المحطة.

نقل العبوات

وبعــد انتهــاء مرحلــة الإنتاج والتخزين تبدأ مرحلة نقل العبوات المخزنة من مبنى المستودع إلى نظام التوزيع الأتوموماتيكي عن طريق الرافعات الرأسية؛ لتوضع العبوات على سيور ناقلة تنقلها إلى (٤٢) نقطة توزيع آلية، حيث تُوزع هذه العبوات على المســتفيدين باســتخدام قطع معدنية خاصة، كل منهــا مخصــص للحصول على عبوة واحــدة فقط، ويمكن الحصــول على هــذه القطع من منافذ التوزيع الخاصة المنتشرة داخــل منطقة المشــروع ليقوم المســتهلك بوضع القطعة داخل ماكينة التوزيع فيحصل آلياً على العبوة.

مكتب الزمازمة

ولإيصال ماء زمزم لحجاج بيت الله الحرام بمقار ســكناهم طوال فترة تواجدهم بمكة المكرمة؛ يعد مكتب الزمازمــة الموحد برامج عملــه خلال مواســم الحج وفق خطة تشــغيلية تعتمد على ثلاثة محاور رئيســة تتمثل في توزيع عبوات مياه زمزم سعة (٣٠٠ لتر) على الحجاج عند مراكز التوجيه، وذلك في البرنامج الأول، وتوزيع

المياه على مساكنهم في البرنامج الثاني، بواقع لتر من الماء لكل حاج يومياً، وأما البرنامج الثالث فيتمثل في توزيع مياه زمزم على الحجاج عند مغادرتهم، بالاضافة الى وجود برادات لمياه زمزم، وجميع المياه الموزعة في البرامج الثلاثة في مراكز التوجيه والتفويج بطريق مكة المكرمة جدة السريع، وطريق مكة المكرمة المدينة المنورة السريع.

وتتم التعبئة الآلية التابعة للمكتب بشكل آلي دون أن تمسه الأيدي، حيث يتم تمرير ماء زمزم عبر الفلتر الكربوني، يتجه الماء بعده إلى وحدة التعقيم بالأشعة فوق البنفسجية قبل وصوله الى خط التعبئة الآلي.

سلامة المياه

وفي دراسة أجراها «د. محمد عزت المهدي» ـ أستاذ الجيولوجيا بمعهد الدراسات والبحوث البيئية بجامعة عين شمس بمصر ـ أكدت تفرد ماء زمزم بخصائص مختلفة عن أنواع المياه في العالم، فهو حلو الطعم، رغم زيادة أملاحه الكلية، فلا يشعر من يشربه بملوحته العالية، ولو أنّ نسبة الأملاح الموجودة في ماء زمزم، كانت في أي ماء آخر، لما استطاع أحد أن يشربه! وأنه لا يتعفن ولا يتقطن، ولا يتغير طعمه أو لونه أو رائحته، وأنه في هذا مثل عسل النحل، الذي لا يتأثر بتعرضه للجو، مختلفاً في ذلك عما يحدث لجميع أنواع المياه الأخرى مثل مياه الأنهار والبحار والأمطار والمياه الجوفية، ويرجع ذلك إلى مكوناته الكيميائية، التي تمنع نشاط الجراثيم والبكتيريا والفطريات.

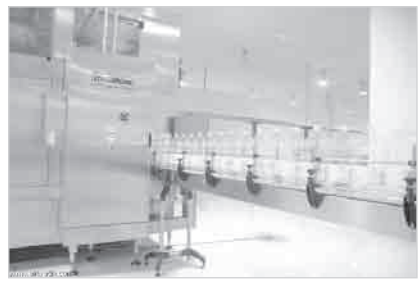

أجهزة ومعدات متطورة لغسيل وتنظيم وتعقيم الحاويات

وقد تعرضت مياه زمزم لبعض الانتقادات الغربية التي اشـــارت إلى احتوائهـــا على مادة الزرنيخ وغيرها من المواد الضارة، وحدث ذلك في عام ١٩٧١م، حيث أرسل أحد الأطباء خطاباً إلى دار نشر أوروبية مضمونه أنّ ماء زمزم لا يصلح لغرض الشرب، وهو قد بنى افتراضه هذا على أساس أنّ الكعبة مكان ضحـــل؛ بمعنى أنه تحت مســـتوى سطح البحر، كما أنها تقع في مركز مكة؛ فكل هذه الظـــروف تعني أنّ مياه الصرف المتجمعة من المدينة كلها تصرف في بئر واحدة.

ووصلت هذه الأنباء إلى الملك فيصـــل، الذي استشـــاط غضبه لسماع هذه الأنباء، وقرر أن يبطل هذه الدعـــاوي المســـتفزة، ففي الحال أصـــدر أوامره إلى وزارة الزراعة ومصادر المياه للتحري وإرســـال عينات مـــن ماء زمزم إلى المعامل الأوروبية لفحصها ومعرفة مدى صلاحيتها للشرب، وذهـــب الخبـــراء إلى مكـــة لهذا الغـــرض، وكلفوا أحد العمال من الرجال لمســـاعدتهم على تنفيذ ما يريدون أثناء الفحص العملي لبئر زمـــزم، وعندما وصلوا إلى البئـــر ـ بإذن من المســـؤولين ـ كان من الصعب عليهم التصديق بأنّ حوضاً من الماء يشبه البركة الصغيرة، ولا يزيد عمقه عن ١٤ إلى ١٨ قدماً هو نفسه البئر الذي يمدنا بملايين من الجالونات من

الماء كل عام للحجاج والمعتمرين، وهو أيضاً قد جـاء للوجود منذ قرون طويلة، وهنـا بدأ الخبراء عملهم وبدؤوا في أخذ أبعاد البئر، وطلب الخبراء من العامل المكلف لمساعدتهم أن يريهم مدى عمق البئر، ففي أول الأمر نزل الرجل في الماء فـرأى الخبراء أن الماء قد تعدى كتفيه بمسـافة بسيطة، وكان طول ذلـك الرجل حوالي ٥ أقـدام و٨ بوصـات، ولنا أن نتصـور في مخيلتنا أنّ الماء في البئر لم يكـن عميقاً، ثم بعد ذلك بدأ الرجل يتحـرك في البئر من مكان إلى آخر بحيث لا يصل إلى مرحلة غمر رأسه في الماء، وذلك لكي يبحث عن مصدر نفاذ الماء إلى البئر، ومع هذا فقد أكد الرجل أنه لا يستطيع أن يحدد وجود أي منفذ تأتي منه المياه إلى البئر.

هيئة المساحة الجيولوجية

وقد حرصـت حكومة المملكة على توفير ماء زمزم للمعتمرين والحجاج بشكل يضمن سلامته ونقاوتـه، مـن خـلال مركـز دراسات وأبحاث زمزم في هيئة المساحة الجيولوجية السعودية الـذي يسـعى لتوفيـر الحلولَ العلميةَ الضرورية لمراقبة وإدارةِ مستودعات المياه الجوفيةِ التي تَغذّي بئر زمزم، وضمان نقاوة الماء وسلامة نظام التزويد.

وفي السـابق، كانت تتم عملية مراقبة مسـتويات المياه في بئر زمزم بواسطة جهاز رسم مائي بسـيط drum hydrograph، وفي الوقت الراهن تم استبدال هذا الجهاز بنظام مراقبة أكثر تطوراً، ومتعـدّد البارامتر يقـوم بعمل سجلات رقمية لمسـتوى الماء، والتوصيـل الكهربائي، ودرجة

الحموضة، ودرجة التشرد، ودرجة الحرارة؛ ويمكن لهيئة المساحة الجيولوجية السعودية الوصول بسهولة لجهاز حفظ وتسجيل البيانات من خلال شبكة الإنترنت، كما يمكن فحص وتحميل البيانات بدون الذهاب إلى البئر أيضاً، كما تم تركيب شبكة آبار مراقبة أخرى في كافة أنحاء وادي إبراهيم لمراقبة استجابة نظام مستودعات المياه الجوفية للتزويد وإعادة التزويد، وزودت بعض هذه الآبارِ بأجهزة آلية رقمية لتسجيل مستوى الماء.

المرجعية الدينيّة، بين الصمت والمذهبيّة

وانتفض الأحرار الأُباة في تونس، فآنسوا وسرّوا بثورة شعبيّة عارمة، تكلَّلت بالنصر، ولله الحمدُ.

وهبّت جماهير مصر من مراقدها، فملأت الساحات والميادين، وقد نُصِرْنَ فلتُطلَق الزغاريدُ.

وخرج الشعب البحرانيّ الحرّ الأبيّ يطالب بالحرّيّة والعدالة والمساواة.

وانفجر أحفاد الزعيم البطل عمر المختار كالقنبلة في وجه الطاغيّة المستبدّ، وها هو يترنَّح متّجهاً نحو الهاوية بإذن الله.

وتململ الشعب اليمنيّ غضباً من الجلاّد القاهر الغاصب.

وسقط الظلمة والخونة واللصوص، الذين لا دين لهم ولا طائفة ولا مذهب، وسيسقط آخرون، وفرح وسيفرح كلّ إنسانٍ حرٍّ أبيٍّ بتلك المواقف البطوليّة للشعوب العربيّة الحبيبة.

وهكذا أعاد الزمن نفسه بعد ثلاثين سنةً ونيِّف، فكما سقط

شـــاه إيران وطاغيتهـــا في ١١/ شـــباط/١٩٧٩هـ ســـقط طاغية مصر محمد حســـني مبارك في ١١/شـــباط/٢٠١١م، ويســـقط الجبابرة الطغاة الواحد تلو الآخر، إنْ شاء الله تعالى.

وهنـــا خطّان ونهجـــان لعلماء الدين في التعاطي مع الحدث:

١ـ خطّ الأحـــرار والثوّار، خطّ العلمـــاء الأبرار، خطّ الإســـلام المحمديّ الأصيل، الذي أرســـى دعائمه في أواخر القرن العشرين مفجِّرُ الثورة الإسلاميّة في إيران الإمام روح الله الخمينيّ قدس سره والذي يتزعّمـــه هـــذه الأيّام ولـــيّ أمر المسلمين وقائد الثورة الإسلاميّة في إيران السيّد علي الخامنئيّ.

وقد تلقَّف السيّد الخامنئيّ حركة الشـــعبين التونســـيّ والمصريّ بكلّ حبّ وحنان، فخرج بنفســـه إلى صلاة الجمعة ـ التي لا يخرج إليها إلاّ في المناســـبات المهمّة ـ وخطب محيِّياً ومشجِّعاً وحاضناً وداعماً؛ نعم، خطب باللغة العربيّة، ونادراً ما يفعل ذلك؛ إذ إنّ جموع المصلّيـــن من الناطقيـــن باللغة الفارسيّة.

وهكـــذا أســـقط ســـماحته كلّ محاولات التشويش الاستكباريّة والفتنة المذهبيّـــة، فظهر للناس جليّاً أنّ المســـلمين صفٌّ واحدٌ، ويدٌ واحدةٌ، لايفترق السنّيّ فيهم عـــن الشـــيعيّ، ولا العربيّ عن الفارسيّ، فهُم في مواجهة الفساد والظلم والطغيان أمّةٌ واحدةٌ.

وهكذا انبرى جملةٌ من العلماء المسلمين، من الســـنّة والشيعة، للدفاع عن الشـــعبين التونســـيّ والمصريّ، وحقّهمـــا في القيام ضدّ الحاكم الجائر والمستبدّ.

٢ـ خـــطّ الخانعين والمنهزمين نفســـيّاً ومعنويّاً، والمستسلمين

لــكلّ حاكمٍ وســلطانٍ، ولو جَارَ وقَهَر، وغصب، وعاث في الأرض فســاداً، وأهلك الحرث والنسل، والســاكتين الصامتيــن، كأنّهم خُشُبٌ مسنَّدةٌ.

هكذا كانــوا ـ وما كان أكثرهم ـ أثنــاء الثورة على شــاه إيران المخلوع، رغم أنّه أذاقهم الويلات، وفرض على نسائهم خلع الحجاب، وما كان ينقصه سوى أن يأمرهم بحلق لحاهم ونزع عمائمهم؛ ومع ذلك فقد ركنوا إليه طويلاً، وتملّقوه كثيــراً، وتآمروا معــه على إمام الأمّة السيّد الخمينيّ قدس سره وذريعتهم في ذلك كلّه أنّه لا جهاد قبل ظهور صاحب العصر والزمان عليه السلام وأنّ كلّ راية تخرج قبل ذلك فهي راية ضلال.

فيا ســبحان الله، مــا الذي عدا ممّــا بدا حتّى صــار الاعتراض على الإمام الخمينيّ قدس سره مشروعاً، فأذاقوه المــرارة تلــو المرارة، والغصّة بعد الغصّة؟!...

وخاب سعيُهم ـ بحمد الله ـ ولمع نجم السيد الخامنئيّ، مرجعاً فذّاً، وقائداً حكيماً، ووليّاً مرشداً...

وتســتمرّ المســيرة بإذن الله، غير أنّ ما يعكِّر صفوها أنْ تجد أمثال هؤلاء المدَّعين للقداســة، وهي قداسة زائفةٌ على أيّة حال، يعملون جاهديــن، وفي كلّ آن، للقضاء علــى منجَــزات الثورة الإســلاميّة المباركــة، ومنهــا: الوحدة الإســلاميّة بين الســنّة والشيعة.

فيعمد بعضُ هــؤلاء إلى إثارة البلابــل والقلاقــل والترّهــات السخيفة بين الفينة والأخرى ... وهكذا بلعوا ألسنتهم إبّان الثورات في تونس، ومصــر، والبحرين، واليمن، وليبيا، فلم يصدر عن أيٍّ منهم ما يشــير إلى أدنى اهتمام

له بما يحصل، فهل صُمّوا؟ أو عَموا؟ أو خَرِسوا؟ وأين هم من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : «من سمع منادياً ينادي: يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم»؟ وعن قول أمير المؤمنين عليه السلام : «...لقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهَدة، فينتزع قرطها وحجلها، ما يُمنَع منها، ثم انصرفوا، لم يُكلَّم أحدٌ منهم، فوالله لو أنّ امرءاً مسلماً مات من هذا أسَفاً ما كان عندي ملوماً، بل كان به جديراً»، فها هو عليٌّ عليه السلام يوجب التضحية بالنفس في سبيل المسلمين، بل والمعاهَدين، فأين هم «شيعةُ عليٍّ وآلِه الطاهرين»؟!

... إنّ ما تقدّم لا يعني أنّ بعض علماء أهل السنّة في منأى عن التعصُّب المذهبيّ البغيض، فها قد انطلقت شرارة الثورة في البحرين، وسقط الشهداء بالمئات، غير أنّها ثورة فيها من الشيعة كثيرٌ، فما سمعنا حتّى اليوم عالماً سنّيّاً يرفع صوته بجرأة وشجاعة داعماً ومؤيِّداً لهذه الثورة، فأين أولئك الذين دعموا وأيَّدوا ثورتي تونس ومصر، أم أنّ حساب السنّة شيء وحساب الشيعة شيء آخر؟

والأدهى من هذا أنّ جملةً من العلماء هم خارج هذا العالم، فمن بيوتهم إلى دروسهم، ومنها إلى بيوتهم، وكأن لا شيء يحصل من حولهم، ولا يعنيهم أمرُ مُسْلِمٍ على الإطلاق، سواء كان سنّيّاً أم شيعيّاً، ولذا لم نسمع منهم حتّى هذه اللحظة تعليقاً واحداً على ما حدث منذ شهور، وهذه هي الطامّة الكبرى.

أللهم إنّا نشكو إليك فقد نبيّنا صلى الله عليه وآله، وغيبة وليّنا عليه السلام

ناقشوا خطأ الطعن في أحكام الشرع؛ الدعاة يؤكدون عدالة الإسلام ومساواته في كل شؤون الحياة

علي النقمي ـ مكة المكرمة

ناقش عدد من الدعاة خطأ المقولة السائدة في أوساط بعض المجتمعات التي يرفعها بعض أصحابها بأنّ (الإسلام دين عدل لا دين مساواة)، وقالوا في معرض حديثهم لـ (المدينة): إنّ التسوية في الأمور المختلفة ظلم لا يقره الشرع، أما التسوية في الأمور المتماثلة وفي التعامل كذلك فقد دعا إليه الإسلام؛ مشيرين إلى أنّ الطعن في أحكام الشرع من عدم التسوية في بعض الأحكام اعتقاد فاسد مردود على صاحبه؛ وأكدوا أنّ العدل والمساواة في دين الإسلام صنوان لا يفترقان، إذ لا عدل بدون مساواة، ولا مساواة بدون عدل.

حيث أشار الدكتور علي يوسف الزهراني أستاذ الفقه بجامعة أم القرى أنّ هناك من يخطئ فيمن يصف الإسلام بأنه دين المساواة هكذا بإطلاق، وربما ظن أنّ ذلك الوصف مدح ومنقبة، وإنما يصح وصف بعض أحكام الشريعة بالمساواة فيما جاءت الشريعة فيها بالمساواة كالمساواة بين الرجل والمرأة في التكليف والجزاء الأخروي، أو كانت طبائع البشر تقتضي فيها المساواة كما في بعض الصفات الخلقية والخلقية كالمساواة في الخلقة وحب زينة الدنيا وكراهية الظلم، وقد جاءت جملة من نصوص الشريعة تنفي المساواة وتنكرها.

قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ

فِـي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَـلُ الْمُتَّقِيـنَ كَالْفُجَّـارِ﴾ والحــق أن يوصف دين الله بالعدل الذي يعني وضع الشيء في موضعه، لا بالمساواة التي تقتضي التماثل والتســوية بين الشيئين؛ لأن الشريعة جاءت بنفي المماثلة في أحكام وصور متعددة، منها: التعدد في الزواج، والميراث، وبعض أحكام اللباس والزينــة والشــهادة، والولايــة وغيرها.

قــال تعالــى: ﴿وَلَيْـسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾.

﴿أَفَنَجْعِلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّـلَ اللَّه بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض﴾؛ إلاَّ أن يقصد بالمساواة العدل، فهذا صحيح من حيــث المعنى؛ بينما جاءت نصــوص الوحــي تأمر بالعدل وترشد إليه:﴿إِنَّ اللَّه يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

طعن مرفوض

فيما اعتبر الشــيخ نــواف بن عبدالمطلــب آل غالب الشــريف رئيس الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمكة المكرمة، أنّ عبــارة أنّ «الإســلام دين عدل لا دين مســاواة» فيها جانب من الصحــة والخطأ من جانب آخر، فإنّ شريعة الإســلام تفرّق في الأحــكام بين الأمــور المختلفة، ولا تساوي بينها، وهذا من تمام العدل؛ لأنّ التســوية بين الأمور المختلفة يعتبر من باب الظلم.

كما أنّ الإســلام يساوي بين الأمــور المتماثلــة وهــذا أيضًا من تمام العدل، وعدم التســوية فــي هذه الأمور يعتبــر من باب الظلــم، وبذلك يُعلــم أن العبارة المشــهورة «الإسلام دين العدل

والمســـاواة» عبارة صحيحة إذا كان المقصود منها المساواة بين الأمور المتماثلة، وليس المساواة بين الأمور المختلفــة، علماً بأنّ البعض عندما يطلق أنه لا مساواة في الإسلام فإنه يقصد الطعن في أحكام الشــرع من عدم التسوية في بعض الأمور المختلفة، وهذا اعتقاد فاســد ومــردود، لأنّ الله عزّوجل هو الحكيم العليم الخبير بخلقــه وعباده، ولم يشــرع لهم إلا ما فيــه مصلحتهم في دينهم ودنياهم وأخراهم.

صنوان متلازمان

مــن جانبــه قــال الدكتــور عبدالرحمن بن عبــدالله الخليفي ـ رئيس اللجنــة المركزية للطب الشعبي والعلاج بالرقية الشرعية بإمارة منطقة مكةالمكرمة وإمام وخطيــب جامع الشــيخ عبدالله الخليفي ـ : عندما أشرقت شمس الرسالة، كان الناس قبلها يعيشون في ظــلام دامــس وجهل مطبق ونظم فاســدة وعقائــد محرفة، فبدل الإسلام ظلام الحياة ضياءً ونوراً وجهل الناس ثقافة وعلماً، وجاء بأصول اجتماعية وإنسانية تربط الإنسان بالمجتمع والحياة وتســير به إلى حضــارة مهذبة رائعة تتمشى مع الفطرة السليمة، حيث دعا الإسلام إلى إقامة العدل وأمر بتحقيق المساواة وحارب الأفــكار الجاهلية التــي تفضل جنســاً على جنــس أو لونًا على لون، ومحا الفــروق الاجتماعية بين الطبقات البشرية التي كثيراً ما تســتند إلــى الجــاه والمال، فالناس قد ضمهــم أصل واحد يتمثل في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

فالعدل والمساواة في دين الإسلام صنوان لا يفترقان إذ لا عدل بدون مساواة ولا مساواة بدون عدل، وقد قطع النبي صلى الله عليه وآله الشك باليقين حيث أقسم لأصحابه أنه لا يستثني في تحقيق العدل أحداً وإن كانت ابنته فاطمة عليها السلام ، وقد استجاب الصحابة رضوان الله عليهم لأمر الله تعالى الذي أوجب العدل والمساواة حتى وإن كان ذلك في مصلحة الأعداء وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ فأقاموا العدل بلاتردد واجلسوا عامليهم في الأقاليم مهما كان شأنهم مع خصومهم مهما كان وضعهم في سابقة رائعة قلّ نظيرها في تاريخ البشرية، ولا شك أنّ مثل هذه الأمور تنعكس وبشكل إيجابي على تماسك المجتمع ووحدته، وتثبت أنّ الإسلام دين العدل والمساواة، ولا يخفى على أحد أثر تحقيق العدل والمساواة وبالشكل الذي أمرت به الشريعة الإسلامية في تثبت الأمن والاستقرار والقضاء على الجريمة، والحصول على الرضا من فئات المجتمع كافة ومن كل أطيافه، فما أروع الإسلام وما أجمل شريعته التي تقوم على هذه المبادئ المثلى، وتدفع البشرية إلى ما فيه خيرها وصلاحها.

لا يتنافيان

وقال الدكتور محمد مطر السهلي أستاذ أصول الفقه بجامعة أم القرى: إنّ هذه العبارة

(الإسلام دين عدل ليس دين مساواة) صحيحة في جوانب المعاملة وخاطئة في الجوانب الأخرى.

وأضاف: العدل والمساواة وجهان لعملة واحدة، فالمساواة تقتضي العدل، والإسلام دعا إلى تحقيق العدل والمساواة والحرية، لكن هذه المساواة والعدل ينبغي أن تكون وفق الضابط الشرعي، فالله سبحانه وتعالى مثلاً لم يجعل الذكر كالأنثى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ وقال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ فجعل هنا انتفاء المساواة بين الذكر والأنثى في الخلقة لكن في غيرها المرأة كالرجل في الحقوق والواجبات كقوله ﷺ: ﴿النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ فهذه النصوص ونحوها تبين لنا أنّ العدل والمساواة لا يتنافيان بل إن كل واحد منهما يقتضي الآخر ولا يمكننا أن نقول إنّ هناك عدلاً دون مساواة، ولا فرق بين المعنيين؛ فالإسلام أمرنا بالمساواة والعدل والاحسان وأتى بتحقيق المساواة في كل شيء.

حرية التفكير نشأتها وترعرعها متى كان الدين الحق أحد الخاسرين من حرية الاختيار والتفكير؟

د.إبراهيم المطرودي[٢]

ليس شيء في التأريخ الإسلامي أظهر من الخلاف، الخلاف العقدي والخلاف الفقهي، الخلاف شيء يعرفه العالم والمتعلم، شيء يتداول نتائجه وآثاره أغلب الناس، إنه ركيزة صارت جزءاً لا يُستهان به من

العقل الجمعي، كان الاختلاف قبل عقود شـــيئاً منقولاً شيئاً محكياً، كان المجتمع يستغربه، ويستريب منـــه، وكانت الثقافـــة تتجهّم في وجهـــه، وتزوّر عنه، كنا نســـمع بالخلاف ونُقصيه، كان الخلاف ووجوده معرفـــةً وعدمه واقعاً نعيشه، والثقافة تبذل جهدها عبر الناس في تنحيـــة الفكرة وتأييد الواقـــع، لقد كانـــت الثقافة وهي ما عليه أغلب الناس تسعى فيما فيه الصالح العـــام وتدرأ كلَّ ما يشوش على هذا الواقع الذي يبدو متماسكاً، أمّا اليوم وقبله بسنيات فقد جرى الخلاف واتسعت رقعته، غزا كل عقل، وولج كل بيت، فلم يعد الخلاف شـــيئاً يُمكن ستره وإخفـــاؤه، كيف يخفـــى وذيوله ما زالـــت تجرجر في كل مجلس ومنتـــدى ومجمع؟ كيف يتوارى وأشباحه تتراقص على صفحات الكتب الإسلامية فقهية أم عقدية؟ كيف يختبئ وظلاله ترتسم على الصفحات والشاشات؟

لم أكن وربما غيري أســـتطيع المناداة بالحرية مستدلاً بتاريخ مـــاض مـــع أننـــا تعوّدنـــا على اســـتحضار ماضينا في الجليل والحقيـــر، كل ذلـــك لأنني مقتنع تماماً أنّ الإنسان لا يُقَدّر الشيء، ولا يتعرف إلى ثمنه إلا إذا عاش الدواعـــي إليـــه، هكذا الإنســـان مذ خلقه الله تعالى لا يستشـــعر حاجته إلا بوجود أســـبابها، وقد قيل قديمـــاً: الحاجة أم الاختراع، وهـــي مقالة صادقـــة تماماً في هذا الســـياق، فالمجتمع لم يكن حتى قادراً على الإقرار بالحرية الفكريـــة قبلُ؛ لكنـــه اليوم يراها ضرورةً؛ لأنه بدأ يعيش الدواعي إلـــى إقرارهـــا والذهـــاب إليها، فتحوّلت حرية التفكير من ترف

كان بعضنا يدعو إليه قبل أوانه إلى ضرورة لا غنى لنا عنها، لقد غزت كلمة الحريــة الجميلة كل لســان، الطفل وهو الطفل رمت الثقافــة مصطلــح الحرية على لســانه، فوجدناه كثيراً ما يلجأ إلى هــذا المصطلــح، وإن كان مخطئاً في تسويغ ما يأتيه، وفي الفكاك من مسؤولية ما يرتكبه، ويقدم عليه.

وحينمــا ازدادت حاجتنــا إلى الحريــة بــدأ بعضنا يســتعين بالحريــة ويتخذهــا مركباً إلى فشوّ رأيه وانتشاره، ويأبى على غيــره أن يجري هــذا المجرى، ويسلك هذا الســبيل، والعلة هو أننا فــي مرحلة انتقالية من كون الحرية فكرة إلى كونها ممارسة، فمن الطبيعي في نظري أن يكون الانتقــال مرحلياً، فمــن مرحلة الفكرة إلى مرحلة الاستبداد في الاستنجاد بها والعمل في ضوئها، فالإنسان في هذه المرحلة يُذكّر من حوله بحقه منطلقاً من مفهوم الحرية؛ لكنه حين تتعلق الحرية بغيره يحتال عليها وعلى متخذها، ويبذل في ســبيل الإقناع بتفرده بها ما شــاءت قريحته، وجادت به فطنتــه، وبعدُ تأتــي مرحلة أخرى، يكــون لحريــة التفكير مطلق الســلطة، فتنتقل من حيز الاستخدام والتوظيف العشوائي إلــى منصة العمــل الفكري لكل الناس، فتغدو من بدهيات النظر والتفكير، وتصير ســلطةً يُحاكم بهــا الناس بعــد أن كانت دعوةً تقبلها طائفة وترفضها أخرى.

إنّنا اليوم نعيش مرحلة الانتقال من كون فكرة الحرية ذات تطبيق فردي واستخدام ضيق إلى كونها فكــرة ذات أفق واســع وفعالية كبيــرة، نحن اليوم نمر بمخاض

كبير، تتقدمنا فيه حرية التفكير، فهي التي ستعيد من جديد رسم الخارطة الذهنيــة لنا؛ لأنّ الحال قبل الحرية ســيختلف كثيراً عن الحال بعدهــا، بعد أن تســتقر الحرية مبدأ فكرياً يبدأ كل شيء من حولنا بالتحــول، إنه تحول في كل شــيء، ســتتغير نظرتنا إلى واقعنا ومستقبلنا، ستتغيرنا آمالنا وأهدافنــا، ويتبع ذلك كله تبدل في التعامــل مع الماضي، فتبرز منــه أمور كنا لا نراها، أو نراها ونســعى لإخفائها، ولعل هذا التحوّل الكبير بفعل إمساك حرية التفكيــر بزمامنا هو الذي يقود كثيراً منا إلى التخوّف منها والارتياب بمآلاتها وعقابيلها.

إنّ أولئــك الــذي يتذرعــون بالخــوف على الحــق الذي في أيدينــا لا أجد في نفســي لهم شيئاً إلا أن أقول لهم: متى كان الدين الحــق والخير والصلاح أحــد الخاســرين مــن حرية الاختيار والتفكير؟ ألسنا نقول دوماً وأبداً: إنّ الإسلام بمبادئه ومثله دين الفطــرة النقية، فمن ذا يســتطيع أن يقف في طريق دين كهذا، من بيده أيها الإخوة أن يصدّ مدّ ديــن تعينُ الداعيَ إليه نفــسُ المدعــو؟ بل أليس بعضنا يقول: الإســلام فقط في حاجة إلى أن يُفتح له الســبيل إلــى قلوب الناس، وســيقبلون إليه، ويتوافدون نحوه، ويقرّون به، ويعترفــون بنبوة ناقله؟ بل كيف يخاف من الحرية من كان انتشاره بالدعوة إليها ومحاربة أضدادها؟

خلاصــة القــول إنّ الحريــة فرضت نفسها اليوم عبر المجتمع نفســه وحاجاته، ولم تعد مطلباً لفلان أوعــلان، لقد بدأ المجتمع

يستشـــعر أن هذه الحرية مطلب لا مناص منـــه ولا مهرب، وبذا تكون حريـــة التفكير في طريقها لتحتـــلّ المكان الذي يليق بها في توجيـــه العقل الجمعـــي في هذا المجتمع الذي يعز على الكثيرين من أمثالي أن يظل رهن النزاعات الفردية، تأخذ به حيناً هنا، وحيناً هناك، بعيداً عن مصالحه القريبة، وأهدافـــه الكبرى البعيدة، لقد آن للحرية أن تنتصر للجماعة على الفردية، وللعامة على النخبة.

إنّ تحول حريـــة التفكير إلى قاسم مشترك بين الناس جميعاً يـــؤذن بصيرورتها من شـــيء نُقلّـــب فيه النظـــر، نقبله أونرده علـــى وجهه، إلى شـــيء نتخذه في رؤية الأشـــياء والأشخاص والأفكار، ومتى أصبحت حالها معنـــا هكـــذا، فســـتصبح هناك حدود أخـــرى للخارطة لم نعتد عليها، وتغدو هنـــاك معالم في الدرب لم نعهدها.

إنّ هـــذا التحـــول فـــي فكرة الحرية ربما اجتذب معه شـــيئاً مـــن التحديات، تحديـــات فكرية وتحديـــات وجدانية؛ لكن العبرة كما هي العادة بما ســـتحققها لنا حرية التفكير من خير وســـلام واطمئنان، العبرة بما ستخلصنا منه الحرية، وتأخـــذ بأيدينا من أحضانه، وقد قيل قديماً: ولا بد دون الشهد من إبر النحل.

صفوة القـــول إنّ مجتمعنا مرّ بمراحل يمكن تفصيلها حســـب الحرية وعدمها، فالمرحلة الأولى كانت الحرية فيها منزوية منعزلة، ويمكنني أن أطلق على هذه الفترة "ما قبل الحريـــة " إنها المرحلة التـــي كانت قريبـــة العهد بحياة الزراعة والبداوة، إنها الفترة التي لم تكن تســـمح للفرد والجماعة

أن يعيشـــوا في استقلال تام عن المحيط، وليس من شك! أنّ هذه الحالة من عدم الحرية كانت هي السبيل الأنســـب والأصلح لأهل تلك الفترة، وتلتها مرحلة أخرى نعيش فيما أحسب نهاياتها، وهي مرحلة "ما بعــد الحرية " وفيها بدأ المجتمع وأهله يكونون أكثر تقديراً واحتراماً لحرية الإنسان وخصوصيته.

ونحن الآن ننتظر المرحلة التي تصبح فيها الحرية شـــعاراً لكل إنسان ودثاراً؛ لأنّ الظروف التي نعيشها الآن لا يصلح لها إلا هذا النوع من الناس؛ لأننا نعيش في زمن تكاثرت علينا فيه التحديات، ولم يعد مُجدياً لنـــا إلا أن نقدح زناد عقول الجميع في استشراف مستقبل زاهر، والبحث عن موطئ قدم في هذا العالم المتسارع.

أقوى العوامل الداعية للوحدة

سماحة الشيخ نمر باقر النمر

إنّ الوحدة الإسلامية تستمد شـرعيتها من مصادر المعرفة والإلهام الخمسة؛ لِمعرفة وبناء دعامتي وركيزتي الحياة، وهما عمارة الأرض، وإصلاح العباد؛ وهذه المصادر هي ذاتها مصادر المعرفة للفكر الأصيل، والبصيرة المنيرة، والرؤية الثاقبة، والعمل الرشيد، والموقف المسؤول.

وهذه المصادر هي:

١. الوحي، لما يمثل من منظومة

فكرية سليمة، لا عيب فيها ولا خلل، وشاملة لكل أبعاد الحياة ومجالاتها، ومتكاملة لا نقص فيها ولا قصور، وجامعة لكل متناقضات الحياة وحاجات الكون والإنسان، ومنسجمة لا تناقض فيها ولا اختلاف.

٢. العاطفة، لما تمثله من أحاسيس بشرية جياشة، ومشاعر إنسانية نبيلة، وطبائع اجتماعية أصيلة، وحاجات نفسية ضرورية.

٣. الفطرة، لما تمثله من أصول فكرية يعرف الإنسانُ من خلالها الوحي الإلهي الذي ما نَزَل إلا ليُذَكِّر بمكنونها؛ وما تمثله من نفس لوامة تحافظ على حياة الضمير ويقظته، وتوقد حرارة العاطفة الجياشة.

٤. التجربة، لما تمثله من تراكم خبرة إنسانية ممتدة من الملاحظة الدقيقة، والتفكير المتأمل، والتكرار الواعي للملاحظة أو الفعل، واستحضار الدليل الواضح، واعتماد البرهان القاطع، لتثبيت نظرية أو تفنيدها؛ ومن ثم الانطلاق والسعي في التفكير والعمل؛ بناءً على الحقائق الجلية، وتجاوز الأوهام الخيالية التي يتيه الناس في زوبعاتها، ورفض الخرافات الجاهلية التي تُكَبِّل عقولَ الناس وطاقاتِها.

٥. العقل، لما يمثله من منظار صافٍ لا يتشوش ولا يُخطئ؛ لتشخيص الفكر وتمييزه، وفهم الوحي وتطبيقاته؛ وهو قسطاس مستقيم، ومقياس هدى، لتحديد النسبة الصحيحة، والدرجة الطبيعية للعاطفة، وحمايتها من خداع النفس الأمارة بالسوء؛ وهو ميزان صدقٍ لعلمية وموضوعية وسلامة التجربة أو قصورها أو

انحيازها أو سقمها.

ومن نبع هذه المصادر الخمسة، تتشكل البصيرة الثاقبة، والرؤية النافذة، وتردفان بالعمل المبدئي، والموقف المسؤول؛ لتشييد صرح الأمة الواحدة على أساس أقوى العوامل الداعية للوحدة وهي:

١ـ الأحاسيس الوجدانية المشتركة المحشوة بالإيمان؛ وهي أهم الوشائج والروابط في بناء صرح الوحدة الإسلامية بعد رابطة العقيدة؛ لأن الارتباط العاطفي، والمشاركة الوجدانية؛ بين المسلمين يذيب كل الحواجز المصطنعة التي كرسها الواقع الجاهلي؛ ومن ثم يقتلع المؤمنين من جاذبية الأرض والجسد الحيوانية؛ ليسمو بهم إلى شفافية السماء والروح الإنسانية؛ وكأنهم مشتركون في وجدان واحد؛ إذا تألم واحد منهم تألم له الآخرون؛ وهكذا حزنه وسروره يُحْزِن ويُسِرُّ المؤمنين؛ لأنهم يعيشون في حالة من التعاطف والانسجام الوجداني الصادق؛ الناشئ من الشعور الإنساني الملتهب، والعقيدة الإيمانية الراسخة.

قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «المؤمنون في تبارهم، وتراحمهم، وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى تداعى له سائره بالسهر والحمى».

وقال عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن؛ كالجسد الواحد؛ إذا اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده؛ وأرواحهما من

روح واحـــدة؛ وإنّ روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها».

وقال عليه السلام : «إنما المؤمنون بنو أب وأم؛ وإذا ضَـــرَبَ على رَجُلٍ منهم عِرْقٌ سَهَرَ له الآخرون».

وقـــال عليه السلام : «لا والله لا يكـــون المؤمن مؤمناً أبـــداً حتى يكون لأخيـــه مثل الجســـد؛ إذا ضرب عليه عرق واحد تداعت له سائر عروقه».

وقال عليه السلام : «لكل شـــيءٍ شـــيءٌ يســـتريح إليـــه؛ وإنّ المؤمـــن يســـتريح إلى أخيه المؤمن كما يستريح الطير إلى شكله».

وقال عليه السلام : «المؤمن أخو المؤمن كالجســـد الواحد؛ إذا سقط منه شيء تداعى سائر الجسد».

وعـــن جابر قال: تنفســـت بين يديـــه ـ أي بين يـــدي أبي جعفر الباقـــر عليه السلام ـ ثـــم قلـــت: يـــا ابن رســـول الله هَمٌّ يصيبني من غير مصيبة تصيبنـــي، أو أمر ينزل بي، حتـــى تعـــرف ذلـــك أهلي في وجهـــي، ويعرفـــه صديقي؛ فقال عليه السلام : «نعم، يا جابر» قلت: ما ذلك يا ابن رســـول الله؟ قال عليه السلام : «وما تصنـــع؟» قلـــت: أحب أن أعلمه؛ فقال عليه السلام : «يا جابر؛ إنّ الله عزّوجل خلق المؤمنين من طين الجنـــان، وأجرى بهـــم من ريح الجنة روحه؛ فكذلك المؤمن أخو المؤمن لأبيـــه وأمه؛ فإذا أصاب روحاً من تلك الأرواح في بلدة من البلدان شيءٌ حزنت هذه الأرواح لأنها منها».

وقال الإمام الباقر عليه السلام : «المؤمن أخو المؤمن لأبيـــه وأمه؛ لأنّ الله عزّوجل خلق المؤمنين من طين الجنان، وأجرى في صورهم من ريح الجنان؛ فلذلك هم إخوة لأب وأم».

ولم ولن يفقد الفرد المؤمن شخصيته الفردية، ولا خصوصياته الشخصية، ولا كيانه المستقل؛ بارتباطه العاطفي في المجتمع الإيماني، ومشاركته الوجدانية؛ في بوتقة الأمة الإسلامية ضمن المجموع المتكون من المؤمنين؛ وإنما يكتسب قدرات أكبر، وإمكانات أكثر، وفضائل أجمل، ومناقب أحسن، وحصناً يحميه من الأشرار، وأسواراً تمنع عنه زوابع الأعداء؛ ويُغَذِّي معارفه العقلية بمشاركة المؤمنين في عقولهم، ويوسع دائرة ارتباطاته الاجتماعية بالعلاقات المبدئية، ويُشْبِع نَهَمَه الروحي بالسكينة ببركة التوافق والانسجام بينه وبين المؤمنين، ويُرْوي ظمأه النفسي بزلال أُخُوَّته الإيمانية وأحاسيس إخْوَته المؤمنين.

يقول الإمام علي عليه السلام: «إنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بِقلّة؛ وهو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعده وأمده؛ حتى بلغ ما بلغ، وطلع حيث طلع؛ ونحن على موعود من الله؛ والله منجز وعده وناصر جنده؛ ومكان القَيِّم بالأمر مكان النظام من الخَرَز،[٣] يجمعه ويضمه؛ فإن انقطع النظام تفرق الخرز، وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً؛ والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً؛ فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع».

٢ـ المصير المشترك الوحيد للنجاة؛ لأنه حينما لا ينفع مال ولا بنون، وتتقطع كل الوشائج والعلاقات والارتباطات بما فيها الوشائج المشروعة كرابطة الرحم؛ حيث يفر الكلُّ من الكلِّ، ويتخلى الجميعُ من الجميعِ؛

وحينما تنهار في نار جهنم كل الأبنية التي أسست على شفا جرف هارٍ من الدويلات والقوميات والإقليميات والوطنيات والقبليات والعشائريات والتحزبات والحَمِيَّات الجاهلية و...؛ هنالك يحتاج الإنسان إلى قلب سليم بالتقوى ينفعه عند الله، ورابطة إيمانية منسوجة بوجه الله الذي لا يفنى لكي يتعلق بها، وعروة وثقى من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله يتمسك بها، وحبل من الله يعتصم به، وبناء أسِّس على التقوى والرضوان الإلهي؛ لأنّ كل العلاقات والوشائج بين الناس في هذه الدنيا تتحول يوم القيامة إلى وَقود العداوة بين الناس ما عدى علاقات المتقين حيث يأذن الله سبحانه وتعالى لهم بالشفاعة فيشفعون؛ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾.

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّه وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّه يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّه يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّه وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّه لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّه عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٣ـ العقيدة الإيمانية الواحدة؛ لأنّ أهم العناصر والوشائج والروابط التي تُشيِّد صرح

الوحـــدة، وتحقق مفهـــوم الأمة الواحدة هي وحدة الفكر والعقيدة التي تقتلع الحجب بين المؤمنين؛ وذلـــك عندمـــا تعالـــج الضيق والحرج بســـعة وشرح الصدور، وتشافي العمى والدرن ببصيرة وجلاء القلوب، وتداوي الجشـــع والجمـــوح بالقناعـــة وترويض النفوس؛ لتُكَوِّن التعارف، وتُشَكِّل التوافق، وتُحَقِّق انسجاماً روحياً مؤتلفاً ينجذب بعضه إلى بعض؛ لأن ما تعارف مـــن هذه الأرواح والأنفس باتفـــاق العقل والعقيدة والفكر والرأي والهوى انســـجم وائتلف، ومـــا تناكر منها بمباينة في العقـــل أو العقيدة أو الفكر أو الـــرأي أو الهوى افترق واختلف؛ وهذا ما ينطـــق ويتكلم به الواقع الخارجـــي، وندركـــه بالحواس، ونشـــاهده جلياً واضحـــاً، فكم وكم من الناس الذين اختلفوا في العشـــيرة والوطن والقوم واللغة والعناصر المادية الأخرى ولكنهم اتفقوا في العقل والعقيدة والأفكار والآراء والعلاقات الروحية، نراهم منســـجمين متحابين متجاذبين كأنهـــم أســـرة واحدة بـــل روح واحدة في أجساد متعددة؛ وهذا ما تؤكده النصوص الشرعية.

قـــال الإمـــام الصـــادق عليه السلام: «الأرواح جنـــود مجنـــدة تلتقي فتتشـــام كما تتشـــام الخيل؛ فما تعـــارف منها ائتلـــف، وما تناكر منها اختلـــف؛ ولو أنّ مؤمناً جاء إلى مســـجد فيه أناس كثير ليس فيهـــم إلا مؤمـــن واحـــد؛ لمالت روحه إلـــى ذلـــك المؤمن حتى يجلس إليه»؛ لأنّ حقيقة إنسانية الإنســـان بعقله وعقيدته وفكره وآرائه؛ وبها يمتاز الإنســـان عن سائر أنواع الحيوان والمخلوقات الأخرى، ويُفضَّل عليها؛ والعقيدة

هي التي تُشكِّل بنية قلب الإنسان، وتُكوِّن تطلعاته الروحية، وتُوجِّه ميولاته النفسية، ومن ثم تنعكس على سلوكياته وأعماله ومواقفه، وبالتالي تنشـــئ وتحدد علاقاته وارتباطاته.

«محتسبون» يشيعون الفوضى في معرض الرياض للكتاب.. والأمن يتدخل

ماجد المليموني، نواف عافت، مريم الصغير، أحمد الحذيفي ـ الرياض[٤]

شـــهد معرض الرياض الدولي للكتاب فـــي يومه الثاني البارحة، مشـــادات كلاميـــة، وصدامات العديد مـــن زائريه وبعض ممن أطلقوا على أنفسهم «المحتسبة» الذيـــن توافـــدوا إلـــى المعرض بشـــكل جماعي، وقال بعضهم: جئنا للدعوة إلى الله، وإنكار بعض المخالفات!!!

ونفى المتحدث الرسمي للهيئة في الرياض، تركي الشـــليل في تصريحه لـ «عـــكاظ» أن يكون هؤلاء من أعضـــاء أو من رجال الهيئة، ولاعلاقة لها بهم؛ موضحاً: «مـــن لا يحمل بطاقـــة من الهيئة للمشاركة في المعرض فلا علاقة لها بهم».

ورصـــدت «عـــكاظ» عـــدة حالات لمن أســـموا أنفســـهم بـ «المحتسبين»:

منهـــا: وقوفهم لمـــا يقرب من ســـاعة ونصـــف أمـــام جنـــاح التلفزيون السعودي، وطلبوا من إحدى ضيفات برنامج تلفزيوني ومذيعتـــه بمغادرة المـــكان، إلا أن رجال الأمـــن أخرجوهم من المكان.

والثانيـــة: منعهـــم زائـــراً من التصويـــر بجهـــازه المحمول، وأدى ذلك لمشـــاجرة وتشابك

بالأيدي بيـــن الاثنين قبل تدخل رجال الأمن، الذيـــن أخرجوهم خارج صالة المعرض.

ومشـــهد ثالث: طلـــب أحدهم ســـحب بعض الكتب من أجنحة دور نشـــر لبنانيـــة ومصريـــة، قائلين: إنها كتب مخالفة للشرع!

من جانبهـــا أوضحت إعلامية تواجـــدت فـــي المعـــرض أنها تعرضت لمضايقات من هؤلاء، وطالبوها وزميلاتهـــا بالتوقف عن التصوير، لأنه «حرام!» فيما أشـــارت أخرى إلـــى أن أحدهم اتهمهـــا بمغازلته أثنـــاء تأديتها عملها الإعلامي، مبينة أنها تقدمت ببلاغ رســـمي إلى الشرطة التي اتخذت الإجراء اللازم حياله.

وبينـــت إحـــدى منســـوبات وزارة الصحـــة أنهـــا تعرضت لمهاجمة بعضهم، متهمين إياها بـــ «الفســـوق» رغـــم التزامها بالحجاب الكامل، ولم تســـتطع تكملة التسوق في المعرض.

وفي ســـياق متصل، تقدم عدد من الإعلامييـــن ببلاغات لرجال الشرطة المتواجدين في المعرض، حيـــث أوضـــح عضـــو اللجنة الإعلامية للمعرض، عبدالله وافية أنّ بعضاً ممن أســـموا أنفسهم بـ «المحتســـبين» تهجموا عليه وهددوه بكســـر يده، وتجمهروا حـــول الإعلامي تركـــي الدخيل وقالوا له: اتق الله فيما تقدمه من برامج! ثـــم توجهوا إلـــى وزير الثقافة والإعـــلام عقب حضور توقيع كتاب الأديـــب عبدالله بن إدريس، وقالوا لـــه: اتق الله فيما يعرضه المعرض من كتب!

وشـــهد مركـــز الشـــرطة في المعـــرض زحامـــاً أثنـــاء توافد الزوار إليه بشكواهم وبلاغاتهم ضد أولئك، وأدت تلك الحوادث

إلى تواجد رجال الأمن بكثرة، في محاولة للحد من تلك المضايقات، وشوهد تواجد أعداد كبيرة من مدعي رجال الهيئة والحسبة خارج المعرض، بعد أن أخرجهم رجال الأمن.

المتشددون!!!
متشدد يعترض طريق وزير الثقافة والإعلام ويهاجمه بألفاظ نابية و«عضلات المتشددين» تطال رجال الأمن والإعلاميين!

الرياض، سلوى العمران وأسمهان الغامدي[٥]

لم يكتف المتشددون بما أحدثوه من فوضى عارمة في معرض الكتاب خلال الفترة المنصرمة والتطاول اللفظي على الدكتور عبدالعزيز خوجة وزير الثقافة والإعلام الذي لم يغب يوماً عن معرض الكتاب بحضوره المتواضع للإشراف على برامج المعرض، والوقوف عليها بنفسه، ولتمتد في اليوم الخامس على التوالي عندما كان في جولته على

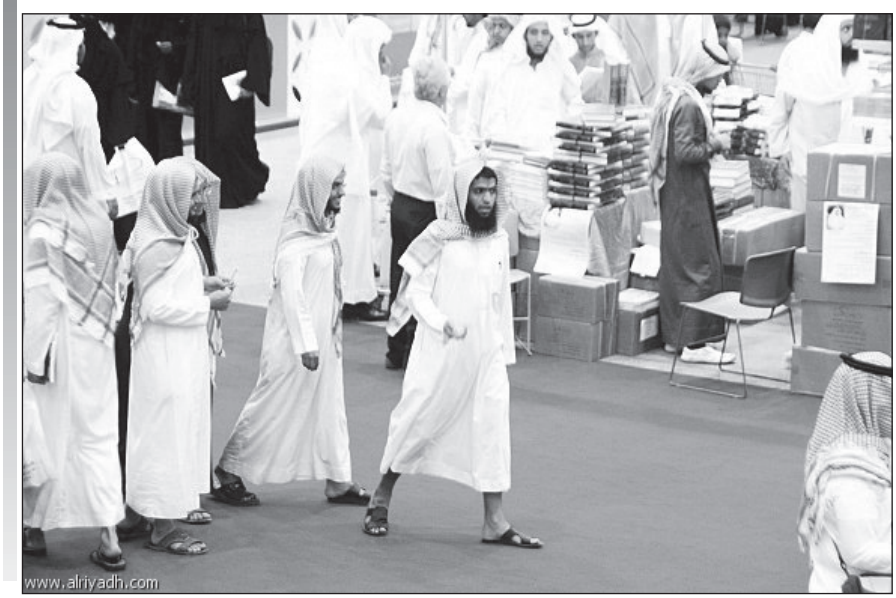

أجنحة المعــرض ليقطع طريقه أحد المتشــددين، ويوبخه بنبرة خالية مــن الأدب قائلاً: « أنت ما تستحي، كيف تخلي المرأة تدخل وتتحــدث لهــن « ومــا كان من الوزيــر إلا أن تلقى تلك الكلمات الحــادة برحابة صــدر كعادته، وأكمل جولته في أرجاء المعرض، وما زال ســيناريو المتشــددين قائمــاً بالمعــرض، ومضايقتهم للزائرات والأكاديميات إضافة إلى تدخلهم بتوجهات الزوار الفكرية فــي مقتنياتهم الشــرائية، وعند خروجهم مــن المعرض خرجوا بطريقــة مســتفزة ومســتنكرة مرددين هتافــات لا تليق بمكان كمعرض الكتاب الدولي.

واكتمل سيناريو «المتشددين» الذي لا يمت للدين الإسلامي بأية صلة ويحرص على رعاية التخلف الثقافي في معرض الكتاب مساء، حيث أقدمت مجموعة منهم يقدر عددها بـ ٣٠ متشــدداً بالهجوم على المعرض قبيل إغلاقه بهدف مناصحة الإعلاميين والإعلاميات، وتم منعهم مــن قبل قوات الأمن التي تفاجأت بهجوم «المتشددين» عليها والتشابك بالأيدي مما أدى إلــى إصابة أحد أفراد الشــرطة بجروح في الرأس نقل على إثرها للمستشــفى، ولم يكتفوا بهذا بل امتد هجومهم ليصل لكل إعلامي حامل بطاقتــه وقد أدى ذلك إلى إصابة في قدم الزميل «ســلمان المسدر» من صحيفة الوطن.

من جهتهــا تمكنت قوات الأمن من فض الاشتباك الحاد واعتقال ستة من المتشددين الذين جاءوا بهدف التخريب تحت لواء الإسلام الذي يبرأ منهم ومن تصرفاتهم الرعناء.

شخصية الجنادرية المكرمة
الدكتور عبدالوهاب
أبوسليمان، سيرة عطرة،
علم شامل، وفكرمتزن

الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان

كعادتها في كل عام دأب المهرجان الوطني للتراث والثقافة (الجنادرية) على تكريم شخصية أثرت الوطن علماً وثقافة، وقد تم اختيار الأستاذ الدكتور عبدالوهاب بن إبراهيم بن محمد أبو سليمان، عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، وعضو المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي.

ولد في شهر المحرم عام ١٣٥٦هـ بمكة المكرمة؛ تلقى تعليمه الابتدائي بدار الأيتام بمكة المكرمة، وتخرج فيها عام ١٣٦٩هـ، ثم التحق بالمعهد العلمي السعودي وتخرج فيه عام ١٣٧٣هـ.

واصل تعليمه الجامعي بكلية الشريعة بمكة المكرمة، وتخرج فيها عام ١٣٧٧هـ، تتلمذ على علماء الحرم المكي الشريف، ولازم العلامة المحدث الفقيه القاضي، المدرس بالحرم الشريف الشيخ العلامة حسن محمد مشاط ملازمة امتدت سبع سنوات، درس عليه في منزله، وبالحرم الشريف أثناءها العلوم الشرعية: الفقه، وأصوله، والحديث، وعلومه، ودرس عليه أيضاً علوم اللغة العربية: النحو، والبلاغة، والمنطق، مختصراتها

ومطولاتها خلال مراحل الدراسة الثانوية والجامعية.

بدأ حياته العملية في صفر عام ١٣٧٨هـ، مدرساً لمادتي الفقه والتفسير بمدرسة الزاهر المتوسطة، وقد أعد في هذه الفترة تفسيراً للأجزاء المقررة من تفسير القرآن؛ انتدب لتدريس اللغة العربية وطرق تدريس العلوم الشرعية بالدورة الصيفية للمعلمين التي كانت تنظمها وزارة المعارف بالطائف.

حصل على دبلوم التربية للمعلمين من الجامعة الأمريكية ببيروت في صيف عام ١٣٨٢هـ.

صدر أمر وزير المعارف بنقله مدرساً إلى المدرسة العزيزية الثانوية بمكة، فدرس فيها العلوم العربية والدينية، وأخرج أثناء هذه الفترة ملخصاً مدرسياً لكتاب عبقرية الصديق لعباس محمود العقاد، و أمر وزير المعارف حينها بتعيينه عميداً بكلية الشريعة لمادتي: أصول الفقه والفقه المقارن في عام ١٣٨٤هـ.

وفي عام ١٣٨٥هـ ابتعث إلى جامعة لندن لدراسات العليا، حصل على درجة الدكتوراه مع توصية بطبع الرسالة في شوال من عام ١٣٩٠هـ، وكذلك حصل على دبلوم في القانون الإنجليزي والدراسات الحقوقية أثناء تحضيره للدكتوراه من كلية مدينة لندن، وبعد حصوله على الدكتوراه وعودته إلى الوطن، عين أستاذاً مساعداً بكلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة، في شوال عام ١٣٩٠هـ، و ترقى لدرجة أستاذ مشارك بقسم الدراسات العليا في ١٣٩٨/٢/١٩هـ بعد ذلك ترقى لدرجة «أستاذ في الفقه والأصول»

بكلية الشـــريعة بجامعة أم القرى في ١٤٠٣/٢/٢٣هـ.

وقد تقلد العديد مـــن الوظائف الإداريـــة والعمليـــة، حيـــث عين عميداً لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبدالعزيز بموجب قـــرار مجلـــس الجامعة بتاريـــخ ١٣٩١/٨/١٢هـــ. حتى ١٣٩٣/٨/١٢هـ، وقد منح الميدالية التقديريـــة للجامعة مـــن الدرجة الأولى في ١٣٩٣/٨/١٢هـ تقديراً للأعمال الميدانية التي أداها خلال عمادته بكلية الشـــريعة، ورشح كعضو لجنة الترقيات العلمية منذ تشـــكيلها بجامعة أم القرى حتى عام ١٤١٤هـ، عضو لجنة معادلة الشهادات الجامعية بوزارة التعليم العالي بتاريخ ١٣٩٧/٤/٤هـ حتى عـــام ١٤٠٤هـــ، زار خلال هذه الفترة عـــدداً كبيراً من الجامعات الأوروبيـــة والأمريكيـــة، واختير من قبل وزارة المالية والاقتصاد الوطني لرئاســـة لجنة الاستئناف الجمركية للمنطقة الغربية بوزارة الماليـــة والاقتصاديـــة الوطنـــي للفترة مـــن عـــام ١٣٩١هـ حتى عام ١٣٩٦هـ وعين رئيساً للجنة تقويـــم المخطوطـــات بالجامعة عام ١٣٩١هـــ حتى عام ١٣٩٥هـ وعضـــو المجلس العلمي بجامعة أم القـــرى منذ عام ١٤٠٥هـ حتى عام ١٤١٤هـ وعضو مركز التراث الإسلامي بجامعة أم القرى سابقاً، و عضـــو مجلس عمادة شـــؤون المكتبات بجامعـــة أم القرى عام ١٤٠٩هـ.

وفي عـــام ١٣٩٧/٩٦هـ التحق بكلية الحقـــوق بجامعة (هارفرد) بالولايـــات المتحـــدة الأميركيـــة أســـتاذاً باحثـــاً، وألقـــى بهـــا محاضرات في الفقه الإســـلامي، كما ألقى بعض المحاضرات عن

القانــون الإســلامي وتطبيقه في الوقت الحاضر في المملكة العربية الســعودية في جامعة "بوستن" بالولايات المتحدة الأمريكية، وفي مركز الأديــان بجامعة (هارفرد) وكذلك انتدب أســتاذاً زائراً إلى جامعة (ديوك) بنورث كارولاينا بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٤٠١هـ ، وتــم اختياره كعضو لجنة خبراء الموســوعة الفقهية بمجمع الفقــه الإســلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي حالياً، وعمــل أســتاذ زائــر بالجامعة الإســلامية العالمية بماليزيا عام ١٤١١هـــ / ١٩٩٠م ، وأســتاذاً زائراً بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا للفصل الدراســي ابتداءً من يوليو عــام ١٩٩٢م حتى ١٥ نوفمبــر عــام ١٩٩٢م، وعضواً للجنــة العلمية بالبنك الإســلامي للتنمية بجدة حالياً، و عضو الهيئة الشــرعية العالمية للزكاة بدولة الكويــت فــي ٧ جمــادى الأولى عام ١٤١٣هـ الموافق ١ ديســمبر عــام ١٩٩٢م ، وعضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، بموجب الأمر الملكي رقم (أ/١٣٨) وتاريخ ٦/٦ /١٤١٣هـ ، إلى جانب ذلك تم اختياره عضــواً لجائزة الملك فيصل العالمية للدراســات الإســلامية حتى عــام ١٤٢٠هـ ، وعضــواً لجائــزة الأمير نايف العالمية للسنة النبوية والدراسات الإسلامية عام ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م.

وكانــت لــه مشــاركات فــي المؤتمــرات الدوليــة والحلقات الدراسية والندوات العلمية.

نتاجه العلمي:

أولاً : الفقه الإســلامي (الكتب المطبوعة:)

١ـ تحقيــق مجلــة الأحــكام

الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ودراستها بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي؛ عام ١٤٠١هـ.

٢ـ ترتيب موضوعات الفقه الإسلامي ومناسباته في المذاهب الأربعة، عام ١٣٠٩هـ.

٣ـ عقد الإجارة مصدر من مصادر التمويل الإسلامية؛ عام ١٣٩٢هـ.

٤ـ البطاقات البنكية، دراسة فقهية قانونية اقتصادية تحليلية؛ الطبعة الأولى عام ١٤١٩هـ.

٥ـ فقه الضرورة وتطبيقاته المعاصرة: آفاق وأبعاد عام ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٦ـ منهجية الإمام محمد بن إدريس الشافعي في الفقه والأصول، تأصيل وتحليل؛ المكتبة المكية عام ١٤٢٠هـ.

٧ـ الفكر الأصولي: دراسة تحليلية نقدية؛ الطبعة الثانية، عام ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٨ـ تحقيق كتاب «الجواهر الثمينة في بيان أدلة عالم المدينة» للعلامة الفقيه الأصولي الشيخ حسن بن محمد المشاط؛ الطبعة الثانية، عام ١٤١١هـ.

٩ـ الضرورة والحاجة وأثرها في التشريع الإسلامي (بحث أصولي) منشور في كتاب بعنوان (دراسات في الفقه الإسلامي) منشور بمجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي، جامعة أم القرى، عام ١٤٠٢هـ.

ثانياً : كتابة البحث العلمي ومناهجه (الكتب المطبوعة)

١٠ـ كتابة البحث العلمي صياغة جديدة، الطبعة السادسة، عام ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

١١ـ كتابة البحث العلمي ومصادر الدراسات القرآنية

والسنة النبوية والعقيدة الإسلامية؛ الطبعة الثانية، عام ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

١٢ـ كتابة البحث العلمي ومصادر الدراسات العربية والتاريخية طبعتان.

١٣ـ الدليل إلى كتابة البحوث الجامعية ورسائل الدكتوراه: (كتاب مترجم من الإنجليزية إلى اللغة العربية) الطبعة الثانية، جدة : تهامة للنشر والتوزيع، عام ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م.

١٤ـ منهج البحث في الفقه الإسلامي خصائصه ونقائصه؛ المكتبة المكية، عام ١٤١٦هـ.

١٥ـ منهجية الإمام الشافعي في الفقه وأصوله، المكتبة المكية، عام ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

١٦ـ المنهج الإسلامي في مكافحة الجريمة وتطبيقه في المملكة العربية السعودية ٢٠٠١م.

ثالثاً: (دراسات في التاريخ والعقائد) كتب مطبوعة:

١٧ـ الحرم الشريف الجامع والجامعة، المقدمة التاريخية للنهضة الفقهية في مكة المكرمة في القرن الرابع عشر الهجري، عام ١٤١٧هـ.

١٨ـ دراسة وتحقيق كتاب (الجواهر الحسان في من لاقيته من الأعيان) تأليف العلامة الفقيه الشيخ زكريا بن الشيخ عبدالله بيلا رحمه الله، بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور/ محمد إبراهيم علي؛ تحت الإعداد.

١٩ـ الحرمان الشريفان وجامع الزيتونة؛ بحث مقدم إلى جامعة الزيتونة بمناسبة مرور ثلاثة عشر قرناً.

٢٠ـ مكتبة مكة المكرمة (المولد النبوي الشريف) ، مجموعاتها

وأدواتهـا، الرياض: مكتبة الملك فهـد الوطنيـة، عـام ١٤١٦هـ، كتاب.

٢١ـ العلماء والأدباء الوراقون في الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري، نشـرة نـادي الطائف الأدبي عام ١٤٢٣هـ.

٢٢ـ منظمـة الإيجـا محمـد الأمريكية، دراسة وتحليل، الطبعة الأولى، جدة: دار الشـروق، عام ١٣٩٩هـ.

٢٣ـ الأماكن المأثورة المتواترة في مكة المكرمة.

إضافة إلى العديد من البحوث المتنوعـة المنشـورة في أغلب الدوريات المحكمة بعضها حول قضايا الزكاة المعاصرة، وعقود المعاملات المعاصرة، ودراسات في مناسك الحج.

وقد حصل كتاب (باب السلام ودور مكتباته في النهضة العلمية والأدبيـة الحديثة) علـى جائزة أفضل كتاب للعام ١٤٢٨هـ مقدمة من نادي الرياض الأدبي، ويتناول هـذا الكتاب السـاحة الخارجية لباب السـلام، أحد أبواب الحرم المكي الشريف وأقدمها، وأكثرها شهرة، وقد كانت هذه المنطقة مقراً لكثير من المكتبات التجارية التي كونت سـوقاً للوراقة، وأسهمت في تغذية الحركة العلمية والأدبية في البلد الأمين؛ حيث يتحدث عن مواقع هذه المكتبات، ومسيرتها، ومشاركاتها في الحركة الثقافية لا من حيث نشر الكتب وترويجها وحسـب ولكن مـن حيث كون معظمهـا مجالس يجتمـع فيها العلماء والمثقفون.

يتضمن الكتاب تسـعة فصول يتتبع الفصـل الأول تاريخ باب السلام منذ توسعة الخليفة المهدي فـي المدة من ١٦٠هـ / ١٦٤هـ

حتى القرن الثالث عشر الهجري حين أصبح الموقع مركزاً وطنياً وإسلامياً للمكتبات التجارية، استمر حتى سنة ١٣٧٥هـ وهي السنة التي هدمت فيه هذه المنطقة لتدخل ضمن التوسعة السعودية للحرم الشريف.

ومثّل الفصل الثاني إطلالة تاريخية على سوق الوراقة في مكة المكرمة قديماً؛ أمّا الفصل الثالث فقد رصد هذه المكتبات المنتشرة على مساحة كبيرة نسبياً في اتجاهات مختلفة، مع ذكر تراجم لبعض أصحاب تلك المكتبات.

وقد قسّم المؤلف المكتبات بعد ذلك بحسب موقعها في تقسيمات الرقعة المكانية، فاستعرض في الفصل الرابع مكتبات باب السلام المطلّة على الرحبة الرخامية؛ وتحدّث في الفصل الخامس عن مكتبات الرحبة الحجرية؛ وأفرد الفصل السادس لمكتبات باب السلام الصغير، محدّداً مواقعها حسب الإمكان، ثم ذكر مكتبات أخرى سابقة بباب السلام الصغير لم يتعين موضعها؛ وجعل الفصل السابع لمكتبات باب السلام الكبير في الضلعين الجنوبي والشمالي.

وخصص المؤلف الفصل الثامن للنشاط الطباعي مستعرضاً أهم المكتبات التي نشطت في طبع الكتب، مع عرض نماذج من مطبوعاتها.

وتحدّث فيه عن مطابع أصحاب المكتبات في باب السلام، والنشاط الإعلامي والإعلاني، وأصحاب هذه المكتبات مع إيراد نماذج من الإعلانات.

أمّا الفصل التاسع والأخير فكان موضوعه النشاط التجاري

والحِرَفي في باب السلام؛ تحدّث فيه المؤلف عن النشاط التجاري المتمثل في استمرار الكتب والمجلات، وتأمين المقررات المدرسية والأدوات الكتابية، كما خص بالذكر أنواعاً من الهدايا التي كانت تباع في هذه المنطقة، كقطع كسوة الكعبة المشرفة، والصور التذكارية والسبح، والعقود، والطوابع وغير ذلك.

وتحدّث عن النشاط الحرفي المتمثل في نسخ الكتب وتجليدها، والخطاطة، وكتابة العرائض، وصناعة الأختام النحاسية، وصناعة الكحل، والحبر الأسود.

ويضم هذا الفصل لمحات عن الذكريات والأحداث المرتبطة بهذه البقعة من البلد الأمين.

وينتهي الكتاب بخاتمة وثبت للمصادر وفهارس علمية.

تميّز الكتاب بالإخراج الجيّد مع تزويده بكل ما تيسر للمؤلف من مخططات هندسية وصور، وطباعة بالألوان.

ومعالي الدكتور عبدالوهاب أبوسليمان ومن خلال سيرته العلمية المتميزة، والخصبة، وحرصه على تقديم مايثري تاريخ مكة والمسجد الحرام جدير بالتكريم لكونه نموذج العالم الوسطي الذي جمع الأصالة والمعاصرة في علمه ومنهجه.[٦]

الهوامش

١. ٨/ ٢/٢٠١١م.

٢. جريـدة الرياض، الثلاثـاء ٢٨ صفر ١٤٣٢ هـ - ١ فبراير ٢٠١١م - العدد ١٥٥٦٢.

٣. النظام: الخيط الـذي ينظم فيه اللؤلؤ ونحوه. والخَرَز: ما ينظم في السـك من الجذع والودع.

٤. صحيفة عكاظ، العدد: ٣٥٤٦، الخميس ١٤٣٢/٣/٢٨.

٥. جريدة الرياض، العدد ١٥٥٩٥؛ ١ربيع الآخر١٤٣٢هـ

٦. الـريـاض، العدد ١٥٦٣٤، الخميس ١٠جـمـادىالأولـى١٤٣٢هـ ١٤اپريل٢٠١١م.